كتاب الهلال — ١٠ قروش

سلسلة ثقافية شهرية

على هامش الغفران

الدكتور لويس عوض



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : محمود أمين العالم

العدد ١٨١ ذو الحجة ١٣٨٥ ـ أبريل ١٩٦٦

No. 181 — Avril 1966

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى ـ فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ـ فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

ں

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــلاف بريشــــة

الفنان جمال كامــل

على هامش الغفران

تأليف

الدكتور لويس عوض

•

دار الهلال

الاهداء

الى سر محمد مندور ،

سئم صحبة الأشباح القلقة ،

فتلقى عنى طعنة ثم مضى ،

الى وديان الآس والريحان والغفران العميم .

على هامش الغفران

عندما نشرت هذه البحوث التسعة في ملحق « الاهرام» بين ١٦ اكتوبر و ١١ ديسمبر ١٩٦٤ تصدى لنقدها ولنقدى المحقق المعروف الاستاذ محمود شاكر على صفحات مجلة « الرسالة » وشاركه في هذا العبء أساتذة آخرون فى مجلتى « الرسالة » و « الثقافة » وغيرهما . وقد وجد نقادى ما يقولونه فى عملى المتواضع هذا قولا متصلا على صفحات هاتين المجلتين من بداية خريف ١٩٦٤ الى بداية صيف١٩٦٥ ، وما فرغوا ، ولكن هكذا شاءت المقادير ان يصمتوا عنى حين كان يجمل ان يصمتوا • ولو ان كل ما كتبه نقادى عنى ابان هذه الفترة جمع فى مجلدات لبلغ عددها خمسا او ستا من اضخم الاحجام • ولست احسب ان كل ما كتبه نقادى عنى كان يدور حول موضوع « الغفران »، فقد استطردوا الى وجوه أخرى من انتاجى الادبى والفكرى خلال ربع قرن كانوا قد صمتوا عنها ذلك الزمان المديد ، ثم شاءوا فجأة ان يتناولوها بالنقد والتحليل : وفى مقدمة هذه الوجوه موقفى القديم من مشكلة الازدواج اللغوى وموقفى القديم الجديد من عمود الشعر العربى التقليدى ، ثم موقفى من تاريخنا الثقافى والفكرى ابان الحملة الفرنسية على مصر وموقفى من تاريخنا القومى والروحى ابان ثوراتنا الكبرى على روما وبيزنطة ، ثم بعض اجتهاداتى

عن ابن خلـــدون . واخيرا وليس آخـــرا موقفى من السياسة ، وهو ما عجزت وعجز الناس عن فهمه لانى لا أكتب فى السياسة ولا سبيل الى معرفة ارائى فيها الا لمن أوتى العلم اللدنى والقدرة على التفتيش فى ضمائر الناس وأفئدتهم . ولكن الذى لا شك فيه ان كلام نقادى عن « الغفران » كان بمثابة حجر الزاوية فى كل هذا النقد الغزير . ومجمل هذا الكلام انى ارتكبت اثما عظيمـــا وتطاولت على حضارة العرب حين ذهبت الى ترجيح ان المعرى كان مطلعا على تراث اليونان

ومن اراد فكرة مجملة عن صورتى فى ذهن نقادى ،فهى انى ، باختصار ، فى يقين بعض ادباء اليسار قائد الفكر اليمينى فى العالم العربى ، كما كتب عنى الشاعر المبدع عبد الوهاب البياتى وذلك الناقد اللبنانى الشريف القـلم العف البيان حسين مروه ، وانى باختصار فى يقين بعض ادباء اليمين قائد الفكر اليسارى الماركسى الملحد فى العالم العربى كما كتب عنى نقاد مجلتى « الرسالة »و«الثقافة» وغيرهما ، وفى يقين فئة ثالثة انى آخر قنصل للعـــالم المسيحى فى مصر منذ الحروب الصليبية ، كما كتب عنى الاستاذ محمود شاكر فى كتابه « اباطيل وأسمار » ، وهو الجزء الاول من مقالاته عنى فى مجلة « الرسالة » ، وفى يقين فئة رابعة انى داعية فكرى للقومية المصرية الفرعونية وعدو فكرى للقومية العربية كما روى عنى الاستاذ ميشيل عفلق وكما صورنى نقاد مجلتى « الرسالة » و «الثقافة » وغيرهما . وقد كان آخر نعت نعت به على سبيل الدعابة انى قنصل اثينا واسبرطة فى ديار مصر ، كما وصفنى صديقى الفنان المبدع سعد الدين وهبه فى مجلة «اخرساعة» فى شهر ديسمبر ١٩٦٥ ، لاشك لأنى ترجمت« ضفادع » أرسطوفانيس و « أجاممنون » اسخيلوس وبعض نقـــد

اليونان . ولقد كدت ان انسى ان بعض نقادي فى مجلتي « الرسالة » و « الثقافة » وغيرهما أوحوا فيما كتبوا انى على رباط بتيار صهيونى مشبوه لانى نشرت منذ نحو عامين قصيدة فى مجلة « حوار » اللبنانية الصادرة عن المنظمة العالمية لحرية الثقافة ، وهى منظمة يمثلها بيننا الدكتور ابراهيم بيومى مدكور سكرتير عام المجمع اللغوى ، وقد استكتبت هذه المنظمة فى « حوار » فى نفس الفترة توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وسهير القلماوى وبنت الشاطىء وعبد الرحمن بدوى ومحمد مندور الخ ... او نشرت لهم الاحاديث او مولتهم للمشاركة فى مؤتمراتها ولجانها

كل هذه المتناقضات كتبت عنى فى فترة « الغفران » او حولها . ولا شك انى انتفعت بشىء قليل من نقد نقادي ، ولا سيما الاستاذ المحقق محمود شاكر ، ولولا [illegible] وجنوح قلمه لانتفعت من علمه كثيرا . ولكنى فى الحق لم اكن الى حين قريب ، او الى عام ١٩٦٥ ، على وجه الدقة ، اتصور انى امثل كل هذه الخطورة فى الثقافة العربية او على الثقافة العربية بحيث يصدر عنى فى عام واحد ثلاثة كتب هى « الغزو الفكرى » لجلال كشك و « اباطيل واسمار » لمحمود شاكر و « دراسات نقدية فى ضوء المنهج الواقعى » لحسين مروه ، عدا المئات من عرائض الاتهام فى المجلات الثقافية ، اكثرها فى مصر واقلها فى العالم العربى ، وهى تشتمل على اتهامات ، لو صدق اقلها ، لاستوجبت نبذى من صفوف الامة العربية من الخليج الى المحيط

ولكنى ـ والله أحمد ـ قد استعنت على هذه المحنة باحساسى العميق بأن كل هذا الضجيج من حول ما أرى وما اكتب لا يمثل الا وجهات نظر جزئية تراها فئة قليلة

من الناس ، اكثرهم من غلاة اليمين أو غلاة اليسار ، وانى ـ والله أحمد ـ لازلت فى يقين الكثرة الغالبة من المثقفين العرب ، ولا سيما المعتدلين منهم ، خادما مخلصا بين خدام الثقافة العربية المخلصين ، ان كان لابد له من تبويب ، فهو فى صف التقدم والحرية والانسانية بوجه عام . وانى قد أصيب وقد اخطىء فيما اكتب وفيما أرى ، ولكن شططى لا يوصد دونه باب الغفران لانه من شطط الاجتهاد لا من شطط الضمير . هذه الثقة وحدها هى ادام الكاتب وقوته ، وهى بلسمه الشافى كلما أثخنت روحه بالجراح . ولكم أعاننى على احتمال هذه الشدة ، انى علمت من صديقى الشاعر مصطفى بهجت بدوى أن دار الهلال قد وزعت من كتابى « البحث عن شكسبير » نحو ثلاثة عشر ألف نسخة فى شهر واحد رغم أنه سبق نشره ، ثم علمت من صديقى القصاص الهام سيف النصر ان « الكتاب الذهبى » وزع من كتابى « مذكرات طالب بعثة » نحو عشرة آلاف نسخة فى عشرة أيام فنفدت طبعته الاولى . وهنا قالت نفسى : ماذا حدث ؟ لم يحدث شىء غير مألوف . أنت تقول كلمتك ومن حق الغير أن يقول كلمته فيما تقول . ومن قبلك كم اوذى كاتب او مفكر أو عالم فيما كتب أو فكر أو علم ، فلتكن محكمتك هى الساحة الكبرى ، ساحة الجماهير المثقفة التى لا تدين الناس بالهوى ولا تأخذهم بالشبهات ، ولتكن لك أسوة بأستاذك الكبير طه حسين الذى اوذى من قبلك بهجر القول فى العشرينات من هذا القرن حين أراد تجديد تراث الاباء والأجداد باعادة فتح باب الاجتهاد فيه على ضوء المنهج العقلى والعلمى ..

هذا اذن هو بيت القصيد فى موضوع « الغفران » . فلو أننا نسينا كل ما قيل من كلام محنق فى هذا الموضوع ،

بقى امامنا شىء واحد جدير بأن ينظر فيه : وهو ان المنهج الذى التزمته فى هذه الدراسة عن أدب الاخرة بصفة عامة ، وعن « رسالة الغفران » بصفة خاصة ، وهو من أوليات الادب المقارن ، هو فى ذاته مصدر ازعاج للمحافظين من الادباء والعلماء لان معناه فتح باب الاجتهاد من جديد فى دراسة تراثنا ، وهو مالا يطيقه المحافظون لانه قمين بأن يخلخل كثيرا من آرائنا ، ومعتقداتنا الخاطئة الثابتة عن التراث . وهم ينسون ان الازدهار الاكبر فى الفكر العربى انما اقترن بفتح باب الاجتهاد على مصراعيه أيام مجد العرب فى الدولة العربية الكبرى خلال القرون الاربعة الاولى للهجرة ، وان انتكاسة العرب بعد الدولة العباسية الثانية لم تقترن بتفككهم السياسى فحسب بل اقترنت ايضا باغلاق باب الاجتهاد منذ آل السلطان الى المماليك والاتراك ، لاريب بسبب هذا الضعف السياسى ذاته : فالضعيف ، فى ميكانيكية الدفاع عن النفس ، وحده هو الذى يخشى الفكر الحر والبحث الحر ويرتعد امام العلم والعقل والتجدد بوثبات الخلق وبالرؤيا الرحيبة الافاق . والضعيف وحده ، فى جزعه على ذاته ، هو الذى يخشى محاكمة النفس ومواجهة النفس ونقد النفس ، واحصاء ما يملك حقا من عدة وعتاد ، ويؤثر ان يعيش فى عالم من أوهام الكمال واكاذيب الفردانية المأثورة عن جنة المجانين ..

فقضية هذا الكتاب تتلخص فى كلمتين : ليس هناك سبيل الى بعث تراثنا وتجديده الا باعادة دراسته على ضوء العلم والعقل لنغربله ونفصل هشيمه عن بذوره معطية الحياة . والادب المقارن ، مثل فقه اللغة المقارن والاساطير المقارنة والفلسفة المقارنة والاديان المقارنة والقانون المقارن ، هو أحد الادوات الهامة التى نغربل بها

تراثنا ونعرف بها وشائجه مع ما جاوره وما سلفه وما خلفه من آداب ، وبهذا نضع أدبنا وفكرنا فى سباق الادب الانساني والفكر الانسانى العظيم • أما عزل التراث ، وكأننا نحنطه في تابوت ونتلو عليه صلوات الكهان أو نضعه كالعليل في محجر صحي أو نحرص عليه فى بيت من زجاج شأن النباتات المنقولة الى غير مناخها ، فلن نصيب منه الا الاقليمية والمحلية ، وهما ما نحاول الان تحطيمه لنندمج فى المحيط الانسانى من جديد ، بعد أن عزلنا الترك وراء سور الشرق العظيم آمادا طوالا • وأول الاوليات فى كل دراسة مقارنة هى البحث عن الجذور المشتركة وعناصر التأثر والتأثير • وليس هناك ما يدعو الى الانزعاج من البحث عن المؤثرات الادبية والفكرية فى أدب الادباء وفكر المفكرين مهما عظم شأنهم ، لان «التأثر» شيء و « السرقة شيء آخر • ونحن الان حين نتحدث عن مصادر شكسبير الرومانية عند بلوتارك وسواه ، أو عند هولنشيد وساكسوجراماتيكوس وبانديللو فى «ماكبث» و « هاملت » و « الملك لير » و « عطيل » و « روميو وجوليت» و « تاجر البندقية » الخ ••• لا نقصد أن شكسبير سرق مسرحياته من هؤلاء الاسلاف وانما نقصد أنه استعار منهم ومن الحياة مادة خاما وصاغها بعبقريته الخلاقة فى تراجيديات وكوميديات خالدة ، وهو ما فعله شعراء المسرح اليونانى : استمدوا خاماتهم من الملاحم الهومرية، ومن الحياة ، بل وما فعله هوميروس نفسه حين استمد خاماته من الشعراء الرابسوديين الجوالين الذين سلفوه ومن الحياة أيضا • أما نسبة الخلق من العدم الى بشرى كائنا من كان ففيها من الشرك شيء كثير

٧ يناير ١٩٦٦

لويس عوض

نعيم هوميروس

قضيت عام ١٩٦٤ أترجم كوميديا « الضفادع » لارسطوفانيس سيد الكوميديا اليونانية بوصفها نصا من نصوص النقد الادبى ، ففكرة كوميديا « الضفادع » تقوم حول الموازنة بين الشعراء ، أو على الاصح بصفة اساسية بين قطبى المسرح اليونانى القديم ، اسخيلوس ابو التراجيديا ، واوربيديس سيدها الذى لا يباريه الا الافلون . وفكرة الضفادع تقوم على أن ديونيزوس اله الخمر والدراما عند اليونان حين جاءه نبأ موت الشاعر التراجيدى أوربيديس حزن لموته حزنا شديدا حتى قرر ان يرحل الى العالم الاخر ويعود بأوربيديس الى عالم الاحياء . « فالضفادع » اذن تصور رحلة الى الدار الاخرة ، حيث أرواح الموتى ، وهى تستخدم هذه الرحلة لنقد الادب والادباء وعقد الموازنات بينهم والسخرية بهم ومناقشة أساليبهم ومحاسنهم واخطائهم ومواضع القوة والضعف فيهم

وبعد أن فرغت من ترجمة « ضفادع » ارسطوفانيس كان طبيعيا أن تلهب هذه الكوميديا فى نفسى الرغبة فى العودة الى ذلك العمل الادبى العربى الخالد الذى

لا يسع أي قارىء « للضفادع » الا أن يفكر فيه ، الا وهو « رسالة الغفران » لابى العلاء المعرى . « ورسالة الغفران » للمعرى هى ايضا مثل « الضفادع » لارسطوفانيس وصف رحلة للعالم الاخر اتخذ منها صاحبها وسيلة لاقامة الموازنات بين الشعراء ولنقدهم ولمناقشة أساليبهم واظهار مواطن القوة والضعف فيهم . واستبدت بى الرغبة لتجديد ذكرى ابى العلاء ، وهكذا وجدت نفسى أعود الى « رسالة الغفران » بعد ثلاثين سنة بالتمام والكمال . وكنت قد قرأتها فى طبعة كامل كيلانى أيام الطلب فى الجامعة ، وربما قبل ذلك ، فقرأتها هذه المرة فى الطبعة التى حققتها الدكتورة بنت الشاطىء مع رسالة ابن القارح . واشهد أن تحقيقات الدكتورة بنت الشاطىء قد أعانتنى على التغلغل فى كثير من غوامض النص وانى انتفعت من بعض آرائها كثيرا ..

واغرتنى العودة الى المعرى العظيم بتجديد ذلك الموضوع الخطير فى تاريخ الاداب العالمية ، الا وهو موضوع تأثر الشاعر الايطالى العظيم دانتى صاحب « الكوميديا الالهية » بكتاب المعرى الخالد « رسالة الغفران » ، واستبدت بى الرغبة الى اعادة فتح باب الاجتهاد فى هذا الموضوع الخطير الشأن فى كل دراسة من دراسات الآدب المقارن ، فوجدتنى أعود لدراسة « الكوميديا الالهية » الخالدة واجول مع صاحبها فى رحلته الى عرصات الجحيم والى معابر المطهر والى رياض الفردوس

وهنا قالت نفسى وكيف يكتفى الباحث الادبى بدراسة ارسطوفانيس والمعرى ودانتى ان هو اراد أن يضع يده على الحقائق بطريقة أقرب ما تكون الى الحصر واليقين ؟ أن ارسطوفانيس والمعرى ودانتى لم يكونوا الادباء الوحيدين الذين زاروا الاخرة ـ فى رؤيا الخيال ـ

ووصفوها فى أدبهم للناس فرحلات الشعراء للعالم الآخر كانت قبل هوميروس ولم تنقطع بعد هوميروس ، ولا سبيل اذن الى رد كل شىء الى اصله على سبيل اقرب ما يكون الى اليقين ، ثم لا سبيل الى تتبع تسلسل أفكار الشعراء عن العالم الآخر سواء بالتأثر الادبى الخاص أو من خلال التراث الروحى الشائع المتوارث ، الا بالرجوع الى « أوديسا » هوميروس و « انيادة » فرجيل و « تحولات » أوفيد ـ أو ما يسمى « بالميتامورفوز » ، وحلم شيبيو لمكروبيوس فضلا عن الرجوع الى ملحمة « جلجامش » البابلية الشهيرة والى قصة المعراج والرؤيا لا كما وردت فى الكتب المقدسة فحسب بل كما تصورها الادباء والشعراء أيضا فى قصص المدينة الفاضلة وفى قصص الوردة وجنة العشق الالهى فهذه الاعمال ليست الا حلقات كبيرة فى السلسلة الطويلة من رحلات الخيال فى العالم الآخر ولا سبيل الى دراسة ارسطوفانيس أو المعرى أو دانتى الا بدراستها كلا فى موضعه . بهذه الدراسة المقارنة وحدها نستطيع أن نعرف من أخذ وممن اخذ ومن أعطى ولمن اعطى ، وما مجال الابتكار الفنى وما التراث المملوك على المشاع بين بنى الانسان

***

ولنبدأ اذن بهوميروس باعتبار أن ملحمته « الاوديسا » هى أقدم نص أدبى نعرفه جاء فيه وصف للجنة والجحيم وربما لذلك المطهر الذى يقال انه قائم فيما بينهما ، « فالاوديسا » فيما نعلم قد نظمت فى زمن ما ، ما بين ١٠٠٠ و ٨٠٠ ق.م ، فهى أسبق ما نعرف من نصوص تتعرض لوصف العالم الاخر

ولنبدأ بهوميروس فنقول انه جعل أوديسيوس بطل « الاوديسا » فى بعض مغامراته الكثيرة الشهيرة يزور

النعيم والجحيم . فبعد أن نجا أوديسيوس ورجاله من بلاد العمالقة اللستروجون ابحر مع رفاقه حتى بلغ جزيرة كاليبسو ثم جزيرة ايايا حيث كانت تحكم الملكة الساحرة سيرسا أوكيركا ذات الضفائر الشقراء بنت هليوس رب الشمس من برسا بنت اوقيانوس رب البحر . وكانت الجماعة منهكة جوعى تشرف على الهلاك بعد أن نفد زادها وهدها طول التجديف فى بحار لا رياح فيها . وخرجت الجماعة تستكشف قصر كيركا الساحرة ذات الذوائب الشقراء ، ذلك القصر القائم وسط الدغل فوجدوا حول القصر الذئاب والسباع المفترسة تتجول فى الاجمة وقد سحرتها هذه الساحرة الجميلة بالعقاقير الشريرة فذهبت تتمسح فى الملاحين وتهز ذيولها فرحا بلقائهم وكأنها الكلاب المستأنسة . وكانت كيركا ذات الغدائر الشقراء تغنى بصوت رخيم داخل قصرها وهى تروح جيئة وذهوبا أمام نسيج رائع من صنع نولها . ونادتها الجماعة من باب القصر فخرجت اليهم وفتحت لهم بابها المضىء واقتادتهم الى قاعاته الباذخة واجلستهم على أرائك عالية وأطعمتهم من طعامها الجميل المسحور لتلهيهم عن وطنهم الا قائدهم اوريلوخوس الذى خشى مكروها فتخلف . فلما أكلوا وشربوا من كأسها غاب عنهم رشدهم فسحرتهم كيركا بعصاها السحرية واحالتهم الى قطيع من الخنازير وسجنتهم فى حظيرتها ، فاذا اجسادهم وأصواتهم من اجساد الخنازير وأصواتها ، اما عقولهم فظلت من عقول البشر . وبكت الجماعة بكاء مرا

***

فلما عرف أوديسيوس من صاحبه بما جرى خرج فى كامل سلاحه الى هذه الفاتنة الشقراء لينجد اخوانه فدفعته اليها قوة قاهرة فهو لا يستمع الى نصح أو

تحذير ، وفيما هو يخترق الادغال والوديان المقدسة ويقترب من باب القصر استوقفه الرب هرميز ذو القضيب الذهبى محذرا اياه قائلا انه ما من ذاهب الى قصر هذه الساحرة الجميلة يئوب ابدا ، وسلح الرب هرميز البطل أوديسيوس بعشب الفضيلة الذى يسميه هوميروس « مولى » ليستعين به على شر كيركا الساحرة ذات الذوائب الشقراء لانه يبطل مفعول شرابها المسحور . قال فان ضربتك بعصاها السحرية فامتشق على الفور حسامك المطعم بالفضة واهجم عليها هجمة المغتال ، وستراها عندئذ تتراجع جزعى وتراودك عن نفسك ، وعندئذ لا تأنف من فراش هذه الربة ذات الغدائر الشقراء ففى يدها نجاة رفاقك . ولكن اياك اياك ان تسلم لها نفسك قبل أن تقسم لك بجميع الارباب انها لن تدبر لك مكرا جديدا ، فهى خليقة بأن تجردك من رجولتك لحظة ان تراك أمامها عاريا

وهكذا انطلق أوديسيوس الى قصر كيركا ذات الذوائب الشقراء وقلبه واجف وناداها ففتحت له بابها المضيء . وادخلته قاعتها واجلسته على عرش مفضض وسقته من الكأس الذهبية خمرها المسحور فشرب ولكنه لم يسحر ولا غابت عن جسده روحه فلما ضربته بعصاها هجم عليها بسيفه فجثت امامه تستعطفه وقد تعلقت بركبتيه مبهورة من هذا البطل العجيب الذى لم يفلح معه خمرها أو سحرها أو مكرها . وعرفت انه أوديسيوس العظيم ، ودعته الى فراشها ليصطلحا على الهوى ولكنه ابى الا ان تقسم باغلظ الايمان الا تمسه بسوء مما تضمر له ، فاقسمت على الفور . واقبلت جواريها يقمن على خدمتهما ، وكن اربعا . ولنترك هوميروس يصف بنفسه هذا الزفاف العجيب على لسان اوديسيوس فى الكتاب

العاشر من « الاوديسا »

« وكانت جواريها طوال هذا الوقت يسعين مشتغلات فى القاعات وكن اربع عذارى يخدمن فى الدار ولدن من الينابيع ومن الغابات ومن الانهار المقدسة التى تجرى صوب البحر الاجاج ومنهن واحـــدة القت على الارائك أغطية من المخمل النفيس ومن تحتها فرشت ملاءة من الكتان ، ومنهن أخرى ، واعجبا ، مدت موائد فضة أمام الارائك ، وعلى الموائد الفضية وضعت سـلالا ذهبية . ومنهن ثالثة مزجت النبيذ بالشـهد الحـلو فى دن من الفضة ووضعت على المائدة كئوسا من ذهب . ومنـهن رابعة حملت ماء واضرمت تحت الاناء الجسيم نارا عظيمة ادفأت الماء ، ولـكن ما ان غلا المـاء فى الاناء النحـاسى الوضاء حتى ادخلتنى حماما وغسلتنى بماء أخـذته من اناء عظيم وهى تسكب الماء على رأسى وكتفى بعـد أن تخلطه بما يجعل دفئه لذيذا ، وظلت تفعل هـذا حتى ازالت من جسدى كل ما كان يمضه من تعب . وبعـد أن غسلتنى وضمختنى جيدا بزيت الزيتون والقت على كتفى مئزرا جميلا والبستنى صدارا اقتادتنى الى قاعات القصر واجلستنى على أريكة بديعة التكوين ؛ وتحت قدمى كان هناك مقعد صغير ترتاح عليـه قدماى . وجـاءت جارية تحمل ماء فى وعاء ذهبى جميل لاغسل به يدى ، وصبت الماء فى حوض فضى ، والى جوارى جذبت مائدة صقيلة ، وحملت سيدة وقور خبزا صـنع من القمـح ووضعته بجانبى ، وعلى المائدة صفت قطوف عديدة فى سخاء عظيم وطلبت منى أن آكل ، ولكن نفسى زهدت فى الطعام . فقد كان فكرى مهموما بأفكار أخرى وكان قلبى يتوجس شرا » ..

كان أوديسيوس يفكر في رفاقه السجناء في صورة الخنازير ويفكر في السبيل الى تحريرهم ، فكان طبيعيا أن تعاف نفسه هذا النعيم الحسي . ولم يرض ان يدخل فراش كيركا ذات النوائب الشقراء ، حتى مسحت رفاقه ببلسم آخر من بلسمها الساحر فارتدوا كما كانوا رجالا ، بل ارتدوا فتيانا يرفلون في حلة الشباب ، ارتدوا اصغر عمرا واجمل وجها واطول قامة مما كانوا . بل ورجع الى سفينته بعد ان ملأها مؤنا وذخرا باذن منها ليعود ببقية رفاقه الى قصر كيركا ذات الذوائب الشقراء « حيث الزاد والشراب لا ينفدان ابدا » فانطلقوا معه جميعا ما خلا صاحبه أوريلوخوس المتخوف الذى ترك وحده ليحرس السفينة وما أن بلغت بقية الجماعة قصر كيركا ذات الذوائب الشقراء ودخلوا ابهاءها حتى فعلت بهم ما فعلت باوديسيوس من قبل فغسلتهم وضمختهم بزيت الزيتون والبست كلا منهم مئزرا وصدارا ثقيلا ، وادبتهم في مأدبتها فطعموا وشربوا وهدأت نفوسهم وجفت دموعهم وطلبت كيركا من أوديسيوس ولد لايرتيس أن ينسى وطنه الصخرى الاجرد ايثاكا وتجواله الطويل الأليم في سبيل وطنه وأن ينبذ كل همومه وأحزانه ففعل ، واقام مع رجاله في قصرها اليوم بعد اليوم ياكلون اطيب الزاد ويشربون أطيب الخمر ، وشغلهم هذا النعيم عن وطنهم حتى مضى عليهم عام كامل . وبعد أن اتموا العام تحرك فيهم الحنين الى الوطن من جديد ، فأهاب رفاق أوديسيوس بقائدهم أن يعود بهم الى أيثاكا ، بعد أن سئموا هذا النعيم المقيم . فتضرع أوديسيوس الى كيركا ذات الذوائب الشقراء أن تبر بالعهد الذى قطعته على نفسها ، وهو أن تعينهم على العودة الى الوطن بعد هذه الغربة المديدة فتدلهم على الطريق الى أيثاكا فأجابته

كيركا بنفس راضية : « أى أوديسيوس ، يا ابن لايرتيس وسبط زيوس يا صاحب الحيل الكثيرة ، لابقاء لك الآن فى دارى بعد اليوم على غير رغبة منك . ولكن لا بد لك أولا من رحلة أخرى تقطعها حتى تبلغ الدار الاخرى ، دار هاديس وبرسيفون الرهيبة ، حيث تسكن أرواح الموتى ، لتبحث فيها عن روح تيرسياس بن طيبة ، العراف الاعمى الذى لا يزال يحتفظ بعقله ، فقد وهبته برسيفون الحكمة حتى فى الموت ليكون وحده بين الموتى رب الفهم الثاقب ، أما بقية الارواح فهى تموج كالظلال » ..

فلما سمع اوديسيوس هذا الكلام بكى بكاء مرا واستبد به الشقاء حتى تمنى الموت ، وسأل كيركا قائلا : « ومن ذا الذى يكون دليلى الى الآخرة يا كيركا ؟ فلما من انسان حتى الآن أقلع الى الجحيم بسفينة سوداء » ..

فأجابته كيركا قائلة :

« أى أوديسيوس ، يا ابن لايرتيس ، وسيط زيوس ، ويا ذا الحيل الكثيرة لا تبتئس لانك لا تجد دليلا يقود سفينتك ، بل أرفع صاريك وابسط شراعك الابيض وأجلس فى مكانك . وعندئذ ستدفع ريح الشمال سفينتك فى الطريق السديد . ولكن حين تعبر فى سفينتك مجرى أوقيانوس وتبلغ شاطئه القحل حيث دغل برسيفون وفيه اشجار الحور السوداء واشجار الصفصاف القديمة التى تنفض عنها ثمارها قبل موسمها ، فهناك أرس بسفينتك عند أوقيانوس العميق ذى الدوامات الكثيرة ، أما انت فلتقصد الى دار هاديس المليئة بالاوحال . هناك يصب فى نهر أشيرون مجرى بريفليجيثون وكوكيتوس ، وهو رافد ينبع من ماء استيكس ، نهر الاعراف ، وهناك تجد صخرة ، وهناك ترى النهرين الصاخبين يلتقيان »

هنـاك قالت كيركا ذات الذوائب الشـقراء للبطـل اوديسيوس ان يحفر حفرة واسعة ويصب من حولهـا الخمر ثلاثا على ارواح الموتى ـ اولا خمر الشعير ثم النبيذ الحلو ثم الماء وأن يصلى للموتى فى خشوع ويعدهم بتقديم القرابين على ارواحهم عند عودته الى وطنه ايثاكا : بقـرة عذراء لجميع الموتى وحمـلا اسـود ليست فيـه بقعـة بيضـاء واحـدة لتيرسـياس وحـده . وبعـد ان يفرغ اوديسيوس من صلواته للموتى بدار الموتى عليه أن يضحى حملا اسود وشاة سوداء ووجهه متجه نحو شاطىء النهر وأن يدعو رفاقه الى الصلاة لهاديس الجبار ولبرسيفون الرهيبة ، شاهرا سيفه المسـلول حتى لا تقترب ارواح الموتى من دم الضحية ، قبل ان يأتيه تيرسياس ويدلـه على طريق العودة · وعندئذ سيخف اليه تيرسياس العراف ويدله على طريق العودة وينبئه بكل ما سيعترضه من أخطار

وفى الفجر ايقظ اوديسيوس رفاقه وجهز سـفينته وبسط الشراع وارتحل عن هذا الفردوس الارضى بجزيرة ايايا فى طريقه الى الجحيم او مملكة هاديس فى العـالم السفلى ، دار الموتى ودار الارواح ولم يتخلف من رفاقه الا الفتى البينور الذى ثمل فسقط من قمة قصر كيركا ومات لساعته . وقد انجبت كيركا من أوديسـيوس ولدين هما اجريوس ولاتينوس بحسب ما جاء فى « الثيوجونيا » أو (انساب الالهة) للشاعر هسيود البيت ١٠١١ وما يليه

هذا هو الفردوس الهومرى الذى عاش فيه اوديسيوس وملاحوه مع الساحرة كيركا ذات الجدائل الشـقراء وجواريها تلك الربة الرهيبة التى تتكلم لغة البشر كما يسميها هوميروس فى الاوديسا ، عاش فيه عاما كاملا منذ أن بلغت سفينته السوداء شواطىء جـزيرة ايايا

الاسطورية التى قيل فيما بعد انها كانت تقع فى اقليم لاتيوم بايطاليا عند رأس الادرياتيك بالقرب من مصب نهر البو وفيها رابية تحمل اسمها فتسمى رابية كيركا ، حتى رحل عنها ليزور الجحيم · والحق انه لنعيم اشبه شىء بالجحيم ، أو جحيم اشبه شىء بالنعيم ، فهـــذه الجزيرة المسحورة هى فى حقيقة الامر جزيرة هلاك من وطىء شواطئها سحرته هذه الجميلة ذات النوائب الشقراء بصوتها وبخمرها وبعشبها السـحرى فأحالته الى خنزير الا من انقذه الرب هرميز رسول الالهة الى الناس بالعشب السحرى « موللى » الذى به ينجو السعداء من هـذا المصير ويعيشون فى نعيم كامل ، فلنقل اذن ان جزيرة ايايا وسيدتها ذات الجدائل الذهبية كانت بمثـابة الفردوس الارضى الذى ينسى الانسان فيه نفسه ردحا من الزمن فى رحلته الكبرى من وطنه الاول الذى اغترب عنه الى وطنه الاخير الذى هو عائد اليه وهو لن يستطيع أن يبلغه الا بعد أن يمر بالجحيم كمـا أشارت كيركا ذات الجدائل الذهبية

اما معالم هذا الفردوس الهومرى فهى كثيرة ومتميزة ، واهمها تصوير النعيم الحسى الذى تمـد فيه الارائك والموائد وافخر الاطعمة والقطوف التى لا تنفد ابدا وكئوس الخمر والشهد والحور العذارى بنات الينابيع وبنـات الانهار المقدسة وبنات الغابات يقمن على خدمة سكان هذا الفردوس · كذلك من اهم معالم هذا الفردوس القصور الباذخة والغابات الوارفة الظلال والانهار الجـارية ، والمعادن النفيسة التى صنعت منها الاوانى والكئـوس والكراسى والانسجة الفاخرة التى نسجت منها الثياب · ومن أهمها التطييب بالزيت واستخدام العشب السحرى « مولى » وهى زهرة عاطرة بيضاء ذات جذور سوداء ·

وتحول السباع الكاسرة والذئاب الضارية الى حيوانات اليفة مستأنسة ، وتحول البشر الى خنازير والخنازير الى بشر ، وارتداد الناس الى الشباب الطرير :

ولكن امر هذا الفردوس الهومرى محير حقا ، فنحن لا نعرف ان كانت جزيرة ايايا هذه جزيرة الحياة أم جزيرة الموت ٠ فلو كانت جزيرة الموت ففيم ذهاب اوديسيوس الى هاديس مملكة الموتى ليلتقى بروح العراف تيريسياس يستدل منها على طريقه الى وطنه بعد طول طواف وضلال، ولو كانت جزيرة الحياة فكيف نفسر تجمع بعض اوصاف العذاب ومعالم الموت فيها كتحول البشر الى خنازير وظهور الرب هرميز فيها وهو هادى الموتى فى اخص صفاته ٠ فاذا رجعنا الى « الاوديسا » ذاتها فى الكتاب الخامس منها نجد ان هذه الربة ذات الضفائر الشقراء كيركا او سيرسا، قد اقترن ذكرها ببعض الاشجار المقدسة عندها وهى اشجار الحور واشجار الصفصاف واشجار السرو ٠ وفى « سيرة بحارة الارجو » لابولونيوس الرودى ٣ ــ ٢٠٠ أن كيركا او سيرسا كانت لها مقبرة فى كولخيس هى دغل من اشجار الصفصاف او أم الشعور كما نسميها نحن اليوم وهى شجرة اقترنت بالبكاء والاحزان لانها تنمو دائما مائلة بغدائرها الطويلة على ضفاف الانهار وتقترن بها اقتران شجر السرو بالنمو على المقابر ٠ وفى « سيرة بحارة الارجو » كانت مقبرة كيركا فى أيايا تلف فيها جثث الرجال طى جلود الثيران التى لم تدبغ وتعلق هذه الجثث على اعالى اشجار الصفصاف لتأكلها الطيور فقد كان اهل كولخس لا يدفنون فى القبور الا جثث الموتى من النساء ٠ وقد كان اسم شجرة الصفصاف فى اليونانية هليكا كذلك فى الاوديسا ٥ ــ ٦٤ و ٢٣٩ ان جزيرة كيركا وهى ايايا ،وهى « جزيرة الفجر » ويقال ان معناها النواح او النحيب كانت

تحف بشطئانها اشجار الحور ، مما جعل البعض يستخلص من ذلك انها كانت بمثابة جزيرة للموتى • وهنا ايضا ينبغى أن نتمهل قليلا لان اشجار الحور السوداء كانت فى اليونان القديمة مقدسة عند الربة هيكاتا ، الهة الظلام والموت ، اما اشجار الحور البيضاء فقد كانت رمزا للبعث والتجدد وكانت مقدسة عند الربة برسيفون ربة البعث والتجدد ومقدسة عند هرقل ايضا وهو اول بشرى انتصر على الجحيم وظفر بالحياة الخالدة عند اليونان

وقبل ان تأسر كيركا ذات الغدائر المجدولة اوديسيوس وتستبقيه فى جنتها الموهومة مر اوديسيوس بتجربة حين تحطمت سفينته وقذفت به الامواج وحيدا على شواطىء جزيرة اوجيجيا حيث كانت الحورية الساحرة والربنة الرهيبة كاليبسو ذات الغدائر المجدولة بنت اطلس ملكة على الجزيرة • « وهناك ادخلتنى ورعتنى بكل ما تملك من رعاية ومودة واقامت اودى قائلة انها ستجعلنى لا اعرف الموت ولا الشيخوخة طول حياتى • ولكنها ما استبت قط قلبى الذى بين جوانحى • ولقد اقمت هنالك سبع سنوات متصلات وبللت دموعى الثوب الذى خلعته كاليبسو على وهو ثوب لا يبلى أبدا » ولكن كاليبسو بأمر من زيوس أطلقت سراح أوديسيوس حين حل العام الثامن ليترك جزيرتها النائية ويعود الى وطنه • « الاوديسا ٧ » أما كاليبسو فلم يكن لها قصر فى هوميروس بل كان لها كهف اجمل من كل القصور ، يصفه هوميروس فى الكتاب الخامس من الاوديسا فيقول : « •• حتى بلغ كهفا عظيما كانت تعيش فيه الحورية ذات الغدائر المجدولة ووحدها بالداخل وفى الموقد راى نارا عظيمة تشتعل ، وعلى البعد تضوع فى ارجاء الجزيرة عبير من عبير شجر الارز المشقوق وهو يحترق واريج من خشب الصندل . وكانت الحورية فى

الداخل تغنى بصوت عذب وهي تغدو جيئة وذهابا أمام نولها فقد كانت تنسج على نول من ذهب • ومن حول الكهف كانت هناك غابة مزهرة من شجر الحور ومن شجر السرو ذى العرف الزكى • وفيه عششت طيور طويل جناحها : البوم والصقور والنورس المشقشق من كل ما يحوم فوق المياه • وعجبى لحديقة الكرم التى امتدت لفاء حول الكهف الاجوف ثقيلة بالاعناب وكانت فيه نوافير اربع بديعة الترتيب انبثق منها الماء السلسبيل الواحدة بجوار الاخرى وجرى منها فى زوافد مختلفة واينعت فى كل الارجاء المروج الناعمة بزهر البنفسج والبقدونس •• وحين جاءها الرب هرميز رسول الالهة مدت له الموائد بطعام الخلد وقطر الندى الوردى ، خمر الالهة » هذا هو النعيم الذى اقام فيه اوديسيوس سبع سنوات فى احضان الحورية الساحرة كاليبسو ذات الغدائر المجدولة الشقراء حتى افرجت عنه بأمر من كبير الالهة ليعود الى وطنه • وانه لشبيه بذلك الفردوس الذى انتقل اليه حين ضل طريقه فنزل على شطئان أيايا حيث سحرته الحورية كيركا ذات الغدائر المجدولة الشقراء ، حتى ليبدو ان الفردوس واحد ، وان ايايا هى اوجيجيا وان رواية كيركا ليست الا نسخة اخرى من رواية كاليبسو • بل لقد ذهب بعض القدماء الى ان اوديسيوس انجب ولده لاتينوس من كاليبسو كما ذهب اخرون الى انه انجبه من كيركا • حتى القاب الحوريتين واحدة فى هوميروس فهى الربة ذات الجدائل الشقراء وهى الربة الرهيبة التى تتكلم لغة البشر والنول الذهبى واحد ورداء الشباب الدائم الذى تكبسوان به البطل العاشق واحد وغناؤهما الشجى واحد

فاذا رجعنا الى الكتاب الرابع من الاوديسا وجدنا أن جزيرة الساحرة كاليبسو لم تكن صورة من الجنة ولكن

كانت صورة من الجحيم لاشبهة فيها • انظر الى الملك منيلاوس وهو يروى فى بلاطه باسبرطة اخبار اوديسيوس على ولده الغلام تليماك الذى يريد ان يسمع ان كان ابوه حيا ام ميتا ، فيقول : « انه ابن لايرتيس وموطنه هو ايثاكا ، ولقد رأيته فى جزيرة من الجزر يذرف الدمع السخين فى قصر الحورية كاليبسو التى احتجزته هناك على كره منه حتى لا يعود الى وطنه فليس لديه هناك سفينة ولا مجداف ولا رفاق يحملونه الى وطنه على متن البحر العريض • أما انت يامنيلاوس يا ابن زيوس فليس مقدرا عليك ان تموت وان تلاقى قضاءك فى ارجوس مرعى الخيل الخصيب ، وانما ستحملك الالهة الخالدة الى سهول اليزيوم حيث جنة الفردوس فى نهاية العالم وحيث رادامانثوس ذو الشعر الذهبى وحيث الحياة ايسر ما يكون لابناء البشر • فما هنالك ثلوج ولا عواصف عاتية ولا امطار ، ولكن اوقيانوس المحيط يرسل عليهم نسمات الغرب لتهب عليهم بردا وسلاما »

فكان اوجيجا او ياجوج فى هوميروس وهى جزيرة كاليبسو هى بيت الدموع وموضع الجحيم او موقع من مواقعه على أقل تقدير • أما مكان الفردوس فهو حقول اليزيوم وهى جنة اليونان وموقعها فى حافة العالم وخازنها هو رادامانثوس ذو الشعر الذهبى ، وهى تتميز بالصفاء الابدى فلا تعتريها عوامل الطبيعة القاسية ، فالحياة فيها ربيع دائم والحياة فيها كثيرة الخيرات لانها ايسر ما يكون لابناء البشر • وكان يشار الى مكان الفردوس هذا فيسمى « جزائر السعداء » وهذا هو التناقض الواضح فى هوميروس الذى يدل على اختلاف مصادره • فهو فى الكتاب الرابع من الاوديسا يضع النعيم او حقول اليزيوم فى حافة العالم ولكنه فى الكتاب الحادى عشر منها يضع النعيم

والجحيم معا فى مكان واحد تحت الارض تأوى اليه كل الارواح • ارواح الاخيار وارواح الاشرار دون تفرقة • وهو مكان معتم كئيب يشبه القبر عتمة وكآبة وهذا المكان له رب اسمه هاديس وربة اسمها برسيفونا

أما هاديس فقد كان ابن الاله كرونوس او الزمن ، وكان بيته تحت الارض،ويسمى دار هاديس ،مظلماوكئيبا، وكان اليونان يصورون هذا الرب فى صورة شخص متجهم قاس لا يعرف للرحمة معنى ويعاقب الخطاة والجناة ولكنهم لم يصوروه ابدا فى صورة الكائن الشرير • ولم يكن هاديس يتولى بنفسه تعذيب الاشرار فى عالم الموتى فقد كان هذا عمل الايرنيات او ربات الانتقام • ولم تكن له عبادة شائعة كما لم تنسج حوله الاساطير ، ماخلا اسطورة واحدة هى اسطورة اختطافه للربة برسيفونا المعروفة باسم كوريه العذراء أو الحورية وزواجه منها تحت الارض

وأما الربة برسيفونا فقد كانت بنت ديميتراو الربةالام وربة الثمار كما كانت اليونان تقول وقد عشقها هاديس رب الموتى فاختطفها منها وتزوجها تحت الارض ، فذهبت أمها تبحث عنها فى كل مكان ودموعها تجرى انهارا •فرق زيوس كبير الالهة لحالها فأمر هاديس ان يرد اليها بنتها • ولكن العذراء برسيفونا او كوريه كانت قد أكلت فى دار هاديس تحت الارض حب الرمان فأثقل جفنيها حتى صارت تنام نصف العام فى عالم الموتى وتخرج نصف العام الى عالم النور • وكما اشتهرت احزان ديميتر الربة الام على بنتها العذراء برسيفونا ، فكذلك اشتهرت احزان العذراء برسيفونا على طفلها زاجريوس الذى قيل انها حملته من زيوس كبير الالهة بعد ان اتخذ صورة ثعبان ، وكان زيوس قد قرر ان يورث طفله زاجريوس كل ما له من سلطان فى الكون فاجتمعت التيتانين او الشياطين او المردة على الطفل

ومزقوه اربا اربا والتهموا جسده ، ولم يبق منه الا قلبه الذى انقذته الربة اثينا من ايديهم فالتهمه زيوس كبير الالهة فأمكنه بذلك ان ينجب الاله ديونيزوس رب الخمروالخصب ودمر زيوس التياتين او المردة تدميرا واحرقهم بصواعقه ومن رمادهم خرج بنو البشر

هذه اذن هى قصة هاديس ملك الموتى وبرسيفونا العذراء او كوريه اى الحورية كاناسيد الجحيم وسيدته ولكن جحيم اليونان كان مملكة الموت تحت الارض • وقد اقترنت فكرتهم عن نزول الموتى الى هذا العالم السفلى المظلم بدفن البذور فى تربة الارض ومن هنا كانت دورة الموت عندهم مقدمة لازمة لتجدد الحياة ولدورة الاخصاب والاثمار ، ومن هنا كانت آلهة الموت عندهم هى آلهة الحياة الجديدة ولا سيما فى عالم النبات

اما النعيم أو جزائر السعداء التى حدثنا عنها هوميروس فقال انها تقع فى اطراف الارض عند مجرى اوقيانوس • فقد جاء فى شعر هسيود ان زيوس جعلها مسكنا لابطال اليونان الذين سقطوا امام طيبة ذات الابواب السبعة وامام طروادة وكانهم ماتوا ميتة الشهداء : هؤلاء يقول فيهم هسيود : « حقا لقد لفهم الموت بأكفانه ، ولكن زيوس بن كرونوس ، وهو ربهم ومولاهم ، وهبهم الحياة وأسكنهم بعيدا عن الناس فجعلهم يقطنون فى أطراف العالم بعيدا عن الآلهة الخالدة • وفيهم تحكم كرونوس ، رب الزمن ، وهم يعيشون حقا بنفس مطمئنة فى جزر السعداء بجوار اوقيانوس ذى الدوامات العميقة ابطالا لهم النعيم تطرح لهم التربة الخصيبة ثلاث مرات كل عام ثمارا ناضرة حلوة كالشهد » هذا ما ذكره الشاعر هسيود فى الاعمال والايام « ١٦٠ ـ ١٧٢ » عن اليزيوم او جنة السعداء ، ويبدو انها كانت مسكن « الشهداء » من الجيل الرابع من البشر •

ذلك الجيل الذى كانت اليونان تسميه انصاف الالهة
ولكن الغريب ان هوميروس وضع أبطال طروادة فى الجحيم بجوار اوقيانوس عند أطراف العالم ، وجعل اوديسيوس ينزل الى دار هاديس ويرى عذابهم ودموعهم رؤية العين دار هاديس التي يسميها هسيود في الاعمال والايام : المنزل الفظيع الذى يسكنه هاديس الشنيع الذى تقشعر الابدان لبرودته

وايا كان الامر فقد اعطانا هسيود فى «الاعمال والايام» فكرة واضحة نسبيا عن مصير البشر فى الدار الاخرى ، فهو قد قسم الخليقة الناطقة بحسب معتقدات اليونان فى زمانه الى خمسة اجيال تعيش فى خمسة عصور .. أولها هو العصر الذهبى والثانى هو العصر الفضى والثالث هو العصر النحاسى والرابع هو عصر الابطال او انصاف الالهة والخامس هو العصر الحديدى الذى كان يعيش فيه الشاعر نحو القرن الثامن قبل الميلاد

أما العصر الذهبى فقد كان شبيها بالجنة الاولى :

« وكانوا يحيون كما تحيا الالهة حياة خالية من الهموم لا يعملون عملا ولا يؤرقهم هم ولا تتهددهم الشيخوخة اللعينة ، بل كانوا دائما اسوياء الابدان يرفلون فى أعياد السعادة لا تمسهم الشرور فكانوا يموتون كما لو كان النوم قد غلبهم ، وكانت لهم كل نعم النعيم : فمن تلقاء نفسها كانت الحقول المثمرة تهبهم دون حرث ثمارها وفيرة وسخية . وكانوا يحصدون فى هناء هادىء ما زرعته ايديهم مع غير هذا من الخيرات فقد كانت لهم قطعان زاخرة وكانت الالهة المباركة تحبهم » ثم امتلأت الارض بالجن فحجبت الجن ابناء العصر الذهبى . وهكذا خلقت الالهة الجيل الثانى وهو ابناء العصر الفضى ، وهم اقل شأنا من الاولين . فهم اقل منهم ذكاء بحيث لا يترك احدهم حضانة امه الا

بعد ان يستوفى المائة عام طفلا . فان بلغ مبلغ الرجولة لم يعمر طويلا بسبب حماقته وقد ابادهم زيوس لكفرهم بالالهة وضنهم بالقرابين . فلما ابتلعتهم الارض كانوا ايضا من اهل النعيم ولهم المرتبة الثانية فى الفردوس اما الجيل الثالث من البشر فكان أبناء العصر النحاسى الذين تعلموا اكل اللحم والحرب بالقنا وكلفوا بالقتال فاهلكهم زيوس فابتلعتهم الارض ونزلوا الى الجحيم دار هاديس ، ولكن هسيود لم يذكر لهؤلاء نصيبا فى النعيم او الجحيم ثم خلق زيوس جيل الابطال او انصاف الالهة وكانوا اعدل وأكرم ممن سبقهم ولكن القتال اهلكهم امام اسوار طروادة او امام اسوار طيبة ، فاسكنهم زيوس جزر السعادة او جزر النعيم فى اطراف الارض وعلى تخوم اوقيانوس واطعمهم فاكهة حلوة كالشهد وزودهم بخيرات الارض ، ولكن بعيدا عن مقام الالهة ثم خلق اخيرا الجيل الخامس الراهن ، وهو الجيل الحديدى الذى قدر عليه بحكم فساده ان يتعب وينصب ويشقى طول الحياة ويشيخ بمجرد ان يولد ومع ذلك قدر له زيوس ان يتسلمه برعايته الشديدة وان يمزج له الخير مع الشر والهناء مع الشقاء . وهو جيل من الفجار عاق للاهل وللصديق يتنكر للاخيار والصالحين ولا يحترم الا الاشرار والمستكبرين ، ظالم فاسق لا يعرف للخجل معنى كذاب اشر حلاف بزور حقود سباق للشر فتاك بالابرياء حسود مشاء بنميم ، ولكن ما ان يموت الانسان وتلفه الاكفان البيضاء حتى تغادر عالمه البراءة والعدالة وتنتقل من الارض الى السماء فيكون عقابه بيد الالهة ويبقى خزيه وشره على الارض من بعد (« الاعمال والايام » ١١٠ ــ ١٩٠)

وبهذا يكون هسيود قد ادخل النعيم كل من سبق الجيل الراهن من بنى الانسان اما الجيل الراهن فقد نقل ثوابه وعقابه بعد الموت من الارض الى السماء

جحيم هوميروس

قالت النبوءة ، نبوءة الساحرة كيركا ذات الغـــدائر المجدولة ، لاوديسيوس بطل « اوديسا » هوميروس :وبعد ان تمر فى أهوال الجحيم وتخرج منها سالما سوف ترد غربتك وتعود الى وطنك ايثاكا ، وسوف تكون لكعلامةان ظهرت عرفت انك قد عدت الى وطنك ، وهذه العلامةهيأن يبدو على كتفيك جناحان ، أى ان تصبح ملاكا ذا جناحين كما نقول نحن الان • من اجل هذا ، ومن اجل غيره كثير فسرت العصور الوسطى الاوربية لاكثر من الف عامقصة ضلال اوديسيوس وغربته عن وطنه ايثاكا بين بحارعجيبة وجزر غريبة لاقى فيها اهوال المهالك واهوال الغواية معا ومعها قصة بحث اوديسيوس الدائم عن الطريق الى وطنه وسعيه الدائب فى سفينته السوداء لبلوغ هـــذا الوطن البعيد ، بانها قصة غربة الانسان عن الجنة الاولى بعد نفيه منها وبحثه الدائم الدائب عن جنة الميعاد • وما يتخلل حياته فيما بين الجنتين من مغامرات وغوايات واهـوال وبهذا كانت علامة الانسان انه وجد طريقه الى الجنة هى انه تحول من انسان الى ملاك ذى جناحين ••

كذلك تنبأت الساحرة كيركا ذات الجـــدائل الشقراء

لأوديسيوس انه لن يبلغ وطنه الا بعد ان يزور الجحيم أو دار هاديس كما كانت اليونان تسميها ، فهكذا قدرعليه ان يرى عذاب الجحيم رؤية العين قبل ان يصل اخيرا الى نهاية المطاف نهاية كل مطاف ، فما من أحد يستطيع ان يهديه الى الطريق القويم غير العراف الاعمى الامير تيرسياس ، وتيرسياس يقيم فى عرصات الجحيم

وهكذا مضى اوديسيوس ورفاقه عن جزيرة كيركا أو سيرسا ذات الجدائل الشقراء بقلب حزين وعين دامعة هكذا كتب عليه الا ترد غربته والا يعرف طريقه الى وطنه ايثاكا بعد طول ضلال قبل أن يزور الجحيم الذى كان قدماء اليونان يسمونه هاديس أو عالم الظلمات او مملكة الموتى او العالم السفلى حيث تقيم ارواح الموتى واشباح أهل الفناء ، فهناك سيلتقى بروح العراف الاعمى تيرسياس الذى قالت كيركا أنه وحده العليم بالطريق الى ايثاكا وبما سيلاقيه اوديسيوس ، ورفاقه ، من أخطار على الطريق..

وهكذا انطلق اوديسيوس برجاله الى سفينته السوداء ومونوها بالزاد والقرابين . ولم يكن لهم هاد ولا دليل فى هذه الرحلة العجيبة الى الجحيم ، وانما ارسلت الربة الجميلة الرهيبة كيركا ذات الغدائر المجدولة الشقراء من ورائهم ريحا مواتية ، فبسطوا الشراع وضربت سفينتهم فى البحر طول اليوم حتى غابت الشمس ولف الكون ظلام شامل ..

وبلغت السفينة اطراف العالم حتى تخوم اوقيانوس العميق ثم جرت فى مجرى أوقيانوس وهناك وجدوا أرض الكيمريين مكفنة فى الضباب والسحاب فلا تبزغ عليهم الشمس بأشعتها الوضاءة ابدا ، لا من فجر الى ضحى ولا من ضحى الى غسق ، فالليل الاسحم قد اسدل استاره الكثيفة على أبناء الفناء البائسين . هناك رست

السفينة السوداء فعقروا ونحروا وحفروا ونثروا الشراب ثلاثا قربانا على أرواح الموتى : أولا شراب الشعير ثم النبيذ الحلو ثم الماء القراح . وصلى اوديسيوس ووعد بنحر البقرة العذراء عند عودته الى ايثاكا على ارواح الموتى ووعد بحمل أسود لا بياض فيه لروح تيرسياس العراف . كل شىء جرى كما قالت كيركا ذات الجدائل الشقراء . وخرجت ارواح الموتى من عرصات اريبوس وتجمهرت حول الحفرة الواسعة حيث القرابين الذبيحة دمها يسيل ، خرجت لتشرب دم الضحايا الجارى : ابكار وفتيان لم يعرفوا افراح الزفاف ، وشيوخ طالت ايامهم واسودت بالاثام الكثيرة ، وما كان اكثر الصرعى الذين هلكوا فى المعارك ، وصاحت الارواح المحتشدة صيحة رهيبة انخلع لها قلب اوديسيوس وامتقع وجهه رعبا ، ولكنه ثبت فى مكانه شاهرا حسامه فى وجوههم قائلا : لن يقترب احدكم من الدم قبل ان اخاطب تيرسياس ويخاطبنى

وكان اول من جاء من الارواح روح الفتى البينور الذى مات فى جزيرة ايايا بقصر الساحرة كيركا ، فبكى اوديسيوس شبابه الضائع . وقال البينور وهو ينتحب انه جاء «تحت الظلام والظلال» لانه اسرف فى السكر ، فلم يهبط من سطح القصر على السلم الطويل بل سقط على الارض جثة هامدة ، وهكذا انتقلت روحه الى دار هاديس ، او مملكة الموتى . ان رفاقه فى لهفتهم تركوه على عجل فلم يدفنوا جثمانه ولم يندبوا موته ، ولم يقيموا له جنازا وروح البينور تستعطف اوديسيوس ان يقيم له قبرا على شاطىء ايايا يدفن فيه رميمه بعد ان يحرق جثمانه وان يغرس فى القبر مجدافه حتى يراه كل الملاحين ويكون عبرة لمن يعتبر فان لم يفعل اوديسيوس ذلك احاقت به الروح شرا

جسيما فوعد اوديسيوس روح البينور بما طلبت

ثم جاءت روح انتيكليا أم أوديسيوس فبكى لمرآها وتمزق لها قلبه ، ولكنه مع ذلك لم يضعف امامها فيتركها تقترب من دم الضحايا لتشرب منه . حتى جاءت روح العراف الاعمى تيرسياس وكان شبحه يحمل فى يده صولجانا من ذهب فرفع اوديسيوس حسامه المطعم بالفضة وخلى بينه وبين الدم الاسود فشرب منه حتى ارتوى قبل ان يتنبأ له برحلته المستقبلة ويدله على طريق العودة . وحذر تيرسياس اوديسيوس من غضب بوزايدون رب البحر و « مزلزل الارض » الحاقد عليه لانه فقأ عين ولده الوحش ذى العين الواحدة ولكنه وعده بالنجاة . وقال له انه سيلتقى عند جزيرة ثريناكيا بقطعان هليوس رب الشمس وهى ترعى فان انزل بها ضرا فهو لن يعود الى وطنه ايثاكا الا شقيا شريدا بعد ان تتحطم سفينته ويغرق كل رجاله . سيعود الى وطنه على متن سفينة بين الغرباء وحين يعود الى قصره فى ايثاكا سوف يجد امراء المدينة المتغطرسين قد احتلوا قصره وذهبوا يخطبون ود زوجته « الالهية » بنيلوب الوفية وبعد ان يفتك بهم جميعا سوف يمضى فى طريقه ومعه مجدافه حتى يبلغ قوما لم يروا البحر قط ولم يسمعوا بالسفن ولا يأكلون اللحم المملح فيقيم بينهم حتى تأتيه علامة ان رآها وجب عليه ان يعود فورا الى وطنه ، وهذه العلامة هى انه سيلتقى بعابر سبيل مثله يقول له انه يرى جناحين على كتفيه

فان رأى اوديسيوس هذه العلامة عرف ان نهايته اقتربت وعندئذ فعليه ان يغرس فى الارض مجدافه وان يقدم القرابين لبوزايدون رب البحر ومزلزل الارض : ولتكن قرابينه خروفا وثورا وخنزيرا بريا ذكرا . ومن بعد

ذلك يعود الالهة . وهنا سيلتقى بمنيته وسيأتيه الموت من البحر وسيكون موته موتا هادئا تنتهى به شـــيخوخته الناعمة ويعيش كل من حوله فى سعادة وهناء

ولما انتهى تيرسياس من نبوءته وعـــرف اوديسيوس ما خبأه له القدر سأل اوديسيوس تيرسياس عاجبا عن روح امه الواقفه فى صمت بجوار دم الضحايا وكأنهـــا لاتتبين ولدها ، فأجابه تيرسياس انها لن تتعرف عليـــه الا اذا شربت من دم الضحايا ، فهذا شـــأن الارواح ان شربت الدم تكلمت بالحق وان حيل بينها وبينه عادت الى مكانها فى دار الموتى . فلما اتم الاميرتيرسياس حـــديث الغيب عادت من حيث جاء الى دار هاديس

وثبت اوديسيوس فى مكانه حتى اقتربت امه من الدم الاسود وشربت منه فتعرفت لفورها على ولدها ، ومضت تندب مجيئه « تحت الظلام والظلال » رغم انه لا يزال فى عداد الاحياء ، وقالت : « ما افظع مشهد هذه الاشـــياء فى عيون الاحياء فان بيننا وبينكم انهارا عظيمـــة وبحارا رهيبة واولها اوقيانوس الذى لا يمكن لقدم ان تعبره ، ولا سبيل الى عبوره بسفينة كاملة العدة » . فأنبأها اوديسيوس بحاله وتجواله وسعيه فى دولة الموتى وراء الامير العراف تيرسياس ليدله على الطريق الى أيثـــاكا وهم اوديسيوس بأن يعانق امه بقلب مشوق ولكنها افلتت من ذراعيه ثلاثا وكأنها ظل اجوف او شبح من نســـيج الاحلام . وظن اوديسيوس أولا أن برسيفون ربة التربة الظلماء قد أرسلت اليه طيف امه لتكيد له وتضاعف من شقائه عند رؤيته ، ولكن امه انبأته ان ذلك لم يكن كيدا له من برسيفون وانما هو حال كل البشر عندما يموتون فهم يتحولون الى اطياف جوفاء : « فالاعصاب عند الموت لا تعود تربط اللحم بالعظام لان ما فى النار المشتعلة من

قوة عظمى يدمرها بمجرد ان تغادر الحياة العظام البيضاء وتطير الروح عن الجسد طيران الحلم وتحلق على مقربة.»

وهنا اجتمع حشد من أرواح النساء الموتى حول الدم يريد أن يلعقه ارسلتهن الربة العالية برسيفون ، فتبين اوديسيوس فى هذه الارواح زوجات ابطال اليونان وبناتهم. ولم يشأ ان يتركهن يرتوين بالدم الاسود فوقف دونه بسيفه حتى يرتوين من الدم الواحدة بعد الاخرى وبهذا يستطيع مساءلتهن ومخاطبتهن ..

وجاءت الاولى وهى تيرو واعلنت انها بنت سالمونيوس النبيل وزوجة كريثيوس بن ابولس . وقالت انها عشقت نهرا اسمه انيبيوس كان أجمل أنهار الدنيا فاتخذ بوزايدون رب البحر ومزلزل الارض وضارب الزنار حول البسيطة هيئة هذا النهر المعشوق واختفى بها تحت اللجة الهائلة وعانقها بعد أن ألقى عليها غلالة من النوم العميق . وحملت تيرو من بوزايدون بلياس الذى جرى فى ايولكوس وانبت فيها المراعى الخضراء والقطعان الكثيرة ونيليوس الذى جرى فى بيلوس ذات الرمال الجدباء ، وانجبت هذه الملكة أيضا من كرثيوس ثلاثة اولاد كلفوا بالمركبات ذات الجياد

ثم تجلى لاوديسيوس طيف انتيوب التى كانت تباهى بأنها حملت من زيوس كبير الالهة ولديها أمفيون وزيتوس اللذين اسسا مدينة طيبة ذات الابواب السبعة وحصناها بالاسوار ومن بعدها تجلى لى طيف الكمينا زوجة امفتريون التى انجبت من زيوس هرقل قلب الاسد وتجلى له طيف ميجارا بنت كريون المتغطرس التى اتخذ منها هرقل زوجة له . ثم تجلى له بعد ذلك طيف ابيكاستا الجميلة ام الفتى اوديبود وهى التى ارتكبت جرما فظيعا على غير علم منها حين تزوجت من ولدها اوديبود بعد ان قتل اباه . ولكنه رغم ذلك ظل يحكم بنى كادموس فى طيبة الغراء

بأمر من الالهة رهيب اما هى فقد شنقت نفسها بحبل من فرط الياس فانتقلت روحها الى دار هاديس ، السجان الاعظم وتركت لولدها شقاء الدنيا لتصلى هى فى شقاء الاخرة . كذلك تجلى لاوديسيوس طيف خلوريس الجميلة بنت امفيون التى تزوجها نيليوس وجعلها ملكة على بيلوس وانجبت له اعظم البنين . ثم تجلى له بعد ذلك طيف الجميلة ليدا زوجة تنداروس التى انجبت له ولدين هما كاستور مروض الخيل وبوليديوك الملاكم . وقد حكمت عليهما الالهة بأن يتبادلا الموت والحياة ، فيموتا يوما ويعيشا يوما . ثم جاءه من بعدها طيف أيفيمديا زوجة أبويوس التى فاخرت الازواج وانجبت منه الفتى اوتوس والفتى افيالت الجبارين اللذين طاولا العمالقة قامة وارادا ان يطاولا الالهة مجدا واندرا الالهة بغزو السماء فكدسا الجبال ليصلا الى قلب السماءوارادا انيكدسا جبل اوسا على جبل الاولمب ويكدسا جبل بليون على جبل اوسا ، واوشكا ان يبلغا ما أرادا لولا انهما ماتا فى ميعة الصبا فصرعهما رب الشمس ولد زيوس من ليتو ذات الخصل الذهبية قبل ان يخضر لهما عود . ثم راى اوديسيوس طيف فيدرا وطيف بروكريس وطيف اريادنا الجميلة بنت الملك الساحر مينوس فاختطفها الملك ثيسيوس من بلدها كريت الى اثينا حاضرة ملكه ولكنه لم ينعم بها لان ارتميس ربة الحرب والصيد فتكت بها قبل ان يزف اليها ثم راى طيف مايرا وطيف كليمينا وطيف بريفيلا اللعينة التى باعت رأس زوجها لقاء حفنة من الذهب . وغيرهؤلاء من نساء الابطال : زوجاتهم وبناتهم راى اوديسيوس نفرا عظيما فى هاديس مملكة الموت لا يحصى لهن عدد قبل ان ينجلى هذا الليل الثقيل الذى دخل فيه

ثم شتتت برسيفون المقدسة أطياف النسوة وجاء الى

اوديسيوس نفر عظيم من اخوانه رفقة السلاح الذين حاربوا معه حول اسوار طـــــروادة من كل من جاء ذكرهم فى « الياذة » هوميروس سواء من سقط منهم صريعــا فى المعركة او من كتبت لهم السلامة فى الحرب ولكنهم ماتوا اشنع ميتة بعد عودتهم الى ديارهم . وكان كل منهم ما ان يشرب من الدم الاسود حتى يتعرف عــلى اوديسيوس ويندب له مصيره الاليم

ورأى اوديسيوس اولا طيف اجاممنون العظيم سيد كل الاغريق المظفر فى حرب طروادة ، وروى شبح اجاممنون لاوديسيوس كيف ان زوجته الغادرة كليتمنسترا دبرت له مصرعه مع رجاله الاشداء اثر عودته الى وطنه ارجوس ليخلو لها الجو مع عشيقها ايجسيت ، كيف دبرت مصرع سبيته كاسندرا بنت ملك طروادة ، وصب اجاممنـــون اللعنات على كل النساء . ثم رأى اوديسيوس طيف البطل المغوار اخيل وصاحبه باتروكل معه فى الجحيم ، وبـــدا له اخيل اميرا بين الموتى كما كان اميرا بين الاحياء . ولكن اخيل يجيب اوديسيوس قائلا : « اى اوديسيوس العظيم ، لا تعزينى عن محنة الموت بهذا الكلام المعزى . فلخير لى ان احيا على وجه الارض اجيرا لرجل فقير لا يملك الاقوته من ان اكون سلطانا بين هذه الاشباح الخاوية . » فاخيل الذى كان فى حياته لا يهاب الموت يؤثر بعــد أن ذاق عــذاب الموت أن يكون عبدا بين الاحياء على أن يكون ســيدا بين الموتى . وهؤلاء الابطــال المــوتى فى دار المــوتى لا تزال ابصارهم معلقة بما تركوا وراءهم فى دار الحياة فاجاممنون يسال اوديسيوس عن مصــير ولده الشريد اوريست ان كان قد رآه ببلاط منيلاوس ملك اسبرطه ام سمع به فى اورخومينوس او فى بيلوس ذات الرمال الكثيرة ، فيجيبه اوديسيوس انه لا يعرف ان كان اوريست حيا يرزق او

انه هلك مع الهالكين . كذلك يسال اخيل أوديسيوس عن ابيه بيليوس وعن ولده نيوبتوليموس ، أما عن بيليوس فاوديسيوس لا يعرف شيئا وأما عن نيوبتوليموس الوسيم فهو يقول انه جاهد جهاد الابطال فى حصار طروادة وانه خرج منه سالما لم يصبه خدش . فسر قلب أخيل ايما سرور بما سمعه عن ولده ومضى راضى القلب بخطوات واسعة يجتاز مروج النرجس الابيض « الاسفوديل »

ورأى اوديسيوس عديدا من اشباح الموتى يبكون ويسالونه عن مصير ذويهم واحبائهم من الاحياء . ووقف البطل اياس بن تيلامون وحده لا يفارقه غضبه منذ أن انتصر عليه أويسيوس فى حرب طروادة فهو لم ينس اساءته منذ فاز أوديسيوس دونه بدرع أخيل بعد ان لقى أخيل حتفه . وكلمه أوديسيوس ليسترضيه ولكنه انصرف عنه لا ينبس بكلمة وعاد الى اريبوس وهى عرصات الجحيم

ثم جاء الى اوديسيوس الملك مينوس بن زيوس حاملا صولجانا من ذهب جالسا فوق عرشه يأمر وينهى فى مملكة الموت كما كان يفعل فى عالم الاحياء ومن حوله الجموع وقفت تسال عن أمره فيها من خلال « الباب الواسع ، باب بيت هاديس » . ثم رأى أوديسيوس أوريون الجبار يقتاد الوحوش البرية على مروج النرجس، تلك الوحوش التى كان قد قتلها فى التلال الموحشة ، وكان يقتادها بقضيب من برونز لا ينكسر ابدا

ثم رأى أوديسيوس تيتيوس ابن الارض راقدا على الثرى وكان عملاقا مديدا ، وقد انقض عليه باشقان يأكلان جنبيه ويطعمان على كبده ولكنه لم يحرك يدا لذبهما عنه ذلك لان تيتيوس اغتصب ليتو ، معشوقة زيوس الشهيرة، حيث ذهبت الى بيثو وهى تجتاز مروج بانوب

ثم رأى أوديسيوس تانتالوس وهو يتعذب عذابا أليما واقفا في بركة والماء يبلغ منه حتى ذقنه وقد استبد به الظمأ ولكنه لا يستطيع بلوغ الماء ليشرب . فكلما طأطأ هذا العجوز رأسه ليشرب ابتلعت الارض الماء واختفي تحت قدميه وقد جففته الارض السوداء • ومن فوق رأسه اينعت أشجار التين والزيتون والكمثرى والرمان والتفاح ، وكلما مد يده ليقطف منها هبت الريح فابعدت الثمار بين الغمام ذى الظلال

ثم رأى سيزيف يتعذب عذابا أليما وهو يمسك بحجر هائل يدفعه فيتدحرج به الحجر الى السفح فيعيد الكرة الى مالا نهاية وهو يلهث وينضح عرقا ، وقد تعفر رأسه

ثم رأى أوديسيوس هرقل الجبار ، أو على الاصح رأى طيف هرقل لان هرقل نفسه كان يجلس فى مأدبة الالهة الذين ارتقى الى مصافهم وتزوج منهم هيبا ربة الشباب ومن حول طيف هرقل تطايرت صرخات الموتى وكأنها طيور فزعة تتطاير فى كل صوب • وقف هرقل وقد شد قوسه وسهمه وكأنه يتأهب للرمايه . ومن حول صدره التف حزام رهيب من الذهب رسمت عليه تصاوير عجيبة : دببة وخنازير برية وسباع تبرق عيونها ومشاهد معارك ومذابح وأناس يقتلون . فلما عرف هرقل اوديسيوس سأله وهو ينتحب : « آه ايها الشقى •• أراك مثلى تحيا حياة كحياتى التى كنت أكابدها أيام ان كنت اعيش تحت ضياء الشمس . » ان هرقل كان ابن زيوس ومع ذلك فقد أرغم على الخضوع لرجل أقل منه قدرا جعله يخرج فى أشق المغامرات وقد أرسله ذات مرة الى الجحيم ليأتيه بكلب جهنم ، فاقتحم هرقل دار هاديس وعاد منها بكلب جهنم فأنجز مهمته . وبعد أن تأسى هرقل الحزين لمصير اوديسيوس انصرف الى دار هاديس من

حيث جاء . أما أوديسيوس فقد ظل ينتظر قدوم أطياف الملوك العظام القدامى الذين سمع بهم مثـــل ثيسيوس وبريثوس ، وهما من أبناء الالهة . ولكن الالاف من اطياف الموتى خرجت اليه وتجمهرت من حوله لتسقى من الدم الاسود وكان لصياحها دوى عظيم فخشى أوديسيوس أن ترســل اليه الربة العظيمة برســيفونا من الجحيم رأس الغول الرهيب فغادر لفوره دار الموتى مسرعا الى سفينته السوداء وأمر رجاله أن يتأهبوا للرحيل ، وفى لمح البصر كانت سفينة أوديسيوس تمخر عباب أوقيانوس تسوقها أكرم رياح

هذا هو الجحيم الذى ادخلنا فيه هوميروس فى الكتاب الحادى عشر من « الاوديسا » حين جعل بطله وبطلهـــا أوديسيوس يزور هاديس دار الموتى ليسأل روح العراف تيرسياس كيف الطريق الى وطنه ايثاكا فاذا نحن أردنا أن نحدد ملامح هذا الجحيم الهومرى وجدنا أنه يتميز بجملة خصائص واضحة تعطينا فكرة عن تصور اليونان فى العصر الكلاسيكى للدار الاخرى . فالدار الاخرى عند اليونان كانت دولة الموتى وكانت تسمى دار هاديس ، وكان مكانها فى عالم الظلمات الذى كان يسمى بالعالم السفلى تحت الارض وكانت تقع على شطئان أوقيانوس ذلك النهر المحيط بالارض ولا بد لعبوره من سفينة وملاح ، وكانت تفصلها عن عالم الاحياء أنهار عديدة أهمها أوقيانوس . وكانت الدار الاخرى توصف بأنها عالم الظلام والظلال ، وكانت تسكنها أرواح الموتى التى تتجلى فى هيئة أشباح جوفاء وكانت هذه الاشباح عطشى الى دماء القرابين الذبيحة تشرب منها فيتجدد فيها نوع من الحياة الوقتية يجعلها تدرك وتحس و « تتكلم بالحق » وتندب حظها العاثر وتعبر عن شوقها وقلقها وتبكى بالدمع المدرار فما من طيف رآه

أوديسيوس فى العالم الاخر الا وكان يذرف الدمع السخين·
وكما أن أرواح الاحياء تفكير فى مصير الموتى فكذلك كانت
أرواح الموتى تفكر فى مصير الاحياء · كذلك كانت أرواح
الموتى تحن الى الحياة ، واذا أخذنا قول أخيل مقياسا وهو أن
العبد الحى خير من السيد الميت كان من حقنا أن نستخلص
أن العذاب الاكبر الذى كانت تكابد منه أرواح الموتى كان
مجرد خلوها من الحياة ووجودها كأطياف جوفاء لا مادة
فيها . وهذا يفسر عطشها الشديد الى الدم واكتسابهــا
نوعا من الحياة الوقتية كلما ارتوت منه ، فان قطع عنهـا
عادت الى اريبوس فى بيت هاديس وكأنها تدخل قبرها
او تموت من جديد أو تعود الى ما هى عليه من خواء تام.
كذلك نعرف أن لدار الموتى هذه « بابا واسعا » . ونعرف
أن فيها كلبا يسمى كلب جهنم . كان اليــونان يسمونه
سربيروس أو على الاصح كربيروس . ونعــرف أن فكرة
اليونان عن العــذاب الدائم فى الدار الاخرى يعبر عنهــا
بصورة العذاب المتجدد فى هيئة دورات ليس لها بداية
ولا نهاية ومن أمثلتها المارد تيتيوس الذى تقول قصته ان
النسر المسلط عليه كلما نهش كبده نما كبده من جديد ،
ومن أمثلتها تانتالوس اللاهث عطشا من عذابه فالماء قيد
شعرة منه ولكنه لا يناله أبدا فكلما أوشك أن يبلغه اختفى
كالسراب · ومن امثلتها سيزيف الذى كلما دفع الصخرة
الى القمة هبطت به الى الســفح وهو مقيــد هكذا بين
السفح والقمة الى أبد الابدين . ولكن الغريب فى آخــرة
هوميروس هذه اننا نجد فيها الخطاة والجناة مع الصالحين
والمجنى عليهم ونجد فيها صور العذاب المتجدد جنبا الى
جنب مع مروج النرجس الابيض التى اشتهر بها فردوس
قدماء اليونان فهى فيما يبدو آخرة تجــاور فيها النعيم
والجحيم فليس بينهما فاصل واضح ، أنظر الى أخيل فى

الدار الاخرى تره ينتحب لوجوده بين الموتى وينتحب قلقا على من ترك من أحبائه الاحياء ، فهو اذن يتعذب فما ان يسمع بأن ولده نيوبتوليموس قد خرج من حصار طروادة كامل الشرف دون خدش فى شرفه أو فى جسده حتى نجده قرير النفس يجتاز بخطى واسعة الى مروج النرجس . فكأنما جنة الارواح هو أن تغمرها الطمأنينة وكأنما جحيم الارواح هو ان تأكلها المخاوف والاشواق او الحاجات التى لا سبيل الى تحقيقها . وبالمثل نجد أن هوميروس يحشر فى مكان واحد عتاة الخطاة مع أبطال لا يذكر لهم ذنبا واضحا بل ويصورهم فى صورة الضحايا . فهو يحشر جوكاستا الشقية التى تزوجت من ولدها أوديب على غير علم منها وفيدرا الشقية التى عشقت ابن زوجها والعملاقين أوتوس وافيالت اللذين تحديا الالهة وارادا أن يبلغا السماء لقتالها فكدسا الجبال على الجبال كأنها السلم يرتقى الى عنان السماء هو يحشر كل هؤلاء مع أبطال اليونان مثل العراف الضرير تيرسياس واجاممنون وهرقل واخيل واجاكس ومينوس الخ .. الذين لا يذكر لهم اثما واحدا ، وهو يجعل هؤلاء وهؤلاء يعودون الى اريبوس بعد أن يأخذوا نصيبهم من الدم الاسود ، رغم أنه واضح من وصف هوميروس للحياة الاخرى انه كان فى دارهاديس جناحان جناح هواريبوس حيث تقيم الارواح الشقية وجناح هواليزيوم أو مروج النرجس حيث تقيم الارواح السعيدة ، أو الجحيم والنعيم ، ويبدو أنه كانت تقع بينهما تلك الحفرة الكبيرة عند ملتقى الانهار تلك الحفرة التى تجرى فيها دماء القرابين الذبيحة شفاعة لارواح الموتى . والذى يلفت النظر حقا أن هوميروس لم يجعل أحدا من موتاه يتجول بين مروج النرجس الا روح اخيل وروح أوريون أما الباقون فقد عادوا جميعا الى مكانهم

ببيت هاديس ذى الباب الواسع أو الابواب الواسعة

شيء آخر نجده فى هوميروس فى الكتاب ١٢ من « الاوديسا » تمر به سفينة أوديسيوس وهو فى ظاهره صورة للنعيم ولكنه فى باطنه صورة من صور الجحيم . فقد تنبأت الساحرة كيركا ذات الغدائر المجدولة لاوديسيوس أنه بعد خروجه من مملكة الموت أو من دولة هاديس سيمر بجزيرة محفوفة بالمهالك قرب صخرتى الموت سكيلا وخاربديس ، وهذه الجزيرة محفوفة بالمهالك لان فيها حوريتين هما بنتا سيرينا تغنيان أشجى غناء بأعذب صوت فتجذبان الملاحين الى شاطئهما بسحر الغناء وهناك تقضيان عليهم قضاء مبرما . وقد حذرت كيركا أوديسيوس أن يستسلم لغنائهما الساحر حتى لا يهلك قالت كيركا : « ولسوف تصل أولا الى حوريتى سيرينا اللتين تسحران كل من يأتى اليهما من الرجال . فكل من اقترب منهما على غير علم منه وسمع صوت الحوريتين فلن يعود ليرى زوجا أو ولدا فى انتظاره ولن يفرح بأوبته ذووه ، لان حوريتى سيرينا تسحرانه بأغنيتهما الصافية وهما جالستان فى المروج ومن حولهما كوم عظيم من عظام الرجال وقد نخرهم فساد الموت ومن حول عظامهم بليت جلودهم . » ولم يكن هناك من علاج لمقاومة سحر هذا الغناء الجميل الا أن يمسح أوديسيوس آذان رفاقه بزيت الشهد حتى لا يسمعوا الغناء فيضعفوا أما هو فقد قيده رجاله بوثاق شديد فى السفينة حتى لا يستجيب لنداء الساحر فلما مر أوديسيوس بسفينته بجوار الجزيرة « سكنت الريح على الفور وحل هدوء لا رياح فيه وسكن الموج كأن الها هدهده فنعس » وسمع اوديسيوس حوريتى سيرينا تناديانه بأرخم غناء : « تعال الينا ، تعال الينا ، يا أوديسيوس الشهير يا مجد

اخايا العظيم ، وارس بسفينتك حتى تسمع غناءنا . فما من أحد مر علينا فى سفينته السوداء الا وسمع من شفاهنا غناء أحلى من الشهد فسعد بالغناء قلبه ومضى عنا أوسع حكمة مما جاء الينا . فنحن نعرف كل شيء فى الوجود وكل كفاح كتبته الالهة على اهل ارجوس واهل طروادة فى رحاب طروادة الفسيحة . أجل نعرف كل ما سيجد مستقبلا على وجه الارض ذات الثمار .. » ووعدت حوريتا سيرينا أوديسيوس بأنهما سوف تجعـــلانه مثل الالهة فى المعرفة وتكشفان امامه علم المــاضى والمستقبل . ولكن أوديسيوس قاوم غناءهن الساحر وقاوم اغراء المعـرفة الكاملة ، حتى خرج بسفينته من منطقـة الخطر ونجـا برجاله ..

فالسيريناب (اللواتى كن اثنتين فى هوميروس فأصبحن عادة ثلاثة فى أدب ما بعد هوميروس) اذن كانت لهن مروج مزهرة كمروج اليزيوم أو فردوس اليونان . وكن يغرين أوديسيوس بالمعرفة الكاملة ليستدرجنه الى دماره كمـا حدث فى قصة الخطيئة الاولى التى أخرجت الانسان من الفردوس . ومع ذلك فليست هناك شبهة فى أن جزيرتهن لم تكن صورة للنعيم بل كانت صورة للجحيم ، حيث الموت المحقق يحيل الملاحين الى أكوام من الجيف المتعفنة وأكداس من العظام فكأنهن اذن مصدر غواية الانسان وطريقه الى الجحيم . أما غناؤهن الجميل فهو حزين كعديد الندابات أو كالعويل وهو يأسر النفس بجمـــاله الحزين وبحزنه الجميل . وفيما بعد نقرأ فى سوفوكليس انهن كن يغنين اغانى الموت فى دولة هاديس . ثم نقرأ فى أفلاطون انهن كن يســـكن فى هاديس دولة الموتى . وقد كان عملهن مصاحبة الموتى فى رحلتهم من الدنيا الى الاخرة

وأهمية هؤلاء الحور المغنيات فى الجحيم أو فى دولة

الموتى على كل حال هى أنهن كن يصورن دائما فى صورة الطير الانسى فلهن أجساد الطير وأجنحة الطير ولكن لهن وجوه النساء الفاتنات . ونحن نلتقى بهن كثيرا فى الاداب القديمة والوسيطة فى صورة الحور اللائى كن نســاء ثم تحولن الى طيور أو كن طيورا فتحولن الى نســاء وفى أوربيديس (« هيلانة » ١٦٧) انهن عذارى مجنحات وانهن بنات الارض . ومن رسوم اليونان ما يصورهن على أنهن ندابات يندبن على قبور الموتى بشجى الاغانى

ولكن صلة السيرينات بعـــالم الموتى لم تطمس أبدا أهم صفاتهن : حلاوة غنائهن وهيئتهن المختلطة بين الطير والانس وقدرتهن على الاغواء . ولعل من المهم أن نذكر أيضا انهمـا كانتا اثنتين عددا فى هوميروس وفى أقدم النصوص . وقد شبهتهما العلامة الكبيرة جين هاريسون بملاكى المـــوت واستقصت أصلهن فى الطيور الجـــارحة المقترنة بجثث الموتى ..

هذه هى بعض طبقات الجحيم التى مر بها أوديسيوس ورفاقه على متن « السفينة السوداء » فى رحلته الى موطنه ايثاكا كما تقول « الاوديسا » ، أو فى رحلته الى الجنـــة كما كان شراح هوميروس يقولون فى العصور الوسطى ، فقد كان هؤلاء الشراح يرون فى غربة أوديسيوس عن وطنه وضلاله عشر سنوات بين بحار غريبة وجزر عجيبة قصـــة غربة الانسان عن الجنة الضائعة وبحثه الدائب عنهـــا بين المهالك والمخاطر والغوايات حتى كتبت له الالهة أن ترد غربته بعد أن يمر فى كل طبقات الجحيم

الشعراء فى الآخرة

لعل كوميديا « الضفادع » لارسطوفانيس هى أقدم نص أدبى خصص من ألفه الى يائه لتصوير زيارة الانسان للعالم الاخر فقد عرضت « الضفادع » على المسرح الاثينى فى عيد اللينايا عام ٤٠٥ ق ٠ م ٠ فنجحت نجاحا عظيما جعل الجمهور يستعيد عرضها بعد وفاة صاحبها ، وهو أمر كان نادر الحدوث فى اليونان القديمة ، ولا يعرف ان كان اقبال الاثينيين عليها راجعا الى شغفهم بما لها من قيمة فنية أو بما تميزت به من هجاء لاذع لرجالات عصرها أو لارائها السياسيةولدعوتها الوطنية الحارة ٠ ولا شك أن «أوديسا» هوميروس التى يرجح أنها نظمت فيما بين ١٠٠٠ ق ٠ م ٠ و ٨٠٠ ق ٠ م ٠ أقدم عهدا من « الضفادع » لارسطوفانيس ولكن « أوديسا » هوميروس تمثل مشكلة أدبية وفلسفية حقيقية ، فهى من الناحية الشكلية الحرفية لا تشتمل الا على فصل واحد أو حلقة واحدة من أربع وعشرين حلقة تصور نزول البطل أوديسيوس الى الجحيم ليلتقى هناك بأبطال اليونان وملوكهم وليعرف هناك طريقه الذى ينبغى أن يسلكه حتى يعود الى وطنه ايثاكا ـ بعد طول ضلال

ولكن اذا صح تفسير العصور الوسطى لهذه الملحمة

الخالدة بأنها فى حقيقتها ملحمة دينية تمثل ضلال الانسان بعد خروجه من الجنة الاولى وبحثه الذى لا ينى عن جنة الميعاد وما يلاقيه الانسان بين الجنتين من أخطار وأهوال ومغامرات وغوايات فربما كانت « الاوديسا » كلها بأناشيدها الاربع والعشرين تصور رحلة أوديسيوس فى « سفينته السوداء » بين بحار غريبة وجزر عجيبة تصور من ألفها الى يائها رحلة الانسان فى الدار الاخرى حتى يصل فى النهاية الى الجنة التى كان قد خرج منها وفى هذه الحالة لا تكون زيارة أوديسيوس للجحيم الا مجرد مرحلة من مراحل تجوال الروح بين عرصات الجحيم وطبقات الجنة وربما ما بينهما من مطهر • وفى هذه الحالة أيضا تكون ملحمة « الاوديسا » هى أول نص أدبى كامل يصف زيارة الانسان للعالم الاخر ، وتكون رحلة « الاوديسا » أسبق زمنا من رحلة « الضفادع » كذلك الامر فى ملحمة « جلجامش » البابلية الشهيرة فهى تصور زيارة البطل الاشورى جلجامش للجحيم ، وتصور زيارة الربة عشتروت أو عشتر للجحيم وهى المقابل الاشورى لايزيس المصرية • فهذه الملحمة البابلية التى اكتشفت فى مكتبة أشور بانيبال ملك الاشوريين فى القرن السابع ق • م • (٦٦٨ – ٦٢٦ ق • م •) ربما كانت مدونة قبل هذا التاريخ ، والارجح قياسا على طبيعة الملاحم الاولى ، انها وجدت فى مرحلة شفوية تنشدها أفواه الرواة قبل تدوينها بقرون بل الثابت أن بعض ما فيها من مواد يرجع الى ٢٠٠٠ ق • م • ومنه ما هو سابق على ذلك من آثار سومر • وهى فى جميع الاحوال أقدم من « ضفادع » أرسطوفانيس ولعلها كانت أقدم منها زمنا • ولكن مشكلة ملحمة « جلجامش » تشبه مشكلة ملحمة « الاوديسا » وتزيد عليها ، فهى من ناحية يشوبها الغموض لقلة نفاذنا الى رموز تلك الفترة ، وهى

من ناحية أخرى لم تكتشف كاملة بل اكتشفت منها حلقات محدودة لا نستطيع أن نحكم منها ان كانت قد خصصت برمتها لرحلة البطل جلجامش للعالم الاخر أم أن هذه الرحلة مجرد حلقة من حلقاتها كما هو الامر في « الاوديسا » على ما يبدو • ومن أجل هذا يمكن أن نقول أن « الضفادع » لارسطوفانيس هي أقدم نص أدبي يدور كله على فكرة زيارة العالم الاخر

« والضفادع » لارسطوفانيس تدور حول موضوع الموازنة بين الشعراء أو على الاصح بين شاعري التراجيديا العظيمين اسخيلوس وأوربيديس بصفة أساسية • ففيها أن ديونيزوس ، اله الخمر والدراما ما أن بلغه موت أوربيديس حتى حزن عليه حزنا شديدا وقرر أن ينزل الى دار هاديس أي الى الجحيم ليعود به الى عالم الاحياء • ويبدو من فكاهة أرسطوفانيس أنه حتى الاله ديونيزوس لم يكن مجردا عن الهوى والدوافع الشخصية حين نزل الى الجحيم ليعود منه بهذا الشاعر ، فحين يقول له بلوتو رب الموتى ، وهو اسم من أسماء هاديس « سأتركك تعود الى وجه الارض بمن تختاره حتى لا يضيع جهدك هباء » يجيب الاله ديونيزوس قائلا : ديونيزوس أشكرك من صميم قلبي • تعال أنت وهو • سأشرح لكما الامر • انا جئت هنا لابحث عن شاعر • اسألوني : « ولماذا عن شاعر ؟ وأنا أقول : ليهدي المدينة الى الحكمة وبهذا تستمر في عبادتي • وبناء عليه فسأختار من يثبت أنه احكم رأيا من اخيه »

فديونيزوس اذن يعلم أن من الشعراء من هم مصدر للحكمة والهداية وان منهم من يثبت الايمان في قلوب الناس ويدعم أركان الدين •• ومن « الضفادع » نعلم ان المشكلة التي كانت تؤرق الاله ديونيزوس هي انتشار الشك والتجديف والالحاد في العصر الذي كتبت فيه هذه

الكوميديا فانصرف الناس عن عبادة الالهة بفضل انتشار مذهب السوفسطائيين وبفضل تأثير سقراط فى مثقفى اليونان • وديونيزوس يخشى انه اذا دام الحال على هذا المنوال فسينفض الناس عن عبادته• ولعل هذا هو السبب الذى جعله فى نهاية الامر يقرر أن يعود بالشاعر اسخيلوس الى الحياة بعد أن كان قد خرج فى رحلته ليعود بالشاعر أوربيديس • ذلك لان اسخيلوس شاعر عميق الايمان عميق التدين ينضح أدبه بتمجيد الالهة أو بمخافة المجهول • بل ان اسخيلوس بلغ فى تدينه مبلغ التصوف حتى لقد عرف عنه أنه كان من الاصفياء أو « الميستاى » أو اخوان الصفا الذين اشتهروا بعبادة الربة ديميتر فى اسرار اليوسيس الشهيرة ، ومما يروى عنه أنه أفشى اسرارهذه العبادة للناس فحوكم وأدين ولم يشفع له عند قضاته الا ما أظهره من بسالة فى الدفاع عن الوطن فى معركة ماراثون كل ذلك بينما عرف عن أوربيديس أنه كان من أشياع سقراط والسوفسطائيين والشكاكين والمجدفين ، وانه ملأ أثينا بالشك والتجديف فى حق الالهة • وعليه فان ديونيزوس رب الخمر والدراما رغم حبه لاوربيديس شاعرا وأديبا ، فهو قد أثر عليه اسخيلوس وعاد به من دونه الى الحياة ليشيع الايمان فى قلوب الاثينيين من جديد

ففى « الضفادع » نرى الاله ديونيزوس ينزل الى العالم الاخر مع عبده اكسانثياس بحثا عن أوربيديس ليعود به من عالم الموتى الى عالم الاحياء • وهو لا يعرف طريقه الى العالم الاخر فيلتقى بالبطل هرقل ويسأله عن الطريق

هرقل « محاولا التهويل » : الرحلة طويلة ستصل أولا الى بحيرة كبيرة واسعة وبلا قرار

ديونيزوس (لا يتأثر بالتهويل) : وكيف أعبرها ؟

هرقل (ملوحا) : فى قارب صغير ، مثل هذا القارب •

هناك معداوى عجوز يعبر بك فى المعدية مقابل بريزتين

ديونيزوس : دائما البريزتان .. حتى فى الدار الاخرى البريزتان . يا ترى كيف وجدت البريزتان طريقهما الى عالم الموتى ؟

هرقل : الملك ثيسيوس اخذهما معه . بعد ذلك سترى حيات ووحوشا غريبة الاف منها والاف

ديونيزوس : لا . لا تلعب بالبعابيع . انهـــا لا تخيفنى ..

هرقل : ثم ستجد أوحالا عميقة وأوساخا بلا نهاية أو غاية يتمرغ فيها الخطاة . مثلا من أساء الى ضيف أو نشل بنتا بعد أن نام معها أو ضرب أمه او لكم اباه او اقسم يمينا كاذبة أمام رب السماء

ديونيزوس : ارجو ان اجد بينهم كل من تعلم رقصة سينسياس التى يسميها رقصة المعركة وكل من حفظ خطبة لمورسيموس

هرقل : ثم ستسمع نفحة من الانغام تهفهف حول اذنيك وترى نورا ، وترى ادغال الاس والريحان وحشـــدا من الرجال والنساء متهللين يصفقون فى سعادة

ديونيزوس : ومن يكون هؤلاء ؟

هرقل : الصوفية الاصفياء .. هم سيدلونك فورا على ما تطلب . فالاصفياء يسكنون على حافة الطريق رأساعند باب بلوتو ملك الموتى . مع الســـلامة . رحلة ســـعيدة يا صديقى

من هذا نعلم شيئا عن طبوغرافية العالم الاخر عنـــد اليونان . كانت هناك اولا بحيرة واسعة بلا قرار لابد ان تعبرها ارواح الموتى لتصل الى الدار الاخرى . وكانت اليونان تسميها بحيرة اخيروزيا أو اخـــيرون . وكانت الارواح تنتقل من ضفتها الى ضفتها الاخـــرى فى قارب

يقوده معداوى عجوز كانت اليــونان تسميه خارون أو شارون ، معداوى الارواح ، فاذا ما بلغت المعدية الشاطىء الاخر ، وجدت الارواح نفسها فى الجحيم اولا ، وعــلامة الجحيم هى هذه الحيات والوحوش الغريبة التى لا تعـد ولا تحصى ثم الاوحال العميقة والاوساخ الفظيعة والروث الذى يتمرغ فيه « الخطاة » اما بعد الجحيم فكانت هناك الجنة أو فردوس اليزيوم الذى ينعم فيه اهل النعيم بالاس والريحان وبالنغم الجميل وبالنور البهى فيصفقون ويهللون فى سعادة غامرة ثم نعرف من ارسطوفانيس ايضــا على لسان خارون أو شارون معداوى الارواح ان من الوحوش التى تسكن الجحيم « غربان الرمم وكلاب جهنم والحمير الميتة » وان نهر النسيان يجرى فيه وهو يقول متهكما ان عذاب الاخرة بين هذه الوحوش الغريبة هو بمثابة الراحة من هموم الدنيا والامها . اما جماعة الاصفياء المتهللين عند باب بلوتو رب الموتى فاسمهم فى ارسطوفانيس«ممويمنوى» أو الميامين أو السعداء . اما مسكن هؤلاء الاصفياء فهو على حافة الطريق الذى يسافر عليه المسافر من الجحيم الى الجنة . ومعنى هذا انه كان هناك طريق يفصل مابينهما كذلك بمجرد عبــور البحيرة كان هناك حجـر يذكره ارسطوفانيس ويترجمه الاستاذ جيلبرت مرى بعبــارة « حجر الصهد » ، ويترجمه الاســتاذ بنجامين روجرز بعبارة « حجر الذبول » أو « الحجر الذابل » . اما بحيرة أخيرون أو أخيروزا فتسكنها جماعة من البجع تغنى هم اولاد سيكنوس او كوكنوس الذى كان فتى جميلا ، وهــو ابن ابولو من هيريا كان له عاشق يحبه كما تقول الاساطير اسمه فليوس تنكر له فانتحر الفتى الجميل بالقاء نفســه فى البحيرة ، وفيها تحول الى بجعة وقيل أيضا ان امه انتحرت ايضا غرقا حزنا عليه فتحولت مثله الى بجعة .

ومن بين الوحوش الفظيعة التى يلقاها ديونيزوس وعبده بعد ان يعبرا بحيرة اخرون جنية عجيبة كان اليـــونان يسمونها أمبوزا عرف عنها انها تتشكل بصور شـــتى باستمرار وفى لمح البصر ، فهى آنا فتاة جميلة وهى آنا ثور وهى آنا بغل وهى آنا كلب ونعرف من ارسطوفانيس ان رأسها كله يشتعل نارا وان لها ساقا من نحاس . ونعرف من الروايات المتاخرة على ارسطوفانيس انها كانت جنية خطرة تعشق الفتيان ثم تلتهم عشاقها وانه يجب على من يراها ان يلعنها حتى تفر خائفة حين تسمع اللعنة

ومن وسائل التعذيب الاخرى التى اورد ارسطوفانيس ذكرها فى « الضفاع » كلب جهنم الشهير باسم «كربيروس» ونهر استيكس الذى يمر بين أخاديد وكهوف صـــخرية عميقة ونهر اخيرون الذى تقطر صخوره بالدماء ثم كلاب كوكيتوس التى لا تكف عن الدوران ثم الثعبان ذو الرؤوس المائة الذى يبقر البطن ويمزق الاحشاء ثم حنش المـــاء المسمى اللمبريدا وهو ذو مصاصات سبع يلعق الحجر فيبليه .. ثم الجراجين « جمع جورجون » وهى وحوش خرافية تلتهم الاحشاء بعد ان تجعل منها عجينة داميـــة . وفى الجحيم حفرة عميقة تلقى فيها اجساد الجناة . ومن ارسطوفانيس نعرف ايضا ان بلوتون رب الاخرة ، وهـــو الاسم الاخر لهاديس رب الموتى كان لقصره بواب يدعى اياكوس وهو فيما يبدو غير ياكوس روح الخضرة والنماء الذى يسبح له صوفية ديميتر فى ذكرهم بالرقص والغناء والتصفيق الموقع ، ويصف أرسطوفانيس هـــذا البواب اياكوس ايضا بأنه قاضى الموتى . ولكننا نعرف من اساطير اليونان ان العالم الاخر كان له عنـــدهم ثلاثة قضاة هم اياكوس ومينوس ورادامانثوس ، وكان اشهرهم جميعا هو رادا مانثوس . وكانت مهمتهم محاسبة الموتى ، ويبدو

ان مكان اقامتهم كان فى مكان ما فى مفترق الطرق بين الجنة والجحيم . وايا كان الامر فارسطوفانيس لا يذكر من هؤلاء الا اياكوس الذى يجعله بواب قصربلوتون أو هاديس، وقد جعل تحت امرته ثلاثة من الزبانية يعذبون زوار الاخرة بمختلف وسائل التعذيب ومنها الجلد بالسياط حتى يعترفوا بالحقيقة

هذا هو الجانب الفظيع من الدار الاخرى وهو الجحيم ولكن ما ان يتجاوزه ديونيزوس وعبده اكسانثياس حتى يجدا نفسيهما فى النعيم . ومن معالم هذا النعيم فى ارسطوفانيس غير مروج اليزيوم وما فيها من اس وريحان ونسمات حلوة نسمع انغام الناى والارغول ونرى الاصفياء من اهل الجنة وقد اجتمعوا فيما يشبه المهرجان يرتلون التراتيل لياكوس او ياخوس او على الاصح ياكخوس تتبعهم جماعة من النساء المتعبدات ، وهم يلبسون جميعا ثيابا بيضاء ، وعلى جباههم اكاليل من الزهور وفى ايديهم مشاعل مشتعلة

اما ياكوس هذا فقد كان الها هاما فى عبادة الربة الام ديميتر الهة الاخصاب والاثمار وكانت تنشد فيه المدائح فى حلقات الصوفية اثناء التعبد فى « اسرار » ديميتر وقد كان وثنه يحمل فى يوم عيدها من معبدها فى اليوسيس الى اثينا وقد زعموا انه ابن الام ديميتر او ابن الربة العذراء برسيفونا او ابن ديونيزوس اله الخمر ، وكلهم من الهة الاخصاب . ونعرف من ترتيل المرتلين ان ياكوس هذا اله شاب طروب راقص يمشى على السهول الخضراء ويقود الاصفياء فى الرقص وينشدون له الاناشيد الجماعية ،وان الاصفياء كانوا يقدمون الخنزير قربانا فى عيد ديميتر . ومن ترتيلة اخرى فى ارسطوفانيس نعرف ايضا ان ياكوس لانه كان اله الخمر والرقص والطرب والاخصاب كان الها

راضيا للفقراء والبؤساء بوجه خاص بل وللحفاة والعراة لانه ينسيهم بخمره ولهوه ورقصه اتراح حياتهم المريرة . ونعرف ايضا انه سر النماء ومجدد الشباب فبه يرتد الشيخ فتيا وبه تزيد الحياة جمالا فان سبح الاصفياء فى النعيم بالاء ديميتر الحورية الام او برسيفونا الحورية العذراء لم يخرج نشيدهم عن هذه المعانى

كذلك نعلم عن جنةارسطوفانيس انبريسيفونا العذراء الشهيرة باسم « كوريه » أو الحورية لها قصر تقـدم فيه وصيفتها اشهى الطعام وافخر النبيذ ومائدة مثقلة بالفاكهة وفيه فتى غاية فى الوسامة يعزف على الناى وبنات صبايا من اجمل الراقصات متعة للعين وفراش وثير لمن يدخل قصرها وكئوس من خمر بقدر ما تشتهى النفس ..

هذه فكرة عامة عن الدار الاخرى التى يصـورها ارسطوفانيس فى « الضفادع » فيها جحيم وما يتبعـه من صور التعذيب وفيها فردوس وما يتبعه من صور السعادة وفيها قضاة يحاسبون ارواح الموتى • واذا بديونيزوس اله الخمر والدراما يسمع مع عبده اكسانثياس ضجة كبرى وهرجا بين الموتى ويعرف ان كل هذه الجلبة منشؤها ان سكان الاخرة منقسمون على انفسهم الى فريقين يتعاركان فيمن يجلسونه على عرش الشعر : اسـخيلوس أم اوربيديس . وقد كان اسخيلوس جالسا على عرش الشعر فى دولة الموتى منذ ان مات عام ٤٥٦ ق • م كما كانجالسا عليه فىدولة الاحياء . فلما مات اوربيديس عام٤٠٦ ق.م ، وكانت له شعبية ضخمة ولا سيما بين عامة الناس كان منطقيا ان يتجمهر من حوله انصاره ومريدوه ليخلعـوا اسخيلوس من عرش القريض ويجلسوا اوربديس مكانه. والحق اننا لا نعرف من « الضفادع » ان كان ارسطوفانيس قد حشر شعراءه فى الجحيم او فى الفردوس أو وضعهم

بين بين .. وقد نشأت فى مملكة الموتى مشكلة كبرى لان اياكوس اومينوس او راها مانئوس رغم انهم قضاة الموتى الذين يحاسبون الارواح على الخطايا والفضائل ، ثم لم يكونوا كبراء فى فنون الشعر والمسرح بمثـــل خبرتهم فى شئون الاخلاق . ولم يجدوا بين سكان الاخرة النقـــاد الاكفاء للفصل فى هذا الامر الخطير . ولذا فقد وجـــدوا فى قدوم ديونيزوس رب الدراما خير منقذ لهم من هذه الورطة فاقاموا قاضيا فى هذه المحاكمة الفنية ليوازن بين أدب اسخيلوس وأدب أوربديس ويفتي بينهما ولا ســيما وان اوربديس قد احدث بالفعل فتنة بين الموتى فخلعوا اسخيلوس واقاموه مكانه ، أو كما يقول ارسطوفانيس : « لما جاء اوربديس الى عالم الموتى قدم مسرحيـــــات مجانية لحثالة لصوصنا : قطاع الطرق والنشـــالين وعصابات السطو والابناء الذين يضربون اباءهم ، فلدينا منهم هنا عدد كبير ، ولما سمعوا محاوراته البارعة ومبارزاته الماهرة وتورياته الذكية استولى عليهم الاعجاب الى حـــد الجنون وحسبوه كاتبا رائعا . واستولت عليه الكبرياء فاستولى على عرش اسخيلوس . » وبالطبـــــع ما دام ارسطوفانيس قد زج بنا حيث حثالة الموتى تقيم فمن حقنا ان نستنتج ان هذين الشاعرين العظيمين كانا من سكان الجحيم أو على اقل تقدير فى مفترق الطريقين . حيث تتجمهر الارواح انتظارا للحساب فى « الموقف »

وعلى اية حال فقد اعد كل شيء لهذه المحاكمة الكبرى ويجلس ديونيزوس مجلس القاضى ويأتون كما يقـــول ارسطوفانيس متهكما بالمساطر والامتار والبراجل والمناجل وبالزوايا والمناشير والاجن لقياس الشعر وتقويمه لان « أوربيديس سيقيس كل التراجيديات بيتا بيتا » ويأتون بميزان ويجعلون الشعر « كالخروف يوزن على القبان

ويجدونه ناقصا » . وهى طريقة يتمسك بها اوربيديس لانه ماهر فى صناعة الشعر ولكنها تغضب اسخيلوس لانه يعتمد على الوحى والفطرة . ثم تبدأ المنازلة بين الشاعرين أما أوربيديس فيتهم اسخيلوس بجملة تهم أدبية خطيرة أهمها :

١ ـ ان اسخيلوس دائما « يبدأ كلامه بصمت رهيب » فى بداية كل مسرحية انشأها وهى حيلة دجال يريد بها ان يلقى الرهبة الزائفة فى نفوس المشاهدين حتى يقبلوا كل ما يقول دون مناقشة . اما اوربيديس نفسه فيدخل رأسا فى الموضوع

٢ ـ ان مسرحيات اسخيلوس مخيفة وبكل وضوح تجرى فيها الدماء انهارا و « توقف الشعر وتجمد الدم فى العروق » لكثرة ما فيها من عنف واهوال . امااوربيديس نفسه فهو يمقت اعمال العنف

٣ ـ ان لغة أسخيلوس تعتمد على الطنطنة الجوفاء والكلمات الضخمة كالدبش الغريبة كالفيلان المخيفة التى قصد بها ان تكتسح الجمهور كالاعصار المكتسح اوكعناصر الطبيعة الفطرية الهائجة فهى خالية من جمال الفن ودماثة الانضباط المدنى . اما اوربيديس فبيانه مهذب ولغته سلسة لانه شاعر متمدن مثقف

٤ ـ ان فن اسخيلوس كله يعتمد على البوزات وعلى استغلال الغموض فهو يظهر شخصيات تمشى صامتة على المسرح للتعمية والايهام والقاء الرهبة فى القلوب مما جعل مسرحياته فى حقيقتها سلسلة متصلة من أغانى الكورس. اما اوربيديس نفسه فلا يلجأ الى هذه الحيل الرخيصة ويجعل كل شخصياته تتكلم على المسرح من اكبر كبير الى أصغر صغير ، وهذه فى نظره ديموقراطية واقتراب من

عقل الجمهور وقلبه ، وهو لا يلجأ الى هذه « الافيهات » الجوفاء ..

٥ ـ ان اسخيلوس كان ينشىء الشعر والدراما وفق الفطرة التى لا ضابط لها ، اما اوربيديس فقد اعطى الناس قوانين ومقاييس يحكمون بها على الفن

٦ ـ ان اسخيلوس كان يكتب للناس عن اشياء فوق مستواهم ويعتمد على الغيبيات التى تصيب الرأس بالدوار فيجرد الناس بذلك من القدرة على الحكم على لب مايقول. اما اوربيديس نفسه فقد صور على المسرح اشياء واقعية من الحياة اليومية بحيث يمكن للناس ان يحكموا على أعماله، فان اخطأ كشفوا خطأه وان اجاد عرفوا لماذا اجاد . اسخيلوس يتحدث عن البجع السحرى وعن فرسان اثيوبيا وعن صهيل الخيل الوحشية وصليل الخوذات النحاسية واجراس الخيل ، وهو يرعبهم بالرعد والبرق على المسرح حتى يفقدوا كل عقلهم . اما اوربيديس فيكلم الناس بلغة الناس عن شئون الناس

٧ ـ ان اسخيلوس علم الناس الايمان الاعمى دون مناقشة بمعتقدات دينية اشبه شىء بالسحر حتى اصبحوا يقادون كالانعام . اما اوربيديس فقد علم الناس ان يفكروا بحرية وان يتكلموا بحرية وان يعملوا العقل فى كل ما يرون وما يسمعون كما علمهم منهج الشك فى كل شىء من مسلمات الحياة وعلمهم كيف يفكرون فى الدين والسياسة وكيف يدبرون أمور الدولة والبيت ..

٨ ـ ان اسخيلوس كان داعية حرب اذكى فى الناس غرائز القتال . اما اوربيديس نفسه فكان داعية سلام يحض الناس على الحفاظ على الحضارة والمدنية

اما اسخيلوس فيرد على كل هذه الاتهامات ويكيل بدوره تهما عديدة لاوربيدبس واهم هذه التهم :

١ - ان أوربيديس أضاع فخامة التراجيديا ونبلهـــا بتحطيم دور الكورس فى الدراما واعتماده على الغنـــاء المنفرد . اما اسخيلوس نفسه فقد رفع الدراما على هذا المستوى السوقى

٢ - ان أوربيديس حين علم الناس الحرية فى التفكير وفى التعبير وعلمهم الشك فى كل شيء انما علمهم الكفروالالحاد والتجديف والتطاول على مقام الالهـــة وعلى المعتقدات والتقاليد السائدة .. بل ونشر روح التذمر والتمرد فى الجيش وفى الاسطول وعلم الناس السفسطة فيما لا يجدى من الامور حتى صارت حال أثينا الى فوضى فى السلم والحرب اما اسخيلوس نفسه فقد وطد بفنه أركان الايمان الذى لا يستقيم بغيره شيء فى الدنيا او فى الدين

٣ - أن اوربيديس يظن ان دعوته الى السلام قد نفعت اثينا وحقيقة الحال انه قد اشاع الميوعة والطراوة فى رجالها بحيث غدت غير قادرة على الدفاع عن نفســـها . اما اسخيلوس نفسه فقد سار فى طريق هوميروس العظيم وهسيود العظيم فعلم الناس شـــيئين : حب البطولة والاخلاق الفاضلة

٤ - ان اوربيديس قد ملأ مسرحياته بقصص الحب المحرم والنســـاء العاهرات والخائنات والعاشـــقات المسخسخات اللواتى ينتحرن من فـــرط الوجد ، اما اسخيلوس نفسه فقد علم ابناء وطنه كيف يقفزون من مراقدهم كلما نادى النفير وكيف يقاتلون بقلوب الاسود

٥ - ان اوربيديس باسم الواقعية قد البس شخصياته الخرق والاسمال واضاع روعة الديكور وفخامة الشعر باسلوبه الحلو المعسول الذى يدغدغ الحـــواس ولكنه لا يخاطب الخيـــال . بينما اسخيلوس نفســـه قد اقام

مسرحه على السمو والجلال واسلوبه على الرصانة والجزالة

٦ ـ ان اوربيديس ينظم الشعر بطريقة آلية لا الهام فيها باسم اتباعه قوانين الفن بحيث يمكن لاى انسان تكملة اية قصيدة انشأها دون عناء ٠ اما اسخيلوس فهو يعتمد على الهام الفطرة الذى لا يبلغه الا الاصفياء ٠٠

أما ديونيزوس القاضى فيجلس بينهما حائرا يستمع لهذا وينصت لهذا ، وكلما وجد أحدهما عيبا فى شعر اخيه وجد نقده ى موضعه وهكذا عجز عن الوصول الى قرار ، فلم يجد حلا الا ان يأتى بميزان كبير ويطلب من كل شاعر من الشاعرين العظيمين أن يلقى بالبيت بعد البيت فى احدى الكفتين وكأنه يزن قطع الجبن . وفى كل مرة كانت ابيات اسخيلوس ترجح كفته فيستقر رأيه اخيرا على اختيار اسخيلوس ليعود به الى عالم الاحياء وهو عكس ما جاء من اجله لزيارة الاخرة ، فقد كان غرضه الاصلى هو العودة بأوربيديس ٠ وهكذا يمضى ديونيزوس واسخيلوس الى قصر بلوتون رب الموتى ليقيم لهما مادبة فاخرة هى مادبة الوداع قبل ان يعود اسخيلوس الى عالم النور ٠٠ ولكن اسخيلوس لا ينسى قبل رحيله ان يوصى اهل الاخرة بأن يجلسوا على عرشه فى غيبته خليفته سوفوكليس العظيم الذى لبث طول الوقت صامتا فى خشوع لا يتدخل راضيا بزعامة اسخيلوس بين الشعراء . اما اوربيديس المحنق الذى خاب أمله فى العودة الى الحياة فنعرف أنه عظيم الثقافة واسع الاطلاع ثاقب الفكر مصقول الجنان دمث البيان ولكنه لكثرة ماجلس الى سقراط ومدرسة السوفسطائيين الذين ملأوا الدنيا شكا وسفسطة وتجديفا باسم العقل وحرية الفكر تحولوا الى جماعة من حواة الفكر بضاعتهم اللفظ يلعبون به وبقوانين المنطق يستولدون منها ما شاءوا

من الافكار . هذا كان على الاقل رأى الكوراس فى هـــذه المحاكمة الادبية الشهيرة التى جرت فى الاخرة ، والكوراس كما نعلم كان يعبر فى الدراما اليونانية عن الضمير العام او ما نسميه اليوم بالرأى العام . ان أثينا كانت بحاجـة الى شاعر يلهمها الحكمة ويهديها سواء السبيل وســـط تلك الانواء التى كانت تتقاذفها يمنة ويسرة قبـــل ان ينطفىء سراجها الوهاج فجأة وتبتلعه دياجير الظلام . ولم يكن اوربيدس يملك لوطنه حكمة يعطيها رغم كل ما اثر عنه من علم وتفلسف وفكر ثاقب وجرأةفىالرأى..فكان الكوراس أو الرأى العام ، كان لا يرى مخرجا لاثينا من ورطتها الا بالعودة الى الفطرة وفضائلها ونبذ المدنية وجمالها الزائف

ولم يكن هذا الاختيار بغريب على ديونيزوس فقـد كان رب الخمر والشعر وكل قوى اللاوعى والفطرة فى الانسان ولو ان ارسطو فانيس اراد حقا اعادة اوربيديس الىالحياة بدلا من اسخيلوس لانزل الى مملكة الموتى أبولون رب الشعر المهذب الفناء ، المثقف الطباع ، الذى يرمز للجمال والاعتدال ولم ينزل ديونيزوس الذى يمثل كل ما هو فطرى ومنطلق بجنون الالهام . أما موقف ارسطو فانيس نفسه فى هـــذه الكوميديا العظيمة التى اتهمها بعض اساتذة اليونانيـــات المحدودى الافق ظلما بالتفكك والتناقض لانهم لم يفهموها على حقيقتها ، فقد كان موقف الفنان الابولونى المتمدن الذى عاش فى عصر ساد فيه الديماجوجيون او زعماء الرعـاع . وهو قد اعطى لعامة أثينا ما يطلبون : رد الى الحياة داعية الحرب والفطرة المتأججة والانطلاق النبيل الذى لا يخضـع لحساب ، رده اليها فى لغة من يقرأها يحسب أنها تعبر عن رأى الشاعر لكمال صدقها بالتعبير عن فلسفة الفطـــرة العظيمة . ولكن ارسطوفانيس مع ذلك بطن كل مسرحيته بالسخرية من ديونيزوس ومن فلسفة الانطــلاق الذى

لا يعرف ضابطا ، ومن الحرب ودماتها . وهـــو فى الوقت نفسه قد بطنها بالسخرية من اوربيديس المثقف المتمـــدن الذى لم تمنعه ثقافته ومدنيته من ان يلتمس الشعبية بين نفاية الاثينيين . وكأنما لسان حاله قائل : كلاهما لا يرضى ولكن ان كان ولابد ان نختار احدهما فقد وجب ان يقع اختيارنا على معلم الفطرة ولكن دون جنون بالفطرة وعلى معلم الوطنية ولكن دون عدوان الشوفنية

هذه هى كوميديا « الضفادع » لارسطوفانيس وما كان فيها من زيارة للعالم الاخر وموازنة بين الشعراء . وليس هذا كل ما فيها ، فمن هذه المسرحية وما اشتملت عليه من سخرية بساسة العصر نستطيع ان نكون فكرة لاباس بهـــا عن حال أثينا السياسية ومشاكلها الاجتماعيـــة فى زمن ارسطوفانيس وموقف الرأى العام فى كل هذه الامور . كذلك نستطيع من خلال هذه المسرحية ان نخرج بفـــكرة لا بأس بها لا عن حالة اثينا الدينية ومعتقداتها الفـــكرية وحدها ، ولكن عن تلك الشيعة الصوفية التى اشـــتهرت فى تاريخ العبادات اليونانية بجماعة « المســـــتاى » أو المتصوفة أو الاصفياء ، تلك الشيعة التى اقترنت شعائرها بأسرار اليوسيس المقدسة حيث كانت عبادة الالهـــة الام ديميتر وبرسيفونا العذراء بنتها الشهيرة بالربة كوريه وهما ربتا الموت والنماء فى آن واحد . وقد كان لعبادة اليوسيس هذه اهمية خاصة بين الديانات القديمة نظرا لانهـــا كانت تعد أتباعها بنعيم الاخرة وتصف هذا النعيم وصفا قريبـــا جدا من وصف الجنة كما نعرفها نحن الموحدين ، كل ذلك فى زمن لم تتطور فيه فكرة الفردوس بالمعنى المفهـــوم فى أذهان اليونان كما رأينا من دراستنا « لاوديسا » هوميروس ولاشارات هسيود فى « الاعمال والايام »

شيء من التاريخ

كان ينبغى الا انتقل من هوميروس وأرسطو فانيس راسا الى ابى العلاء المعرى دون أن أتوقف بعض الشيء عندشاعر اللاتينية الاعظم فرجيل (٧٠ – ١٩ ق ٠ م) صـــاحب « الانيادة » الشهيرة وصاحب «الاكلوجات» أى «الرعائيات» أو اشعار الرعاة ولا سيما ذلك القسم منها الذى يسـمى « بالاكلوج الرابع » فى « الانيادة » وصف لزيارة البطـل انياس للعالم الاخر وفى « الاكلوج الرابع » رؤيا قريبة جدا من رؤيا الجنة ونبوءة مولد الطفل الالهى الذى يبدأ بمولده عصر السعادة الدائمة وكأنه نبوءة بمولد المهدى المنتظر ٠ وقد أولت العصور الوسطى الاوروبية سواء فى بيزنطة أو فى غرب أوربا « أنيادة » فرجيل « والاكلوج الرابع » بالذات تأويلات جعلت من صاحبهما أشبه شيء بنبى أو بشير يختم عهد الوثنيات ويبدأ عهد الايمان الصحيح ٠ وكذلك كان ينبغى الا انتقل من هوميروس وأرسطوفانيس رأسا الى المعرى قبل أن أتوقف طويلا عندالشاعر اللاتينى العظيم أوفيد (٤٣ ق ٠ م – ١٧ م) صـــاحب « الميتامورفوز » اى «التحولات» أو « التشكلات »

ولكنى لم اتوقف هنا وهنالك لان زيارة انياس فرجيل

للعالم الاخر وحلم فرجيل بالجنة او بالعصر الذهبى ليسا غير اصداء قوية جميلة لصوت هوميروس والاقدمين ، ولان اوفيد فى « تحولاته » وفى غير تحولاته لم يزر جنة ولاجحيما بصفة خاصة اكثر مما زارهما من سبقوه ، فهو فى الحقيقة قد نظم تاريخا اسطوريا للكون والخليقة فصل فيه كيف خرجت الاشياء من الاشياء وكيف تحولت الاشياء الى اشياء مستمدا هذا التاريخ الاسطورى من معتقدات قدماء اليونان والرومان ومن أدبهم • ورغم هذا فقد كان لفرجيل وأوفيد أثر بالغ فى تفكير المثقفين الاوروبيين طوال العصور الوسطى زهاء الف واربعمائة سنة ، ولاسيما تفكيرهم الدينى ، الرسمى وغير الرسمى معا ، فقد قرأ العالم المسيحى فى اثار فرجيل واوفيد معانى تتفق مع عقيدته المسيحية بمثل ما فعل « باوديسا » هوميروس واعتبر كلا من هذين الشاعرين ترجمان الوثنيات الاولى من يونانية ورومانية لدى العالم المسيحى وعده حكيمها الجامع لحكمتها ورموزها الروحية . فاكتفت اوروبا الوسيطة بقراءتهما وتفسيرهما عن قراءة آداب اليونان والرومان فيما خلا النزراليسير • وقد يسر تحول فرجيل وأوفيد اللاتينيين الى قنطرة تصل ما بين الوثنية اليونانية واوروبا الغربية فى العصر الوسيط ما كان من قطيعة بين بيزنطة وروما طوال العصور الوسطى ، وما نجم عن ذلك من ذبول للغة اليونانية فى العالم اللاتينى ، حتى تجدد اهتمامه بها بفضل تأثير الحضارة العربية اولا ونتيجة لسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ من ناحية أخرى

***

ولعل أسلم منهج فى الانتقال الى المعرى والحديث عن « رسالة الغفران » هو ان نبدأ بعرض الخلفية التاريخية لهذا العمل العظيم ، فنوضح طبيعة العصر الذى كان يعيش

فيه المعرى فتتضح بذلك أهم مشاكله وأهم معتقداته ومحاور الصراع المادى والفكرى فيه ، عسى ان يلقى كل ذلك ضوءا على مرامى المعرى وغاياته من « رسالة الغفران » وعسى ان نجد بعض المفاتيح التى قد تساعدنا على معرفة موقف هذا الرجل العظيم كما تجلت فى ادبه من افكار عصره ومن احداثه ومن رجالاته ومن احواله بوجه عام . فاذا ذكرنا ان المعرى انما ولد مع مولد الحروب الصليبية وعاش حياته كلها فى غمارها ، واذا ذكرنا ان اهتمامات الرجل الاولى كانت اهتمامات فلسفية تتصل بالعقائد وبحرب العقائد التى دارت رحاها ليس فقط فى عصره وليس فقط فى بلاده ، ولكن فى صميم بلدته وعلى بعداميال معدودة منه تكشفت لنا ضرورة وضوح الصورة التاريخية التى برز فيها هذا الرجل العظيم وبرز فيها عمله العظيم وقد استعنت فى رسم هذه الصورة الى جانب المصادر العربية المعتمدة التى أرخت للمعرى وعصره ، بكتاب جروسيه الشهير فى « تاريخ الحروب الصليبية » وبكتاب ستيفن رنسيمان الشهير فى تاريخ الحروب الصليبية » وبكتاب الاستاذ داونى فى « تاريخ انطاكية » وبكتاب « بيزنطة » للاستاذ ليفتشينكو

والاعتقاد الشائع ان الحرب الاولى من سلسلة الحروب الصليبية هى تلك الحرب التى وقعت بوقوع ما يسمى عادة بالحملة الصليبية الاولى بين ١٠٩٦ و ١٠٩٩ وهى الحملة التى جاءت من اوروبا الغربية اللاتينية وباشراف بابا روما اوربان الثانى ولكن الحقيقة هى ان الحروب الصليبية بدأت اكثر من مائة وخمسين عاما قبل بدايتها الرسمية هذه ، بدأتها بيزنطة فى العشرينات من القرن العاشر الميلادى حين أخذت تنفذ خطة للتوسع على حساب العالم العربى فى نهاية الدولة العباسية الثانية بعد أن أحست بتفككه بانقضاء

وقد بدأ تنفيذ هذه الخطة فيما استطاعت بيزنطة او استطاعت الروم كما كان يسميهم مؤرخو العرب بجيش يقوده القائد الارمنى جان جورجين ان ترغم من حدود أرمينيا فى ٩٢٧ ــ ٩٢٩ امراء العرب فى ارضروم وملطية وآمد وهى ديار بكر ، وميافارقين وكلها فى شمال سوريا أن يدفعوا له الجزية . وقد استولى جورجين فى ٩٤٣ على ملطية ، فلما كانت ٩٤١ ــ ٩٤٢ استولى البيزنطيون على ميافارقين ، فكانت هذه الغزوات بمثابة المحاولات الاولى للتوسع الاستعمارى البيزنطى على حساب الدولة الاسلامية ، أو على الاصح على حساب الدويلات الاسلامية، وقد تمت هذه المحاولات الاولى فى عهد ثالث ملوك بيزنطة المقدونيين قسطنطين بورفيروجنيت الذى حكم من ٩٣١ ــ ٩٥٩ . وكان العالم الاسلامى منقسما يومئذ الى دولة بنى بويه من الديلم فى بغداد ودولة الحمدانية فى الموصل وحلب ودولة الاخشيديين فى مصر ودمشق بغض النظر عن المغرب

وكان اهل الاحتكاك المباشر ببيزنطة او بالروم هم دولة بنى حمدان الذين اسسوا ملكهم أولا فى الموصل ، ثم ضموا شمال سوريا بما فيها حلب التى كانت تابعة لمصر الاخشيدية ثم استخلصها سيف الدولة الحمدانى من يد المصريين عام ٩٤٤ وقد دامت دولة الحمدانية نحو ستين سنة من ٩٤٤ الى ١٠٠٣ ، وكانت هذه الدولة تنقسم الى قسمين : قسم يحكم فى الموصل وديار بكر أى آمد تحت امارة الاخ الاكبر ناصر الدولة « ٩٢٩ ــ ٩٩١ » ، وقد كان هؤلاء فى صراع مستمر مع بنى بويه الحاكمين فى بغداد وقسم بامارة سيف الدولة « ٩٤٤ ــ ٩٦٧ » يحكم من حلب شمال سوريا وكانت له امجاد فى القتال وانقضاضات على جيش بيزنطة . ولكن بيزنطة ما لبثت أن انتصرت عليه وفى ٩٤٨

— ٩٤٩ اخذت منه مرعش ، ثم استولى منه القائد ليـون فوكاس فى ٩٥٧ على طرسوس عاصمة كيليكيا ثم على آمد « ديار بكر » وفى ٩٥٨ على سمسون ثم تجاوز دجلة فى ٩٥٩

وفى ٩٦١ استطاع القائد البيزنطى نسـيفور فوكاس (نقفور) أن يهزم القراصنة فى قبرص وان يشتتهم ، ثم سار الى شمال الشام واستولى من سيف الدولة على جملة بلاد صغيرة وأسر أبا فراس الحمدانى الشاعر وهو ابـن عم سيف الدولة . ثم استولى نيسفور فوكاس ونائبـه القائد يوحنا جيمشك أو ديميشك أو « الدمسـتق » على حلب عام ٩٦٢ . فحلب اذن قد سقطت فى يد الروم احدى عشرة سنة قبل مولد أبى العلاء المعرى فى ٩٧٣ م، ٣٦٣هـ، ولهذا أهمية خاصة لان معرة النعمان وهى بلدة المعـرى لا تبعد عن حلب الا أميالا قليلة تبلغ نحو الثمانين ، ولان حلب كانت المعهد الاول الذى تعلم فيه المعرى صبيا ،ولان حلب كانت طول زمان المعرى مركزا للصراع السـياسى والدينى العنيف الذى انعكس فى كثير من أدب المعرى

وبعـد أن استولى نيسفور فوكاس عاد الى القسطنطينية حاضرة بيزنطة ، وهناك توج امبراطورا على بيزنطة وحمل لقب باسيليوس أى الملك أو بمبيل كما كانت العـرب تقول . ثم عاد فشن على الحمدانية حملة جـديدة فى ٩٦٤ ، وكانوا يومئذ فى صراع مع بنى بويه فى بغداد، وهم من الديلم ، فقد استولى معز الدولة امير امراء بني بويه من ناصر الدولة الحمدانى على الموصل ونصيبين ، وفى الصلح رد الموصل لقاء جزية فادحة واحتفظ لنفسـه بنصيبين واذا كان ما سبق من اعمال الروم العسكرية فى شمال الشام يعد، مقدمات غير رسمية لتوسـيع الاستعمار الصليبى البيزنطى ، فان تحركات الروم بعد

هذا التاريخ بقيادة البسيل نيسفور فوكاس تعد فى نظر بعض المؤرخين البداية الرسمية للحروب الصليبية . ذلك ان الباسيل فوكاس اصدر بيانا ملتهبا وجهه الى خليفة بغداد شرح فيه برنامجه العسكرى الصليبى كاملا وهدد فيه بأخذ دمشق « وهى مسكن اسلافى » كما وصفها وعلى نصيبين والموصل وحران والجزيرة وبلاد الديلم وعلى مصر التى « سآخذ خيراتها اسلابا لى » كما جاء فى بيانه . وفى بيانه قال : « الويل لكم ياسكان الصحراء ، عودوا الى وطنكم صنعاء ،وهوبلدكم الاول » وصاح : « عودوا الى الحجاز واتركوا لنا بلاد الاغريق » ثم ترتفع نبرته ارتفاعا فاحشا فيقول : « سأسير الى مكة .. ومن بعدها اتجه الى القدس . سأفتح الشرق والغرب وسأنشر فى كل مكان دين الصليب ! »

هذا « المانيفستو » السليط الصريح الاغراض والخطة يعد فى ذمة أكثر المؤرخين البداية الرسمية للحروب الصليبية . وقد كان ينتظر ان يكون له رد فعل قوى . وبالفعل انتقلت بعض فرق الجيوش الاسلامية من خراسان لحماية الشام، ولكنها لم تفعل شيئا لان الحمدانية كانوا مشغولين بصراعاتهم مع بنى بويه . ولايذكر التاريخ ردا فوريا على بيان فوكاس الا رسالة وضعها فقيه فى طشقند هو الامام القفال يرد بها على دعاوى الباسيليوس فوكاس ، وهى رسالة دينية تقارن بين العقائد ..

وفى ٩٦٤ ـ ٩٦٥ ارسل الباسيليوس فوكاس احد قواده الى قبرص فاخذها من يد العرب. وفى ٩٦٥ استولى فوكاس نفسه من الحمدانية على بقية ولاية قيليقيا واخرج منها سكانها المسلمين بالجملة ووطن فيها

المسيحيين بالجملة • وقد وصلت الجنـــود الاخشيدية متأخرة فلم تستطع أن تفعل شيئا • وفي ٩٦٦ احتـــل فوكاس فيما بين النهرين حتى نسيبين أى حتى منتصف الطريق الى الموصل ، وفى الشام احتـــل حتى منتصف الطريق من حلب الى أنطاكية ..

ثم مات سيف الدولة فى يناير ٩٦٧ بعد حياة مجيدة قضاها فى مقاومة الاستعمار البيزنطى ، وتولى بعـــده ابنه سعد الدولة ٩٦٧ - ٩٩١ ، وبموت سيف الدولة انتهت كل مقاومة محلية حقيقية لتوسع الروم • وانتقل عبء مقاومة الاســـتعمار البيزنطى انتقـــالا كاملا الى كاهل مصر الفاطمية ، وقد اثبتت الحوادث ان مصر الفاطمية كانت شجى فى حلق الروم اولا ثم كانت الســـد المنيع الذى حال دون تدفقهم فى بقية الشام وفى بقيـــة أرجاء العالم العربى • أما الحمدانية فقد كانوا مشغولين بالمحافظة على عروشهم

شن الباسيليوس فوكاس حملة على الشام جديدة فى ٩٦٨ فاحتل حلب وخرب معرة النعمان وكفر طاب وشيزر واحرق حماة وحمص واجلى عنهما سكانهما المســـلمين وخرب وادى نهر العاصى ثم بلغ لبنان فاحتل جبيل وما جاورها وأشاع الدمار فى مشارف طرابلس ، وأعلن والى اللاذقية ولاءه للروم ، ثم عاد الملك فوكاس المنتصر الى القسطنطينية تاركا فى سوريا جيشـــا بقيادة ميخائيل بورتزيس محاصرا لانطاكية

أما سعد الدولة الحمدانى فقد خلعه غلامه أو قائـــده قرغويه ففر سعد الدولة من حلب ونشبت بين قرغويه وسعد الدولة حرب اهلية ، فانتهز الروم هذه الفرصة ودخلوا أنطاكية فى ٩٦٩ وأجلوا عنها بالجملة سكانهـــا

المسلمين ووطنوا فيها المسيحيين بالجملة جمعوهم من كل مناطق سوريا . وكان الاستيلاء على أنطاكية أعلى ذروة بلغها الفتح الصليبى البيزنطى ، وقد ظلت أنطاكيـــة فى يد الروم ١١٥ سنة من ٩٦٩ الى ١٠٨٤ ، أى قبل مولد المعرى بأربع سنوات حتى بعد وفاته بخمس وثلاثين سنة ، حين استردها الترك ١٤ سنة فقط ومن بعدها عادت الى أيدى صليبيى روما

ولكن هذا العام المشئوم على دولة الحمدانية فى الشام، عام ٩٦٩ الذى كان بداية تفككها النهائى كقوة استقلالية تعتز بها العروبة والاسلام كان ايضا عام انتفاضة الاسلام الكبرى التى جددت شباب الاسلام الى حين ومكنت العالم الاسلامى من ان يصد الغزو الصـــليبى البيزنطى عن اسواره صدا نهائيا ، ولولا ان صليبيى الغرب جاءوا بعد صليبيى الشرق لتغير وجه التاريخ . ولولا أن هـــذه الثورة الكبرى نفسها مزقت العالم الاســـلامى لقرنين كاملين (من ٩٦٩ الى ١١٧١) الى سنة بغداد وشيعة مصر لتغير وجه التاريخ

بدأت هـــذه الثـــورة الكبرى عام ٩٦٩ حين جاء الفاطميون من تونس وغزوا مصر وعزلوا منها الاخشيديين ولم يمض عام ٩٧٠ حتى كان الفاطميون فى الشام ونجحوا فى قطع الطريق على تقدم الروم نحـــو القدس . بل ان القائد الفاطمى جعفر بن فـــلاح بلغ انطاكية من ٩٧٠ وحاصرها ، ولكنه لم يوفق فى فتحها . اما فى بيزنطة فقد خلف الامبراطور نيسفور فوكاس الامبراطور يوحنـــا جيمشك (الدمستق) الذى حكم من ٩٦٩ الى ٩٨٥ .وفى عهده سقطت دمشق فى يد مغامر تركى يدعى افتكين كان يخدم العباسيين ثم انتقل لخدمة الفاطميين بعد استيلائهم

على مصر ، فأرسلوه على رأس جيش لفتح دمشق ففتحها . ولكن افتكين استقل بدمشق عن الفاطميين بعد استيلائه عليها . ثم حاول الباسيليوس الملك جميشك «الدمستق» غزو بغداد فى ٩٧٥ ولكنه نهب وسلب أكثر مما غـزا . غير أنه كان قبل ذلك بعام (٩٧٤) قد أكد سيادة الروم على ميافارقين وعلى آمد (دياربكر) وعلى نصيبين وطـرد منها سكانها المسلمين واعترف بسيادته على الموصل أميرها الحمدانى أبو تغلب حفيد ناصر الدولة . وفى ٩٧٥ أيضا فتح جميشك بعلبك ووصل الى دمشق ، وكانت فى يد المغامر التركى افتكين ، فأعلن افتـــــكين الولاء لبيزنطة وللباسليوس ليحتفظ بعرشه . وزحف البـــاسليوس جميشك الى طبرية مستهدفا الوصول الى القدس وأقـام فى عكا وفى بيسان وفى جنسرين حكاما عسكريين وأخذ الجزية من هذه البلاد وزحف الى قيصرية على الشـــاطىء فاستولى عليها وكتب يقول فى خطاب له لملك أرمينيا أشود الثالث ولولا « الافريقيين الملاعين » لما توقفنا فى طريقنا الى القدس . وهو يقصد طبعا بالافريقيين الملاعين جيش مصر الفاطمية . وهكذا كانت آخر نقطة بلغتها بيزنطة جنوبا فى الطريق الى القدس هى بيسان ، وكانت جيــوش مصر الفاطمية تحتل قلاع الشاطىء فمنعت الروم من التقدم . ولكن جميشك اخضع عكا لسيادته فدفعت حاميتها لـــه الجزية . وهاجم بيروت فقاومته حاميتها الفاطمية بشدة ثم استسلمت له أخيرا بقيادة قائدها نصيرى المعــــروف بالناصر . ثم زحف جميشك على صيدا فدفعت له الجزية ، كذلك قاومت الحاميــــة المصرية فى ببلوس بضراوة ثم استسلمت بعد قتال عنيف واستسلم جبل لبنان وبحسب ما كتب جميشك نفسه من انطاكيه أصبحت فينيقيا كلها

وسوريا كلها فى يد بيزنطة ولكن ثابت ان طرابلس وحدها قاومت الى النهاية ولم تسقط فى يد الروم بالرغم من انهم اشاعوا الخراب فى ضواحيها وثابت كذلك ان حملة ٩٧٥ لم تحقق الا جزءا من أهدافها فوقفت أمام السامرة لا تتقدم وظلت طرابلس فى يد الجيش المصرى

وفى بيزنطة مات جميشك عام ٩٧٦ وخلفه الامبراطور باسيل الثانى ، وباسيل هو اسمه وليس لقبه . واكتفى باسيل الثانى بحكم انطاكية حكما مباشرا مع بسط سيادته على حلب وفى ٩٧٦ ايضا استرد سعد الدولة الحمدانى عرش حلب فهاجمه القائد البيزنطى بارداس فوكاس فاعترف بولاية بيزنطة لتحميه من الفاطميين . واستولى جيش مصر الفاطمية على دمشق وهاجم حلب عدة مرات فصده عنها الروم وكان بها سعد الدولة ثم ولده سعيد الدولة الحمدانى (٩٩١ – ١٠٠١) الذى خلفه بعد موته.

وفى ٩٩٤ حاصر الجيش المصرى حلب وحاول البيزنطيون فك الحصار فى ٩٩٥ ولكنهم هزموا على نهر العاصى . فخف باسيل الثانى بنفسه من بلغاريا وتمكن من فك الحصار فى العام ذاته ثم استرد من المصريين شيزر وحمص التى دمرها لمقاومتها ، أما الحامية المصرية فى طرابلس فقد صدت كل هجمات بيزنطة . وبعد عودة باسيل الثانى الى أوربا هاجم المصريون انطاكية وهزموا البيزنطيين وقتلوا « دوق حلب » فعاد باسيل الثانى الى سوريا فى ٩٩٩ واسترد من الفاطميين شيزر ووطن فيها الارمن واحرق حمص ثم بعلبك وعبر لبنان واحتل ساحل فينيقيا . غير أن الجيش المصرى كان قد حرر بيروت وجبيل وعسكر فيهما ، وحاول باسيل الثانى استخلاصهما بالهجمات المتكررة ولكنه باء بالفشل ، وكذلك فشل فى الاستيلاء على طرابلس وقد كان هذا الفشل ايذانا بانتهاء سطوة بيزنطة من الشام . فقد

اصبح واضحا ان سلطانهم قد اقتصر على انطاكيـــــة مع ولاية اسمية على حلب . اما بقية سوريا فقد كانت في يد الفاطميين . وعقدت في ١٠٠١ معاهدة بين باسيل الثانى والحاكم بأمر الله (٩٩٦ ـ ١٢٠٠) تفيـد ذلك . بل ان بيزنطة تركت مصر فى ١٠١٥ تستولى على حلب وتحكمها حتى غزاها صالح بن مرداس زعيم قبيلة بنى كـــلاب ومؤسس الدولة المرادسية فى ١٠٢٣ ، وظلت المرادسية تحكمها حتى ١٠٧٩ آنا بالتعاون مع بيزنطة وآنا فى استقلال عن بيزنطة . باستثناء فترات قصيرة من الحكم المصرى ولكن المهم فى كل هذا أن جيش مصر الفاطمية هو الذى وضـع حدا لسيطرة بيزنطة على الشام ثم على حلب وفى ١٠٢٠ هزم شبل الدولة المرداسى ارجير امبراطور بيزنطة بمعونة المصريين فضمن استقلال المرداسية وقد حاولت مصر ان تغزو حلب أكثر من مرة بين ١٠٣٠ و١٠٥٧ عام موت المعرى لتعزيز هذا الحاجز بين العالم الاسلامى ودولة بيزنطة . وفى عام موت المعرى لم يبق للروم فى دولتهم الاسيوية الا حوافى سوريا ..

فالمعرى اذن قد ولد بعد ان سقطت حلب فى يد الروم عام ٩٦٨ بخمس سنوات وبعد أن خرب الباســيليوس فوكاس بلدته معرة النعمان بخمس سنوات وبعد ان سقطت اللاذقية وانطاكية واكثر بلاد سوريا الشمالية التى تردد عليها أو درس فيها بأربع سنوات أو نحوها . والمعــرى ولد فى عهد (أبى المعالى) سعد الدولة الحمدانى ، الملك المخلوع الذى استعان قرغوية مغتصب عرشه ببيزنطة ليحكم مكانه وحين كان المعرى طفلا فى الثالثة ، أى فى ٩٧٦ استرد سعد الدولة عرشه وقبل ولاية الروم عليــه ليحموه من هجمات مصر الفاطمية . وعاش المعرى صباه وشبابه الباكر تحت حكم سعد الدولة الذى مات حين كان المعــرى فى

الثامنة عشرة من عمره وتحت حكم باسيليوس الثانى ملك بيزنطة الذى حكم حلب وانطاكية واللاذقية وسوريا الشمالية بعامة من خلال سعد الدولة الحمدانى · كذلك عاش المعرى شبابه الناضج ورجولته تحت حكم (أبى الفضائل) سعيد الدولة الحمدانى الذى حكم ايضا باسم باسيليوس الثانى عاهل بيزنطة حتى عام ١٠٠١ (٣٩٢هـ) أى حتى بلغ المعرى الثامنة والعشرين من عمره · وفى زمن سعيد الدولة هذا حاولت مصر الفاطمية زمن الخليفة العزيز بالله سلف الحاكم بأمر الله ـ ان تحرر حلب من سلطان الروم بترتيب مع أبى الحسن المغربى الذى كان من قبل وزيرا لبنى حمدان ثم لجأ الى مصر ولكن تعاون الحمدانية مع بيزنطة حال دون ذلك

وقد رحل المعرى الى بغداد عام ١٠٠٧ (٣٩٨هـ) ، وكان يومئذ فى الرابعة والثلاثين من عمره ثم عاد الى المعرة ١٠٠٩ (٤٠٠هـ) ، فى السادسة والثلاثين الى أن مات عام (١٠٥٧) ونحن نعرف أن لؤلؤ ، وزير سعيد الدولة خلع مولاه الحمدانى من عرش حلب فى هذه الفترة لحساب الفاطميين باتفاق مع الحاكم بأمر الله ، وأعلن اسم الحاكم بأمر الله من منابر حلب · وكانت ثورة لؤلؤة واقامة الحكم الفاطمى فى حلب فى سنة لم يحددها التاريخ ، ولكنها كانت على كل حال تنتمى لهذه الفترة ، أى بين ٩٩٦ (٣٨٦ هـ) عام تولى الحاكم بأمر الله و ١٠١١ (٤٠٢هـ)، وهو عام انتهاء حكم لؤلؤ ، أى بعد عودة المعرى الى الشام بعامين فقط · ولما كنا نعرف أن لؤلؤ نفسه انتقض على الحاكم مستعينا ببيزنطة فى حكم حلب ، ولما كان المعرى مبغضا للفاطميين ودعاواهم .. فالدلائل اذن تشير الى صحة ما اشتبه فيه استاذنا الدكتور طه حسين من أن المعرى رحل الى بغداد لاجئا سياسيا فرارا من الحكم الفاطمى

والاغلب أنه عاد الى الشام بعد انتقاض لؤلؤ على الحاكم بأمر الله ، أى بمجرد زوال سبب لجوئه السياسى بتقلص نفوذ المصريين فى حلب

وفى ١٠١١ (٤٠٢ هـ) أيضا ظهرت المرداسية فى أفق السياسة السورية فدخلوا حلب أولا عام ١٠١١ (٤٠٢هـ) باتفاق مع المصريين وفر لؤلؤ الى الروم ثم حكموا حلب ابتداء من ١٠٢٣ (٤١٤ هـ) ، وفى عهدهم أنشأ المعرى « رسالة الغفران » ردا على رسالة ابن القارح ، ونحن نعلم أن الرسالتين كتبتا فى عهد شبل الدولة المرداسى لان اسمه ورد فى رسالة الغفران وقد حكم شبل الدولة فى حلب بعد مقتل أبيه صالح بن مرداس عام ١٠٢٩ (٤٢٠هـ) ، ولم يكن المرداسية بأفضل من الحمدانية فى ذبذبتهم بين مصر وبيزنطة • وقد سجل التاريخ ان قائدا من قوادهم ، وهو حسان بن مفرج ، بعد ان فتحت مصر الشام عام ١٠٢٩ (٤٢٠هـ) لاستخلاصها من نفوذ بيزنطة ، وكان ذلك فى عهد الخليفة الظاهر الذى تولى بعد الحاكم بأمر الله وهو ذلك الفتح الذى قتل فى معاركه صالح بن مرداس مؤسس المرداسية ، سجل التاريخ أن حسان بن مفرج هذا فر الى بيزنطة ، « فألب الروم ورجع بهم الى بلاد الشام ، وقد لبس خلعة قيصرية ، وخفق على رأسه عام فيه صليب » ، وهو نفس ما فعله (أبو الفضائل) سعيد الدولة الحمدانى حين خلعه لؤلؤ من عرش حلب ونفس ما فعله لؤلؤ حين خلعه وزيره فتح كاتب الحاكم بالاتفاق مع بنى مرداس فان لؤلؤا لما انطلق الى انطاكية وعاش فيها مع الروم اخذ يسعى ويجد فى الجمع لاخضاع حلب لسلطة القسطنطينية وحاصر حلب على رأس جيش صليبى عام ١٠٣٠ (٤٢١هـ) ولكنهم فشلوا لاختلافهم على الملك وقبض الروم على لؤلؤ وبعض أشراف الروم لاتهامهم بالتآمر على ملك بيزنطة

صورتان واضحتان نخرج بهما من هذه الالمامة الموجزة من تاريخ هذه الفترة العصيبة وربما اعانتنا الصورتان على فهم عصره ومعتقداته

اما الصورة الاولى التى استخلصها استاذنا الدكتور طه حسين من أكثر المؤرخين العرب مثل ياقوت الحموى وابن الاثير وأبو الفداء والقفطى والصفدى وأبو المحاسن بن تغرى بردى صاحب « النجوم الزاهرة » ، هى أنه فى أيام (أبى الفضائل) سعيد الدولة الحمدانى وغيره « قرم الفاطميون بمصر الى ملك حلب » اى طمعوا فيه ، وان سعيدالدولة « رأى قوما اغنياء قد مد الله ظلهم وبسط سلطانهم على رقعة واسعة من الارض فلم يغنهم مافى أيديهم ، بل اقبلوا عليه ينغصون عليه حياته فى اقليم ضيق قد ورثه عن أبيه ــ ان صح ان تورث الاقاليم وهو بعد ذلك لم يشهر عليهم حربا ، ولم يدبر لهم كيدا ، وهو على خلاف لرأيهم فى الدين اولئك شيعة غالون وهو شيعة معتدل هواه مع بنى العباس . فلم يكن بد ان يستعين بالروم على خصومه ، معرضا عما بينه وبين الروم من اختلاف فى الدين »

وتصوير الموقف على هذا النحو يظهر آل حمدان ومن بعدهم آل مرداس ومن حكم الشام فى تلك الفترةالعصيبة ممن ثاروا عليهم وعزلوهم فى مظهر الضحايا البريئة لمصر الفاطمية واطماعها التوسعية ، ولكن يخيل الى هذه النظرة نظرة جزئية لا ترى الا مصالح الحمدانية والمرداسية المباشرة فى المحافظة على سلطانهم وارادتهم المستقلة فى امارتهم . ولكن النظرة الشاملة لاستراتيجية العصر ، بعد أن تكشفت نوايا بيزنطة للتوسع الاستعمارى باسم الصليب ، تدل على ان العالم الاسلامى كان بحاجة الى قاعدة سياسية راسخة وقوة عسكرية ضاربة بهما وحدهما يمكن صد الاستعمار البيزنطى عن تخومه واسواره .

وقد كانت اداة الحكم فى بغداد أداة مهلهلة تنخر فيها عوامل الفناء من الداخل والخارج ، ولم يكن فى المنطقة كلها من قاعدة ثابتة ومن قوة ضاربة الا فى مصر الفاطمية بل وفى مصر الاخشيدية من قبلها ومهما قيل عن اطماع العزيز بالله او الحاكم بأمر الله او الظاهر خليفة الحاكم وسائر من عاصروا هذه الفترة وما تلاها من فترات لاتقل عنها خطرا وحروجه ، فقد كان من الطبيعى أن تضطلع مصر الفاطمية بما تيسر لها من قاعدة سياسية مستقرة ومن قوة عسكرية ضاربة بمسئولياتها فى الدفاع عن المنطقة كلها ضد الغزو البيزنطى ، وكان لابد لها ان تعتبر ان حلب واللاذقية وشمال سوريا عامة هى خطوط دفاعها الطبيعية ازاء هذا التوسع البيزنطى ، ولا سيما وان الشام شأنها فى ذلك الوقت شأن العراق كانت مفككة الى امارات او دويلات متخاصمة متناحرة ، ولم تكن بها حكومة مركزية موحدة تستطيع ان تضطلع بهذه المسئولية وتتلقى الصدمات الاولى • وقد سجل التاريخ أن سيف الدولة الحمدانى كان آخر جندى باسل قاتل الروم بضراوة ومع ذلك فقد عاش سيف الدولة ليرى ملكه يتصدع بمعاول البيزنطيين أمام الملك نسيفور فوكاس ، ولا شك أن مصر الفاطمية بتكتيكها او ان شئت بدسائسها ومؤامراتها كانت تؤلب فى الشام الوزير على مولاه والامير على الامير والقائد على القائد وتنتقض على من وثقت فيهم وينتقض عليها من وثقوا فيها ، ولكن الغاية النهائية من كل هذا كانت ضمان سلامة الشام من بطش بيزنطة العسكرى

لقد كان امراء حلب من حمدانية ومرداسية ومن خوارج على هؤلاء وهؤلاء اشبه شىء بقطع شطرنج تحركها بيزنطة آنا وتحركها مصر انا اخر تلك من أجل العالم المسيحى وهذه من اجل العالم الاسلامى ولكنها كانت قطع شطرنج

تحاول أن تكون لها ارادة مستقلة من دون أن تكون لهـا القوة المستقلة التى يمكن أن تحمى هذه الارادة فتـاريخ الشام طوال حياة المعرى (٩٦٣ ـ ١٠٥٧) ـ أو (٣٦٣ ـ ٤٤٩ هـ) التى بلغت أربعة وسبعين عاما لا تخرج عن أن تكون سلسلة من المحاولات التى قام بهاأمراءضعافلتحييد اماراتهم المسلمة وسط هذا الصراع الرهيب الدائم بـين العالم المسيحى والعالم الاسلامى . وقد كانت ذبذبتهـم المستمرة بين معسكر بيزنطة ومعسكر مصر من عوامـل تعويق الدفاع عن المنطقة ان لم تكن من عوامل تخريبها

ولست بهذا اقصد الدفاع عن مصر الفاطمية دفاعا لا تحفظ فيه ، فهناك وجه آخر للموقف لا تكتمل الصورة الا به . وهذا الوجه قوامه ان الفاطمية مذهبا ودولة جاءت الى العالم الاسلامى بطائفة من المقولات الدينية المطلقة التى تتصل بمذهب الشيعة بسبب قوى ولكنها تبلغ به حـد التطرف والغلو ، وتقترب به كثيرا من النظرة المسيحيـة الكاثوليكية للدين . ليس فقط بسبب دعوتها للمهـدى المنتظر وقيام نظامها على الائمة ، ولكن اولا وقبل كل شيء بسبب الوضع الخاص الذى وضعت فيه الفاطمية فاطمة رضى الله عنها كشفيعة للمؤمنين لدخول الجنة ، وهـو الوضع الخاص الذى نسبته أوربا الكاثوليكيةلمريمالعذراء . ويبدو أن هذه الفكرة عن الفاطميين كانت الفكرةالشائعة عنهم فى زمانهم فى العالم المسيحى . فنحن نجد فى المؤرخ جويوم الصورى (١١٣٠ ـ ١١٨٣) أسقف مملكة صور وصاحب « تاريخ الامبراطور هرقل » الذى يؤرخ فيـه للحروب الصليبية وصفا لمعتقدات العالم الاسلامى المعاصر له يقول فيه « فمنهم من يعتنقون شريعة الفرس ويسمون بلغتهم السنة ،ومنهم منيعتنقونشريعةمصرويسمونالسيهه (يقصد الشيعة) وهؤلاء ليسوا بعيدين جدا عن العقيدة

المسيحية الحقيقية كالاخرين . » (عن النص الفرنسى الوارد فى جروسيه) وأسقف صور حين يتحـــدث عن شريعة الفرس ويربطها بالسنة انما يقصد الدولةالعباسية الثانية فى زمانه وقد كان يحكمها القواد الفرس والديلم ولكن مذهبها الرسمى ظل مذهب السنة رغم تعدد فرق الشيعة فيها . وعند هذا المؤرخ الذى يفضل الشيعة على السنة بحكم ديانته وبحكم اعتقاده بقرب الشيعة منها بالقياس الى السنة ان الخلفاء الفاطميين قد أظهروا تسامحا ملحوظــا فى معاملة الاقليات المسيحية التى كانت تعيش فى كنف الدولة الاسلامة ولا يفسر تصرفات الحاكم بأمر الله الشاذة نحوهم الا على أساس أنه نيرون مصرى

ولا يعرف الى اى مدى كان العالم الاسلامى المعـــاصر للفاطميين يقارب بين العقيدة الفاطمية والعقيدة المسيحيـــة الكاثوليكية على غرار ما فعل جويوم أسقف صور . ولكن بغض النظر عن الوضع الخاص الذى اكتسبته فاطمة رضى الله عنها من حيث كونها شفيعة للمؤمنين عند الله بما قرب وضعها من وضع مريم العذراء فى المسيحية الكاثوليكية ، فان العقيدة الفاطمية باصرارها على أن أسرار الدين لاتعلمها الا الباطنية وهى طبقة او فئة محدودة من الائمة والدعاة والاصفياء لهم علم الباطن ، وباصرارها على ان العامة او سواد الناس ليس لهم الا الايمان المطلق بظاهر الدين وبما يلقى اليهم من هذه الطبقة العارفة ، يبدو أنها قد أدخـلت فى الاسلام شيئا قريبا من الكهنوت الكاثوليكى الذى يقفل باب الاجتهاد والتفكير أمام الناس ويقصر المعـرفة بأسرار الدين على أولى الامر

هذه الدعوة الفاطمية الكهنوتية كانت معادية للعـــلم وللعقلانية بل وللاجتهاد فى أبسط معانيه وكانت معادية على خط مستقيم لاهم التقاليد الفكرية التى أرساها المثقفون فى

العالم الاسلامى منذ عهد الازدهار الفكرى والتواصل الثقافى أى منذ عهد المأمون (٧٨٦ - ٤٣٣) أىخلال المائتى سنة السابقتين على انشاء «رسالة الغفران» (١٠٣٢) اذ ينبغى الا ننسى ان المعرى كان معاصرا لابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) وللبيرونى (٩٤٠ - ١٠٢٠) ولمحمد بن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤) ولابى حيان التوحيدى الذى توفى بعد ١٠٠٩ وان المعرى ولد فى الجيل التالى بعد موت الفارابى (٨٧٠ - ٩٥٠) والطبيب الرازى الذى توفى فى ٩٣٠وكان قريب العهد جدا من المؤرخ المسعودى الذى توفى ٩٥٦ ومن عالمى الجغرافيا الاصطخرى (٩٥١)وابن حوقل (٩٧٧) ومن الآثار الذى ترجمها اسحق بن حنين المتوفى فى ٩١٠ كما كانت بين يديه مترجمات حنين بن أسحق (٨٠٩ - ٨٧٣) وبترجمات قسطى بن لوقا المتوفى فى ٨٣٥وكانت بين يديه مؤلفات الكندى المتوفى فى ٨٧٣ فضلا عن شيع المتصوفة الحلوليين من أمثال الحلاج (٨٥٨-٩٢٢) وابن الراوندى وغير هؤلاء طائفة عظيمة من الاعلام والمؤلفات والمترجمات فى علوم الفلسفة والفلك والتاريخ والجغرافيا والرياضة والبلاغة الخ . كانت المكتبة العربية قد زخرت فى عصر الترجمة الكبير اى فى القرنين السابقين على المعرى بعيون التراث اليونانى والفارسى ونتيجة لتفتح الثقافة العربية للثقافتين اليونانية والفارسية ظهرت فى العالم الاسلامى تيارات فكرية متضاربة بعضها عقلانى وبعضها روحانى ولكنها رغم تضاربها كانت تمثل حالةازدهار ثقافى عظيم كان يمكن أن يجدد شباب العرب والاسلام قبل تجدد شباب أوربا المسيحية بنحو خمسة قرون لولا ظهور الترك والتتار فى الافق

فالعالم الاسلامى اذن بعد تفكك دولته العباسية الجامعة اضمحل عسكريا ولكنه حاول أن يجدد شبابه بالعلم والفكر

والثقافة فحلت محل الدولة الجامعة ذات القوى العسكرية الضاربة دويلات ربما لم يكن لها شوكة من بأس السلاح ولكنها كانت مراكز اشعاع ثقافى عقلى وروحى وحلت محل الدولة الجامعة « الدولة المدينة » على غرار ما كان شائعا فى اليونان القديمةوأصبحتبغداد والبصرة والكوفةوحلب وانطاكية الخ اشبه شىء بأثينا وكورينثوطيبة وسيراكيوز الخ فى عالم اليونان وكان مجد هذه البلاد من ازدهارها الثقافى قبل ان يكون من مجدها العسكرى وكانت حلب وانطاكية بالذات مركزين من مراكز الاشعاع الثقافى بحكم اتصالهما المباشر بالحضارة الهلينية التى ذبلت ايما ذبول أيام بيزنطة فى بلاد اليونان الاصلية بسبب تدفق الجحافل السلافية عليها من الشمال ، وانتقل الى اليونان الآسيوية أى الى الاناضول المتاخمة للشام المؤثرة فيها والمتأثرة بها وهذا ما جعل لحلب وانطاكية فى عصر المعرى مركزا خاصا لانهماكانتانقطتى التقاء الحضارتين العربيةوالهلينية بمثل ماكانت مدن العراق فى المقام الاول نقط التقاء الحاضرتين العربية والفارسية

هذا أذن هو المأزق الذى دخل فيه العالم الاسلامى فى المشرق فىزمن المعرى وما قبله بقليل وما بعده بقليل ايام الحروب الصليبية البيزنطية فى القرنين العاشر والحادى عشر . كان عليه ان يختار بين حضارة مدن مثقفة تحترم العلم والفكر والعقل وتضطرب بالرياضة الروحانية أو العقلانية مثل حلب وانطاكية والبصرة وبغداد ، ولكنها ضعيفة ومفككة لا تملك القوة الكافية للدفاع عن نفسها امام الغزاة ، ومن باب أولى لا تملك القوة الكافية للدفاع عن العالم الاسلامى كله، وبينحضارةالفاطميينالتى كانتتملك القوة الكافية لرد خطر بيزنطة والصليبيين ولكنها رغم قوتها كانت معادية للثقافة والفكر والتراث العقلى الانسانى

والتواصل الحضارى بين الشعوب بغض النظر عن علاقاتها السياسية • وفى اعتقادى أن المعرى والمثقفين العرب فى زمانه من أمثال أبى الفرج الزهرجى وعامة من تعلقـــوا ببلاط الحمدانية ومن شاكلهم من مهادنى بيزنطة خرجوا من هذا المأزق باختيار الثقافة على حساب القوة والاستقلال السياسى فقدموا الجزئى على الكلى وقدموا العقل على الحياة

كلمة عن ابن القارح

قبل ان انتقل الى « رسالة الغفران » للمعرى « ٩٧٣ ـ ١٠٥٧ » أو « ٣٦٣ ـ ٤٤٩ هـ » ينبغى أن أثبت هنا دينى الثقيل لاستاذنا الجليل الدكتور طه حسين ، مد الله فى اجله ، فقد كان مفتاحى الاول الى ادب المعرى فى حداثتى وفى شبابى وفى كهولتى بفضل رسائله العديدة عن ابى العلاء وللزميلة الكريمة الدكتورة بنت الشاطىء أستاذة الادب العربى بجامعة عين شمس لتحقيقها « رسالةالغفران» فى افضل نص ظهر الى اليوم ولما انفقت من جهـــد فى دراسته وتحليله . وكذلك ينبغى ان اثبت دينى الثقيل لصديقى الدكتور عبد العزيز الاهوانى ، استاذ الادب الاندلسى بجامعة القاهرة ، فقد وضع بين يدى نصوصا من مكتبته الخاصة بعضها اسبانى وبعضها لاتينى لم يكن يسيرا حصولى عليها ، كما تفضل وأعارنى ترجمته لبعض المخطوطات الاوربية لقصة المعراج . ولست انسى فيمن ادين لهم صديقى الشاعر صلاح عبد الصبور الذى شغف بالمعرى شغفا شديدا فانتفعت بشغفه هذا وبما القاه الى من اراء ..

و « رسالة الغفران » التى أنشاها المعرى نحو عـــام

١٠٣٢ « ٤٢٤ هـ » فيما يظن استنادا على بعض دلائل فى النص ذاته وهو يومئذ فى نحو التاسعة والخمسين من عمره ، او على الاصح املاها هذا الشيخ الضرير المعمر الذى مات عن اربع وثمانين سنة املاء على سكرتيره او على تلامذته ومريديه وهو معتكف فى معرة النعمان ، قد اجمعت اراء العلماء على انها كانت بمثابة رد على خطاب بعث اليه على ابن القارح الذي ولد عام ٩٦٢ « ٣٥١ هـ » ولا يعرف متى توفى ولكنه عمر على الاقل نيفا وسبعين عاما بحسب ما روى هو عن نفسه ، اى امتد به الاجل الى ما بعد ١٠٣٢ « ٤٢٤ هـ » على أقل تقدير

ومن المهم ان نذكر انه فى نحو الوقت الذى انشئت فيه « رسالة الغفران » فى المشرق العربى انشئت فى المغرب العربى ، وفى قرطبة بالاندلس على وجه التحديد، رسالة مشابهة هى رسالة « التوابع والزوابع » لابن شهيد الاندلسى « ٩٩٢ ــ ١٠٣٤ » أو « ٣٨٢ ــ ٤٢٦ هـ » الذى كان معاصرا لابى العلاء المعرى ، ولا يعلم احد حتى الان تاريخ انشاء هذه الرسالة ان كان سابقا « لرسالة الغفران » ام لاحقا لها ام موازيا لها ، وهل بينهما صلة التأثر والتأثير التى تقوم عادة بين الاثار الادبية ام ان ما بينهما من تشابه هو من محض المصادفة رغم انه من المعروف انه كان للمعرى الذائع الصيت فى المشرق رواة وحفظة اذاعوا صيته فى المغرب ايضا ابان حياته • فقال زكى مبارك فى « النثر الفنى فى القرن الرابع » ان ابن شهيد كتب « التوابع والزوابع » عشرين سنة قبل أن ألف المعرى « رسالة الغفران » وقال احمد ضيف فى « بلاغة العرب فى الاندلس » ان ابن شهيد هو الذى قلد المعرى • ورسالة ابن شهيد « التوابع والزوابع » التى يظن انها انشئت عام ١٠٠٩ « ٤٠٠ هـ » لم تصلنا كاملة وانما

وصلت الينا منها فصول عن طريق ابى الحسن بن بسام المتوفى عام ١١٤٧ « ٥٤٣ هـ » فى كتابه « الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة » اى اكثر من مائة عام بعد تدوين « رسالة الغفران » و « رسالة التوابع والزوابع » وقالت الدكتورة بنت الشاطىء انهما عملان مستقلان ..

ورسالة ابن شهيد عبارة عن رسالة موجهة الى ابى بكر ابن حزم يصف فيها ابن شهيد رحلة خيالية له مع أحد الجن فيلتقى بفارس من الجن اسمه زهير بن نمير يعينه على قول الشعر ثم يحمله على جواده الادهم طائرا به فى الجو حتى يبلغ به وادى الجن حيث يلتقى بطائفة منهم هم أصحاب من أحبهم من الشعراء أو ملهموهم كما نقول نحن وهناك يستمع الى ما انشدوا من شعر هؤلاء الشعراء ولكنه يتفوق عليهم بشعره . وتتعدد رحلات ابن شهيد فى مجالس الجن يحاورهم ويناظرهم فيفوز عليهم ، اما ان الهيكل العام متشابه بين « رسالة الغفران» و « رسالة التوابع والزوابع » فهذا ما يبدو واضحا بدرجة كافية رغم احتجاجات الدكتورة بنت الشاطىء التى عالجت كل الاحتمالات لاستبعاد هذا التأثر والتأثير بحق فيما ارى ، ولكنها اغفلت الاحتمال الوحيد الاخير الذى ربما فسر لنا مثل هذا التواتر ، وهو ان يكون لرسالة المعرى ولرسالة ابن شهيد مصدر واحد او مصادر مشتركة أقدم منهما معا

كانت « رسالة الغفران » اذن بمثابة رد على رسالة ابن القارح . والسبب الرسمى لانشاء « رسالة الغفران » هو ان ابن القارح سمع أن المعرى قد استنكر فيه هجاءه لابى القاسم المغربى ، وهو أحد ساسة العصر من ذوى السلطان في دولة الفاطميين بمصر بعد أن كان امدا طويلا من خلصائه ومن المنتفعين بحبائه . وقد خشى ابن القارح

هكذا يقول ـ ان يظن به المعرى خسة الطبع وقلة الوفاء لمن أنعم عليه فأراد أن يبرر موقفه ويبرىء نفسه ‥ والواضح من خطاب ابن القارح ان المعرى لم يكن يعرفه الا بالسماع ٠ أو بلغة ابن القارح : « بلغنى عن مولاى الشيخ ـ ادام الله تأييده ، انه قال وقد ذكرت له : أعرفه خبرا ، هو الذى هجا أبا القاسم على بن الحسين المغربى ٠ فذلك منه ـ أدام الله عزه ـ رائع لى ، خوفا أن يستشر طبعي ، وأن يتصورنى بصورة من يضع الكفر موضع الشكر ٠ » وابن القارح يقول فى مجال دفع هذه التهمة عن نفسه : « وكيف أشكو من قاتنى وعالنى نيفا وسبعين سنة ؟ » فهو يعترف بفضل أبى القاسم المغربى عليه ويستبشع أن يشاع عنه أنه تنكر له وهجاه

هذا هو السبب الرسمى الذى اتفق كل من كتب عن « رسالة الغفران » على أنها جاءت ردا عليه ٠ وهو سبب في اعتقادى سخيف لا يبرر أن يؤلف المعرى رسالة فلسفية للرد عليه ، فلا بد اذن من البحث عن سبب اخر يكون أكثر وجاهة من هذا السبب التافه : اما بدراسة جديدة لخطاب ابن القارح ذاته تكشف فيه عن معان دينية وفلسفيةخبيثة أوحى بها ايحاء ففهمها المعرى ورد عليها فى « رسالة الغفران » وكأنه مطالب بذلك من مثقفي عصره ومن ساسته فى آن واحد ٠ والعجيب الذى لم يتوقف أمامه أحد توقفا كافيا هو وقوف ابن القارح أمام المعرى موقف المسئول أمام سائله والمدافع عن نفسه أمام شيخ ضرير منزو فى معرة النعمان لا يملك حولا ولا قوة ، كل ذلك رغم انعدام الصلة بين الرجلين ، وكأنما المعرى وكيل أعمال أبى القاسم المغربى وكأنما ابن القارح كان يخشى بطش أبى القاسم المغربى وابى العلاء المعرى معا ٠ ولست أعتقد أنه يمكن لنا أن نكتفي بقول استاذنا طه حسين فى « تجديد ذكرى أبى

العلاء » لتفسير هذا الامر : « ولسنا نشك في أن عليا أبا منصور بن القارح الذى كتبت اليه هذه الرسالة ، قد كان شديد الزندقة أو شديد الغفلة • فان أبا العلاء لا يكتب بهذه الرسالة الا وهو واثق منه باحدى الخصلتين • » لان المعرى نفسه كان شائعا عنه في زمانه أنه امام من أئمة الزنادقة ، ولان ابن القارح لو كان على كل هذه الدرجة من الغفلة لما عنى المعرى بأن ينشىء رسالته العظيمة المليئه بخبيىء المعانى ردا عليه • فلا بد اذن من البحث عن سبب اخر أو أسباب أخرى دفعت بالمعرى الى انشاء « رسالة الغفران » وهو في قمة نضجه الادبى والفلسفى وكأنها بمثابة اعلان موقف وسط ذلك البحر المتلاطم من العقائد الدينية والفكرية ومن المؤامرات السياسية التى سادت عصره فمرت على بلده كالاعاصير المقتلعة يتقاذفه الفاطميون فى مصر والروم فى الشمال وبنو بويه فى العراق ، هذا عدا بنى حمدان وبنى مرداس فى الشام ذاتها • والمعروف عن المعرى أنه لم يكن على الاقل فى صدر حياته يعيش فى برج عاجى معزولا عن قضايا عصره الدينية و السياسية • وقد سجل عليه طه حسين بغضه الشديد للشيعة ولا سيما لفرقها الباطنية ، وأوحى بأنه حين لجأ الى بغداد من ١٠٠٧ الى ١٠٠٩ (٣٩٨ – ٤٠٠ هـ) فعل ذلك لا طلبا للعلم والسياحة كما تقول كتب القدماء وانما بوصفه لاجئا سياسيا مناهضا للحكم المصرى الفاطمى فى المعرة حيث « كانت الاسماعيلية الباطنية هى عقيدة العبيديين الرسمية »

وربما كان أقرب الى الصواب أن نقول ان المعرى كان لا يبغض الشيعة جملة وتفصيلا ، ولكن كان يبغض الفاطمية على وجه التحديد لغلوهم فى الباطنية ولعزلهم الدين عن العلم والعقل والاجتهاد • وقد كان بنو حمدان أنفسهم ، الذين ارتبط بهم المعرى ببعض الوشائج ، من الشيعة

المعتدلة أو من العلويين المعتدلين . وللمعري في علي والحسين أبيات جميلة في « سقط الزند » كقوله في قصيدته الرابعة عشرة التي يجيب بها الشريف أبا ابراهيم العلوي وهي منظومة قبل رحلة المعري الى بغداد :

وعلى الدهر من دماء الشهيـ
ـدين علي ونجله شاهدان

فهما في أواخر الليل فجرا
ن وفي أوليـاته شفقان

ثبتا في قميصيه ليجـ
ـيء الحشر مستعديا الى الرحمن

يا ابن مستعرض الصفوف
ببدر ومبيد الجموع في غطفان

أحد الخمسة الذين هم الاغرا
ض في كل منطق والمعاني

والشخوص التي خلقن ضياء
قبل خلق المريخ والميزان

قبل أن تخلق السموات أو
تؤمر أفلاكهن بالدوران

والخمسة الذين وضعهم المعري في موضع النور السابق للخليقة هم محمد وعلي والحسن والحسين وفاطمة . وللمعري في « سقط الزند » قصائد أخرى في أبي ابراهيم العلوي كالقصيدة ٣٣ والقصيدة ٤٢ التي يرثيه بها ولهذا ربما كان أقرب الى الدقة أن نقول أن بغض المعري الاول كان للفاطمية ولتحركات مصر الفاطمية في ربوع الشام

كذلك يذكر عنه أن صالح بن مرداس حين حاصر معرة النعمان بلد المعري عام ١٠٢٦ (٤١٧ هـ) لم يجد أهلها الا هذا الكهل الضرير يتشفعون به الى الغازي ليفرج عن أسراهم وليعفو عن بلدتهم فقبل شفاعته ، وقد كان المعري

يومئذ فى الثالثة والخمسين من عمره • وكل هذا وأكثر منه يوحي بأن المعرى لم يكن يعيش بمنأى عن الحياة السياسية ولا عن التيارات العقائدية فى عصره • أما كيف استطاع المعرى رغم جرأته فى القول شعرا ونثرا أن يحتفظ بحريته بل وبرأسه وسط هذا اللج المتلاطم من الاسلحة والعقائد حول حلب ومعرة النعمان فلا سبيل لمعرفته الا بعد دراسة ارتباطاته السياسية والفكرية وموقفه من ميزان القوى فى منطقته

فماذا قال ابن القارح فى رسالته وماذا قال المعرى فى رسالته ؟ ..

أما ابن القارح فقد بدأ رسالته بتقرير ايمانه بأن العالم حادث وليس قديما كما كان يقول دهريو ذلك الزمان ، يفهم هذا من قوله فى مطلع رسالته : « والحمد لله المبتدى بالنعم ، المنفرد بالقدم ، الذى جل عن شبه المخلوقين وصفات المحدثين »

وكانى بابن القارح يريد أن يغمز المعرى من أول عبارة فى رسالته ويشير ضمنا الى أبيات المعرى المشهورة فى هذا الصدد • ثم هو بعد ذلك يطرى المعرى اطراء عظيما ويعبر عن شوقه لرؤيته وحنينه للقياه فى عبارات بولغ فى تدبيجها بحيث تدفعنا دفعا الى الاشتباه فى أنها تحمل تهكما خفيا بالمعرى ، لانها تقول ان هذا الحنين أقوى من حنين الام لرؤية ولدها لان هذا اللون من الحنين « مما تغيره الايام والليالى » أما حنين ابن القارح لرؤية المعرى فهو أعمق وأرسخ : « لكنه حنين الظمآن الى الماء والخائف الى الامن والسليم (أى الملدوغ) الى السلامة ، والغريق الى النجاة والقلق الى السكون ، بل حنين نفسه النفيسة الى الحمد والمجد ، فانى رأيت نزاعها اليهما نزاع الاستقصات الى عناصرها والاركان الى جواهرها » • وكانى بابن القارح

اذ يزعم أنه يطلب الامن والسلامة والنجاة والسكون عند المعرى انما يقصد انه بما نسب اليه من شطط فى العقيدة وزيغ في الايمان انما يصيب من يلجأ اليه باضداد هذه الاشياء • وهو يتهكم بالمعرى ثانية حين يستخدم في خطابه لغة الفلاسفة والمتفلسفين التى كانت شائعة يومئذ بين المثقفين العرب كالاستقصات والعناصر والاركان والجواهر ، بل يكاد تعريضه الخفى بالمعرى أن يتهمه اتهاما مكشوفا بالشهوة الى الشهرة شهوة لا تقاوم كشهوة عناصر الطبيعة الى جواهرها فاذا نحن فهمنا كلام ابن القارح على هذا الوجه لم يكن هناك مناص من أن نعد رسالته الى المعرى ذما بما يشبه المدح وكلاما ظاهره معسول وباطنه مسموم

أنظر اليه وهو يحدث المعرى عن رحلته الى حلب التى كان يأمل أن يجدفيها خيرا فاذا هو يصاب فيها «بالدرخمين وام حبوكرى والفتكرين ، بل رميت بآبدة الاباد والداهية النآد » باختصار منى فيها بكل الدواهى فما هذه الكلمات العربية كلها الا مترادفات تعنى الدواهى • وكان يرجو من حلب نفعا « فحصلت من الرباح على الرياح » أى خرج منها بقبض الريح وكانت اول خيبة أمل منى بها ابن القارح هى ضياع رسالة كان قد حمله اياها الى المعرى أبو الفرج الزهرجى كاتب نصر الدولة والى ميافارقين وديار بكر الذى حكم زهاء خمسين سنة من ١٠١٠ الى ١٠٦١ (٤٠١ ـ ٤٥٣ هـ) وكان صديقا للادباءوالشعراء، وهو فيما يبدو كان صديقا للمعرى • وهنا يغمز ابن القارح المعرى غمزة قوية اذ يقول : « لقيت أبا الفرج الزهرجى بآمد ومعه خزانة كتبه فعرضها على فقلت :كتبك هذه يهودية ، قد برئت من الشريعة الحنيفية • فاظهر من ذلك أعظاما وانكارا » • وكأنى بابن القارح يريد أن

يقول للمعرى : صديقك هذا الزهرجى الذى تحجون اليه دخلت مكتبته فوجدتها ملاى بالاسرائيليات ، أى بالتفاسير الدينية المدسوسة على الدين وما شاكلها من كتب موضوعة أو مترجمة نشط اليهود منذ العصر العباسى الى انشائهـا لبلبلة الدين الاسلامى على المسلمين

ثم ماذا بعد هذا ؟ نجد ابن القارح يتجود على المعـرى بكتالوج طويل من الزنادقة والملحدين ويروى عليه قصصهم بادئا بالمتنبى الذى كان أثيرا عند المعرى الى حد أن المعرى لقى عنتا عظيما من الحكام لاعجابه به ، فابن القارح آنـا يذكر المعرى بما كان من ادعاء المتنبى النبوءة وكيف سجن وجلد بسبب ذلك فى بغداد فى عهد الوزير ابن الجراح . وهو آنا يهاجم شعر المتنبى لان الصور الشـعرية التى يستخدمها منافية للدين ، أو بلغة ابن القارح : « ولا يجب أن يشكو عاقلا ناطقا الى غير عاقل ولا ناطق ، اذ الزمـان حركات الفلك الا أن يكون ممن يعتقد أن الافلاك تعقـل وتعلم وتفهم ، وتدرى بمواقع أفعالها بقصـود وارادات ، ويحمله هذا الاعتقاد على أن يقرب لها القرابين ويدخـن الدخن ، فيكون مناقضا لقوله :

فتبا لدين عبيـد النجو
م ومن يدعى انهـا تعقل

وابن القارح فى هذا لا يشير الى الصابئة من عبدة النجوم بقدر ما يشير الى الافلاطونية الحديثة وما خرج عنهـا من مدارس انتقلت الى المتفلسفين العرب عن طريق حـركة الترجمة المشهورة فى العصر العباسى . وابن القارح لايطعن فى ميله الى الزندقة أو كما يقول « وهذا غـير قادح فى طلاوة شعره ورونق ديباجته ولكنى أغتاظ على الزنادقـة والملحدين الذين يتلاعبون بالدين ويرمون ادخال الشـبه والشكوك على المسلمين ، ويستعذبون القدح فى نبـوة

النبيين صلوات الله عليهم أجمعين».

فاذا ما فرغ ابن القارح من المتنبى انتقل الى بشار بن برد وروى كيف أن المهدى الخليفة العباسى أعدمه بسبب الزندقة ثم أعد صالح بن عبد القدوس وكيف حطم المهدى فتنة رجل ادعى الالوهية فى بخارى ودمر دياره وديار قومه وأعدمهم جميعا بالسم · ثم يروى قصة متأله آخر فى اليمن اسمه الصناديقى لقى مصرعه كذلك بمضغ مسموم· وبعد الصناديقى يعرج ابن القارح على الوليد بن يزيد الاموى الذى « أقام فى الملك سنة وشهرين وأياما » وكان زنديقا عظيما وسكيرا مروعا ثم يتحدث ابن القارح عن أبى عيسى بن الرشيد الذى كان يدعو ضد الصوم فى شعره فصرعه الله · ثم ينتقل الى الجنابى الذى كان يفتك بألوف الحجاج ثم ينتقل الى الحلاج ومذهبه فى الحلول ويصوره فى صورة الجاهل الدجال مثير القلاقل والانقلابات مدعى الالوهية ويروى عنه نوادر اشبه بنوادر الحواة ويصف مصرعه عام ٩٢١ (٣٠٩ هـ) ومثله الشلمغانى شبيه الحلاج مدعى الالوهية والحلول ،«وكان يتعاطى الكيمياء » ، ومعهما يذكر ابن الراوندى ، ومادعا اليه من قدم العالم وغير ذلك من أقوال الزندقة « لان علمه كان اكثر من عقله » . ثم يحكى حكاية ابو عثمان الناجم الذى شط عن الدين لانه اراد الانتحار ثم ندم وتاب ثم يروى كيف ان أبا تمام ترك الصلاة ثم يعرج على بعض عتاة الفجار مثل المازيار وبابك ، ثم يمجد جهاد المسلمين أيام الرسول ثم يعرج على ذم الدنيا وينتقل من ذلك الى ذم الخمر ثم يتحدث ويذكر اسماء كبار العصاة من فاذوه الى فرعون . واخيرا يستقر ابن القارح على ذكر حكايته الاخيرة وهى قصته مع الوزير الاديب ، والسياسى الداعية

أبى القاسم المغربى صاحب المعرى فيشرح ابن القـــارح للمعري أسباب انتقاضه عليه ..

يقول ابن القـــارح أنه درس على ابن خالويه وعلى أبى الحسن المغربى (وهو والد أبى القاسم) فلما مات ابن خالويه سافر الى بغداد ليدرس على أبى على الفـارسى والسيرافى والرمانى والمرزبانى والكتانى وتعلم علم الحديث. ثم سافر الى مصر وحدب عليه ابو الحسن حدبا شديدا وكان ابنه أبو القاسم المغربى رجلا مغامرا شديد الطموح يبغى دائما للرياسة ويشتغل بدسائس السياسة. وخشى الاب على نفسه من تدبيرات ابنه فاستخدم ابن القـارح ليتجسس عليه . أو بلغة ابن القارح : « فقـــال لى : انى أخاف همة أبى القاسم أن تنزو به الى أن يوردنا وردا لاصدر عنه ، وان كانت الانفـــاس مما تحفـــظ وتكتب فاكتبها واحفظها وطالعنى بها . » وكان ابو القاسم المغربى يثق فى ابن القارح فأطلعه على اطماعه قائلا : « اريد ان تصار الى أبوابنا الكتائب والمواكب والمقانب ولا أرضى بأن يجرى علينا كالولدان والنسوان ! » ونقل ابن القارح أفكار الابن الى أبيه فلما علم أبو القاسم المغربى بذلك حـــدثت بينه وبين ابن القارح قطيعة

ورأى ابن القارح الحاكم بأمر الله شرها الى الدمـــاء يعمل التقتيل فى خصومه ، او فيمن يتوهم انهم خصومه، وكان « كلما قتل رئيسا انفذ رأسه اليه وقال : هـــذا عدوى وعدوك يا حسين » . والمخاطب هنا هو الحســـين ابن جوهر الصقلى قائد قواد مصر تحت الدولة الفاطمية وكان على صلة طيبة بابن القارح . وخاف ابن القـــارح على نفسه فتظاهر بالرغبة فى الحج ليخـــرج من مصر ، واستأذن فى الحج وسافر الى مكة عام ١٠٠٦ (٣٩٧هـ) واختفى خمس سنوات ثم عاد الى مصر فوجد أن الحـــاكم

بأمر الله قد قتل قائد جيشه الحسين بن جوهر الصقلى وقتل معه قاضى القضاة عام ١٠١٠ (٤٠١هـ) فهرب من مصر الى الشام ، أولا الى طرابلس ثم الى أنطاكية ثم الى ملطية حيث أقام في بلاط « المايسطرية» خولة بنت سعد الدولة ، وهى حفيدة سيف الدولة الحمدانى حتى قتل الحاكم بأمر الله سنة ١٠٢٠ (٤١١هـ) فلحق بأبى القاسم المغربى فى ميافارقين بناء على طلب الوزير ، وكان حانقا عليه يريد الفتك به ولكنه لا يستطيع . فنحن نعلم ان الوزير أبا القاسم المغربى نفسه كان فى محنة وكان لاجئا سياسيا فى ميافارتين بعد ان قتل الحاكم بأمر الله اياه أبا الحسن المغربى ففر ولده ابو القاسم المغربى من مصر الى الشام واخذ يؤلب الناس على الحاكم بأمر الله. وهنا يرسم ابن القارح للمعرى صورة شخصية لابى القاسم المغربى غاية فى السوء فيتهمه بأنه مجنون وبأنه حقود وبأنه ملول وبأنه عات وبأنه متغطرس ويضيف الى هذا كله تهمة الكفر : « وبغضى له ــ شهد الله ــ حيا وميتا اوجبه أخذه محاريب الكعبة ، الذهب والفضة وضربها دنانير ودراهم وسماها الكعبية » . وأخيرا يختم ابن القارح رسالته بالاعتذار عن شبابه الطائش فى القاهرة وبشكوى شيخوخته فقد جاوز السبعين التى أوهنته جسدا وعقلا، واقترب من القبر فغدا لا يفكر الا فى الاخرة ويخشى عذاب النار متمثلا بقول الزاهد أبى بكر الشبلى : « انما فكرى فى ان الحيوان كله لا يدخل النار الا بعد الموت ، ونحن ندخلها أحياء . » وهو لهذا يستغفر ربه عما تقدم من ذنوبه ويعتذر عن الكآبة التى حلت عليه بعد أن فرغ من كتابة رسالته فيقول « ما فرغت من السوداء حتى ثارت بى السوداء » ..

هذه خلاصة رسالة ابن القارح الى المعرى ومنها ترى انه لم يكن كما ذهب استاذنا الدكتور طه حسين فى أولى رسائله عن ابى العلاء ، مغفلا من طراز عظيم بل كان رجلا شديد الذكاء قوى البنيان والاغلب انه لم يكن يخلو من لؤم اللئام . وهو باعترافه كان يتجسس على صديقه الوزير المغربى لحساب ابيه أبى الحسن المغربى

ولعل من النافع ان نذكر ان أبا الحسن المغربى نفسه لم يكن يختلف كثيراً عن ولده أبى القاسم فى المغامرة وحبك المؤامرات . فقد بدأ أبو الحسن المغربى حياته صدرا فى بلاط سيف الدولة الحمدانى الذى جعل من حلب حاضرة هامة من حواضر العالم الاسلامى وكعبة للعلوم والآداب وكان شديد البأس فى قتال الروم حتى مات عام ٩٦٦ (٣٥٦ هـ) فلما خلفه ابنه سعدالدولة اقام ابو الحسن المغربى أيضا فى بلاطه حتى مات عام ٩٩١ (٣٨١ هـ) .

وكان عهده عهد حروب أهلية . فلما خلفه ابنه أبو الفضائل سعيد الدولة رحل أبو الحسن المغربى الى مصر وأقام فى بلاط العزيز الخليفة الفاطمى ، وهو ابو الحاكم بأمر الله ، وحرض العزيز على غزو دولة حلب والاستيلاء عليها فاستنجد ابو الفضائل سعيدالدولة بالروم وظلت الحرب سجالا ينتصر فيها المصريون مرة وينتصر الروم مرة ويقيمون دولة أبى الفضائل سعيد الدولة الحمدانى فى حلب حتى مات الخليفة العزيز عام ٩٩٦ (٣٨٦هـ) ، وخلفه الحاكم بأمر الله وفى عهده وباتفاقه عزل لؤلؤ غلام ابى الفضائل سيده وحكمت مصر دولة حلب من خلاله وأعلن اسم الحاكم من منابرها ،وظل لؤلؤ يحكم حلب حتى عام ١٠١١ (٤٢٠هـ) وهذه هى الفترة التى هاجر فيها المعرى الى بغداد ربما فرارا من سلطان الفاطميين . أما لؤلؤ فقد انتقض فى أواخر حكمه على

الحاكم بأمر الله واستعان بالروم على المصريين اما دولة بني حمدان فقد قضت عليها نهائيا دسائس الحاكم بأمر الله ثم دسائس اخته ست الملك من بعده .. واما لؤلؤ فقد فر ليحتمي بالروم

وفي ١٠٢٣ (٤١٤هـ) دخل صالح بن مرداس حلب وأقام فيها الدولة المرداسية وحكمها حتى ١٠٢٩ (٤٢٠ هـ) وهو عام قتله في معركة مع الجيش المصري في عهد الظاهر خليفة الحاكم بأمر الله وخلفه في حكم حلب ابنه شبل الدولة واستعان لؤلؤ للمرة الثانية بالروم على المصريين عام ١٠٣٠ (٤٢١هـ) ، وكذلك استعان بهم حسان قائد بني مرداس على المصريين عام ١٠٣٠ (٤٢٢هـ) ودخل حلب من جيش الروم الذي وطد لحكم شبل الدولة

هذا هو الجو السياسي المعقد الذي عاش فيه المعري حتى اعتكف في معرة النعمان حول ١٠١٠ (٤٠١هـ) ومنذ ان اعتكف فيها حتى مات عام ١٠٥٧ (٤٤٩هـ) فحلب وهي على بعد أميال قليلة من المعرة يتبادلها أولا الحمدانيون ـ تظاهرهم عسكر الروم ـ والفاطميون ثم يتبادلها ثانيا المرادسيون ـ تظاهرهم عسكر الروم ـ والفاطميون .ولم تكن انطاكية احسن حالا فقد ظلت مائة وعشرين سنة كاملة في يد الروم من ٩٦٤ (٣٥٣هـ) الى ١٠٨٤(٤٧٧هـ)، ولد وهي لهم ومات وهي لهم وتعلم بها وهو صبي وهي لهم فقد كان يختلف الى مكتبتها مع ابن منقذ فيما روت كتب القدماء وكانت فيها يومئذ حضارة زاهرة حسب ماروى ياقوت الحموي . وقد كان حكم اللاذقية حكم أنطاكية . كانت في يد الروم في زمن المعري ، وقد تعلم المعري في اللاذقية كما تعلم في انطاكية ففيما روى القفطي والذهبي انه نزل بدير فيها « ولقي بهذا الدير راهبا قد درس الفلسفة وعلوم الاوائل » بلغة

طه حسين او باختصار اخذ عنه اليونانيات فما علوم الاوائل هذه التي كانت تقرأ في الاديرة تحت حكم الروم الا آداب اليونان وفلسفتهم في لغتها الاصلية . والحق انه لا يعرف شيء عن تعليمه الرسمي حتى سن العشرين وهي سن التكوين الا انه تعلم في حلب ثم في انطاكية ثم في اللاذقية ثم في طرابلس . ومثل هذا الغموض الذي احاط بتكوينه العقلي حتى سن العشرين يحيط أيضا بحياته كلها فيها بين العشرين والخامسة والثلاثين حين نجده يقيم في المعرة ـ خمس عشرة سنة ـ بين ٩٩٣ (٣٨٣هـ) و ١٠٠٧ (٣٩٨هـ) وبها عاش تحت الحمدانية والفاطمية والمرداسية والروم . حتى سافر او لجأ الى بغداد فترة سنتين ١٠٠٧ و١٠٠٩ حيث نعلم انه كان يحضر مجامع الشريف الرضي والاسفر ايينى وأبى القاسم التنوخي القاضي وغيرهم او يحضر محاضراتهم كما نقول نحن اليوم

فان كانت لرحلة المعرى الى بغداد صلة بفتنة لؤلؤ على ابى الفضائل سعيد الدولة الحمداني لحساب الفاطميين واعلان اسم الحاكم بأمر الله من منابر حلب ، فان هذا يلقى ضوءا على موقفه من الحكم الفاطمي ويفسر ما يقال عنه من بغضه للفاطمية ومختلف أنواع الباطنية . فاذا ركزنا على الفترة التى انشئت فيها « رسالة الغفران » وهي نحو ١٠٣٢ (٤٢٤ هـ) ، فماذا نجد ؟ نجد ان موضوع رسالة ابن القارح وهو الوزير ابو القاسم المغربى كان لسنوات لاجئا سياسيا في ميافارقين عند الحمدانيين عند نصر الدولة الحمداني قبل مقتل الحاكم بأمر الله عام ١٠٢٠ (٤١١ هـ) وكاتبه الزهرجي صديق المعرى الذى اتهمه ابن القارح بأنه كانت له مكتبة

كلها من الاسرائيليات أى تجديف في تجديف • كذلك كان ابن القارح نفسه لاجئا بملطيـــــة فى بلاط المايسطرية (الاستاذة) خولة بنت سعد الدولة الحمدانى ، ثم لحـق بصديقه اللدود الوزير المغربى فى ميافارقين • فليس يبعد اذن أن يكون الوزير المغامر أبو القاسم المغربى قد لجأ الى الحمدانية بما عرف عنهم من صلات طيبة بالروم وتعاون عسكرى معهم ليكيد لنحكم الفاطمى المصرى بعد نكبة أبيه ونكبته فى مصر • وليس يبعد أيضا أن المعرى كان مناصرا للحمدانية والروم على الاقل بحكم نفوره من الفاطميــــة وبحكم ثقافته الفلسفية اليونانية والعقلانية العربية كمـا ترجح ذلك رحلته البغدادية السابقة عند اعلان الفاطمية فى حلب . فاذا كان الامر كذلك فليس يبعد أن سر الجفوة المتبادلة والتخوف المتبادل بين الوزير أبى القاسم المغربى وابن القارح اللذين نجدهما أوضح ما يكون فى رســـالة ابن القارح كان مصدره أن الوزير المغربى كان يعتقد أن ابن القارح عميل فاطمى وربما جاسوس فاطمى مدسوس على بلاط الحمدانية سواء عند خولة المايسطرية او عند نصر الدولة فى ميافارقين او فى انطاكية التى اقام بها او فى حلب التى زارها وشهر بها فى رسالته الى المعرى ، وتاريخ ابن القارح فى التحسس على الوزير المغربى ثابت باعترافه فى رسالته حتى ايام اقامتهما معا فى مصر • ويكون المعنى الحقيقى لرسالة ابن القارح الى المعرى هى بمثابة قفاز فاطمى القى به ابن القارح فى وجه المعرى صديق محــور آل حمدان الروم وثقافتهم النابية عن الاسلام وصديق المثقفين بالاسرائيليات كأبى الفرج الزهرجى سكرتير نصر الدولة المزيفين للدين الحنيف من وجهة نظر الفاطميين وبهذا تكون رسالة ابن القارح الى المعرى بمثابة استدراج له الى معركة عقـــائدية هى فى حقيقتها الوجـــــه

الثقافى لتلك الحرب التى دارت رحـــاها بين الروم والفاطميين فى ربوع الشام وكان بنو حمدان بعد موت سيف الدولة وزوال المجد ومعهم بنو مرداس فيها كمـا أوضحنا بمثابة قطع الشطرنج ..

هذا هو تقديرى لهذه الصورة المعقدة التى توشك ان تكون غامضة أشد الغموض ولعل هذا التقدير يفسر لنا اهتمام المعرى بأن يرد على رسالة ابن القارح « برسـالة الغفران » رغم التفاوت العظيم بينهما «فرسالة الغفران» لن تفهم على وجهها الصحيح الا اذا درست على انهـا رسالة أيديولوجية فى حرب العقائد الدينية والسياسية التى دارت رحاها فى زمن المعرى زمن التحام العـالمين المسيحى والاسلامى

رسـالة الغفران

اذا أردنا تلخيص « رسـالة الغفـران » للمعـرى فى عبارات موجزة لم نجد أفضل من تلخيص أسـتاذنا طه حسين لها فى « تجديد ذكرى أبى العلاء »

فقد رأينا كيف ان ابن القارح ختم رسالته الى المعرى بذكر خوفه من الجحيم وناره الاكلة ، فتصور المعرى فى « رسالة الغفران » رحلة ابن القارح فى الدار الاخرى الى الجنة . قال :

« قام هذا الرجل من قبره يوم البعث فلبث فى الموقف أمدا طويلا ، حتى أعياه الحر والظمأ ، وهو واثق بدخول الجنة لان معه صك التوبة ، فلم يفهم معنى هذا الانتظار، ففكر فى أن يخدع سدنة الجنة بما كان يخدع به الناس فى الدنيا من الشـعر ، فأنشأ القصـائد الطوال فى مدح رضوان ، وأنشده أياها فلم يفهم منها شيئا لانه لا يتكلم العربية . فلما علم على بن القارح بأمره سأله : ما بالك لم تحفل بقصائدى وقد كان يحفل بها ملوك الدنيا ؟ ثم كانت بينهما محاورة آيست على ابن القارح من رضوان ، فانتقل الى سادن نبهه الى أن يتشفع بالنبى فى أمره . فاجتهد حتى وصل الى حمزة . فتوسل به الى على . وانه

لقى طريقه الى على وقد كلفه أن يظهر كتاب توبته، والله لفى ذلك واذا شيخه ابو على الفارسى قد ضاق ذرعا بطائفة من شعراء الباديه يخاصمونه فيما تأول من كلامهم . فنسى التوبة وأمر الشفاعة ، وذهب الى أستاذه فذاد عنه أولئك الاعراب ثم رجع الى على وقد فقد كتاب التوبة . ولكن عليا قد هون عليه الامر وطلب منه شاهدا على التوبة فاستشهد بقاض من قضاة حلب وقبل على شهادته . ولكن سقاه من الحوض وأيأسه من من دخول الجنة قبل الحساب ، فلم ير الا الحيلة . فذهب الى شباب بنى هاشم فقال : لقد ألفت فى الدنيا كتبا كثيرة وكنت ابدؤها واختمها بالصلاة على النبى وعترته ، فحقت لى بذلك عليكم حرمة ولى اليكم حاجة . قالوا : وما هى ؟ قال : اذا خرجت أمكم الزهراء من الجنة لزيارة أبيها ، فتوسلوا بها اليه فى أن يأذن بدخولى الجنة فقبلوا منه . ثم نادى مناد : يا أهل الموقف غضوا أبصاركم حتى تمر الزهراء ومرت فاطمة فسلمت على أبنائها ، ورغبوا اليها فى امر صاحبهم فقبلت . وأشارت اليه أن يتبعها فتعلق بركاب ابراهيم ابن النبى ، ولم تكن خيلهم تمشى على الارض لكثرة الزحام ، انما كانت تطير فى الهواء

« وصلوا الى النبى وشفع فيه ، وعاد مع فاطمة واخوتها ليدخل الجنة ، فلما بلغ الصراط لم يستطع أن يتقدم عليه قيد اصبع ، فبعثت اليه الزهراء جارية تعينه . فاخذت الجارية كلما أسندته من ناحية مال من الاخرى ، حتى أعياه ذلك واعياها ، فقال لها : يا هذه ان أردت سلامتى فاستعملى معى قول القائل فى الدار العاجلة:

ست ان اعياك أمرى فاحملينى زقفونه

« فقالت وما زقفونة ؟ قال : ان يطرح الانسان يديه

على كتفي الآخر ، ويمسك بيديه ، ويحمله وبطنه الى ظهره ، أما سمعت قول الجحجلول من أهل كفر طاب :

صلحت حالتى الى الخلف حتى
صرت أمشى الى الوراء زقفونة

« فقالت ما سمعت بزقفونة ولا الجحجلول ولا كفر طاب الا الساعة . فتحمله وتجوز كالبرق الخاطف . فلما جاز قالت الزهراء عليها السلام : قد وهبنا لك هذه الجارية فخذها كى تخدمك فى الجنان . فلما صار الى باب الجنة قال له رضوان . هل معك جواز ؟ فقال : لا . فقال : لا سبيل للدخول الا به . فعى بالامر . وعلى باب الجنة من داخل شجرة صفصاف ، فقال : اعطنى ورقة من هذه الصفصافة حتى ارجع الى الموقف فآخذ عليها جوازا . فقال : لا أخرج شيئا من الجنة الا باذن من العلى الأعلى « تقدس وتبارك » . فلما ضجر بالنازلة قال: انا لله وانا اليه راجعون . لو أن للامير ابن المرجى خازنا مثلك لما وصلت انا ولا غيرى الى درهم من خزانته . والتفت ابراهيم « صلى الله عليه » فرآه وقد تخلف عنه فجذبه جذبة حصله بها فى الجنة

« فهذه الصور التى تمثلها هذه القصة تبين مقدار ما تشتمل عليه رسالة الغفران من السخرية الخفية وأمثالها كثير » (انتهى ص ٢٣٦ — ٢٣٨)

هذا هو الهيكل العام « لرسالة الغفران » ومنه نستطيع أن نلمس تهكمه بابن القارح فهو أولا يعرض به كشخص وصولى يسخر الشعر فى أسوأ غرض يمكن ان يستخدم فيه الشعر وهو المدح لبلوغ النعيم فى الدنيا والاخرة . وقد بلغ من وصوليته انه اراد أن يستخدم أساليب الدنيا فى الاخرة

وهو يسخر أيضا منه لالتماسه دخول الجنة لابنساه

على صالح الاعمال ، ولكن بالوساطة لمجرد مدحه اهل البيت . وهو يسخر من دنيويته لانه يحمل الدنيا معه الى الاخرة فنما ان يرى الشعراء والرواة والنحاة يتجادلون فى امور الشعر حتى ينسى أمر دخوله الجنة وينشغل بحديث الشعر عن خلاص نفسه

والمعرى يعرف ان ابن القارح كان سكيرا من طراز عظيم رغم ما ساقه فى رسالته من التنديد بالخمر ومن زينوها من الشعراء ولذا فهو يدعوه فى «رسالة الغفران» الى التوبة منها . وابن القارح باعترافه كان فاسقا عظيم الاقبال على الشهوات فهو يعلن فى رسالته انه اضاع نصف عمره فى الفسق ، وهو يقول انه درس ببغداد كأحسن ما يكون الدرس ثم « مضيت الى مصر فأمرجت نفسى فى الاغراض البهيمية والاغراض الموثمية ، واردت بزعمى وخديعة الطبع المليم أن أذيقها حلاوة العيش ، كما صبرت فى طلب العلم والادب ونسيت أن العلم غذاء النفس الشريفة وصقيل الافهام اللطيفة » وهذا ما يسميه ابن القارح « وحفظت نصف عمرى ونسيت نصفه » .
ولذا نجد أن المعرى يتهكم من توبته ، فلا يجعلها توبة من توبة القلب التى تلازمه فتدخل صاحبها الجنة ولكن مجرد حبر على ورق كجواز سفر يمكن أن يضيع ، فهى توبة مثبتة فى ورقة يسميها المعرى « صك التوبة » ، أخذه ابن القارح من قاضى حلب .. وكانا بالمعرى يحدثنا عن شىء شبيه جدا بما كان معروفا فى العالم المسيحى بصكوك الغفران أو « البولاى » التى كان يمهرها البابوات فى زمانه للخطاة ويبيعونهم بها قصورا ومربعات فى الجنة.
وفى هذا المشهد الرائع يبلغ المعرى قمة فنه فى « رسالة الغفران » ، انشغل ابن القارح مع طائفة من الشعراء فى حوارهم السخيف :

« وشغلت بخطابهم والنظـر فى حويرهم فسقط منى الكتاب الذى فيه ذكر التوبة فرجعت أطلبه فما وجدته فاظهرت الوله والجزع . فقال أمير المؤمنين : لا عليك . ألك شاهد بالتوبة ؟ فقلت : نعم : قاضى حلب وعدولها ، فقال : بمن يعرف ذلك الرجل ؟ فأقول : بعبد المنعم بن عبد الكريم قاضى حلب ـ حرسها الله ـ فى أيام شبل الدولة . فأقام هاتفا يهتف فى الموقف يا عبد المنعم بن عبد الكريم ، قاضى حلب فى زمان شبل الدولة ، هل معك علم من توبة على بن منصور بن طالب الحلبى الاديب ؟ فلم يجبه أحد . فأخذنى الهلع والقل ـ اى الرعدة ـ ثم هتف الثانية فلم يجبه مجيب . فليح بى عند ذلك ـ اى صرعت الى الارض ـ ثم نادى الثالثة فاجابه قائل بقول : نعم قد شهدت توبة على بن منصور ، وذلك بأخرة من الوقت ، وحضرت قبابه عندى جماعة من العدول ، وأنا يومئـذ قاضى حلب وأعمالها والله المستعان ، فعندها نهضت وقد أخذت الرمق ، فذكرت لامير المؤمنين ـ عليه السلام ـ ما التمس ، فأعرض عنى وقال انك لتروم حددا ممتنعا ولك أسوة بولد أبيك آدم »

وهكذا رفض أمير المؤمنين على بن أبى طالب توبة ابن القارح ، وهى توبة لا دليل عليها الا صك الغفران قائلا : هذا ممنوع ، فالحدد هو الممنوع

ولنبدأ بما ورد فى « رسالة الغفران » من معان دينية وفلسفية فنقف أمامه قليلا فالمعرى يبدأ رسالته باعلان عقيدته فى الجبر حيث يقول : « قد علم الجبر الذى نسب اليه جبرئيل ، وهو فى كل الخيرات سبيل ، ان فى مسكنى حماطة ما كانت قط افانيه ، ولا الذاكرة بها غانية تثمر مودة مولاى الشيخ الجليل .. ما لو حملته العالية من الشجر لدنت الى الارض غصونها ، واذيل من تلك

الثمرة مصونها . » أو بلغة أسهل وأيسر ، يقول المعرى ان فى داره شجرة ـ يابسة هى الحماطة ـ وهذه الشجرة لم تكن فى أى وقت من الاوقات شجرة مورقة ، بل كانت دائما منذ أن نبتت شجرة يابسة وهذه لا تعطى ثمارا وانما تصلح فقط لحطب الوقود ومثل هذه الشجرة اليابسة العقيمة فى داره شجرة يابسة عقيمة فى جسده ومكانها فى قلبه لان مسكنه أيضا هو جسده ، ولان الحماطة ايضا هى حبة القلب . وهذه الشجرة تثمر اثقل الثمار من الحب لابن القارح . باختصار يريد المعرى أن يقول لابن القارح أن ما يحمله قلبى من البغض لك لا مثيل له الا ما تحمله شجرة يابسة كشجرة الصبار نمت فى أجرد مفازة من أشواك وثمار مسمومة . وهو يعبر عن هذا فى لغة مهذبة ملتوية فتحسبه من ظاهرها يقول ان شجرة قلبه تنوء بما تحمل من ثمار الود لابن القارح ، وحقيقة الامر أنها تنوء بثمار البغض والسخيمة

ولكن المعرى فى هذه العبارة العميقة لم يقصد فقط أن يعبر عن سواد قلبه بالنسبة لابن القارح ، وانما اراد ايضا ماهو أعمق وأشمل ، وهو أن يثبت اعتقاده فى الجبر ، وهو أن العالم مسير لا مخير ثم اعتقاده فيما تسميه الافلاطونية النقص أو الفساد الملازم للكون أو للوجود المادى أو ما يسمى فى بعض المذاهب الفكرية بالفساد الملازم للوجود الانسانى أو باصالة الخطيئة الاولى فى جبلة الإنسان . أما ايمانه بالجبر فهو يشكل موضوعا أساسيا من الموضوعات التى تناولها فى « اللزوميات » حتى انه ذكره أكثر من مائتى مرة فيها بحسب احصاء طه حسين كقوله : « والعقل زين ولكن فوقه قدر » أو قوله :

ما باختياري ميــلادى ولا هرمى
ولا حياتى فهـــل لى بعـد تِخيير
ولا اقــامة الا عن يدى قـــدر
ولا مســير اذ لم يقض تيســـير

حتى أوشك ان ينكر الايمان بالحساب لولا خوفه من الزيغ :

مدبرون فلا عتب اذا خطئـــوا
على المسىء ولا حمـدا اذا برءوا
وقد وجدت لهذا القـول فى زمنى
شـــواهدا ونهـــانى دونه الورع

وأما ايمانه بالنقص أو الفساد الملازم للوجود فى المادة، فهو قد عبر عنه فى مطلع « رسالة الغفران » بقوله ان فى سكنه وهو جسده ، حماطة وهى حبـة القلب كمـا هى الشجرة اليابسة التى « لم تكن قط أفانيه » أى لم تكن قط ناضرة بمعنى أن العقم قديم فيها ملازم لوجودها . فاذا ما أضاف المعرى « ولا الناكزة بهـا غانية » أى ولا كانت الحية بها مقيمـة ، فكمـا قال المعـرى فيما تـلا « وتوصف الحماطة بألف الحيات لها » أو ترددها عليهـا وسكنها فيها ، اكتملت لنا صورة الفردوس الاول وفيه آدم وفيه الحية مصدر الشر تلدغ حبة قلب آدم وتجره الى السقوط . وعندى أن المعرى لا يريد أن يقـول أن قلبه كان خاليا من الحية لعدم وجود الحيات حول شجرة حياته أو داخل حبة قلبه ، وانما يريد أن يقول عكس ذلك على خط مستقيم وهو أنه قد بلغ من يبس شجرته أن الحيّة ذاتها لم تعد تقيم فيها أو تستغنى بها تغنى بهـــا من « غانية » فخرجت تسعى فى الفردوس المفقود لتدمر كل ما فيه . وفكرة السقوط ماثلة فى قول المعرى فى وصـف ثمار شجرة مودته أو على الاصح بغضه لابن القارح وثمار

الشر عامة بأنها « ما لو حملته العالية من الشجر لدنت الى الارض غصونها وأذيل من تلك الشجرة مصونها ، (اذيل بمعنى أهين وورد فى بعض نصوص « الغفران » ازيل) • وهذا بالضبط ما حدث لشجرة الحياة فى الفردوس : دنت الى الارض غصونها واذيل منها مصونها

ويعود المعرى ليؤكد هذه الفكرة ليقول « وان فى طمرى لحضبا وكل باذاتى ، لو نطق لذكر شذاتى » أى « وان فى ثوبى القديم (أى جسدى) لحية جعلت ضر وشر » والمعرى نفسه يسر لابن القارح ان « الحضب » « ضرب من الحيات » وهو أيضا « حبة القلب »

فاذا ما فرغ المعرى من هذه الصورة عاد فعبر عنها بطريقة أخرى قائلا : « وان فى منزلى لاسود أعز على من عنترة على زبيبة وأكرم عندى من السليك عند السلكة وأحق بايثارى من خفاف بخبايا ندبه ، وهو أبدا محجوب (ما) لا تجاب عنه الاغطية ولا يجوب » والاسود هو أيضا الحية وهو أيضا حبة القلب لصلته اللغوية بسويداء القلب • والمعرى يستعرض العشرات منأسماء أعلام العرب الذين اشتهروا بلونهم الاسود كعنترة وزبيبة والسليك والسلكة وخفاف وندبة ، أو الذين دخلت مادة السواد فى أسمائهم كأبى الاسود الدؤلى والاسود بن المنذر والاسود ابن معد يكرب وسويد بن الصامت وسوادة بن عدى الخ• وغير ذلك من استعمالات السواد فى اللغة والشعر فى الظاهر ليتفكه ويتهكم ، ولكنه فى الحقيقة يدير القول حول صورة واحدة تتكرر دائما أبدا وهى فكرة ملازمة السواد لقلبه وملازمة السواد لحية كملازمته لكل ما ساق من أسماء أعلام اما بحكم لونهم واما بحكم أسمائهم • والقارىء الحديث اذ يتناول رسالة ابن القارح « ورسالة الغفران » يحسب أن ابن القارح والمعرى كانا يضيعان

الوقت في استعراض معلوماتهما اللغوية ، وحقيقة الحال أنهما كانا يرميان دائما الى خبيء مغلف بالالفاظ الغريبة ذات المعانى المتعددة

فاذا كانت هذه فكرة المعرى عن الفساد المتأصل فى الوجود المادى فما من شك فى أن أى مؤمن بالشر أو النقص الملازم للخليقة ينتهى موقفه حتما بربط الغفران باللطف الالهى أو رحمة الله بعباده سـواء مباشرة أو بشفاعة النبيين وآلهم وأوليائهم وقديسيهم • وهو المبدأ المكمل لمبدأ الحساب والعدالة الالهية فى الاخرة • وهى نظرة دينية اعترفت بها كافة الاديان والمذاهب بدرجات متفاوتة نظرة يشوبها العطف على ضعف الانسان أمام الغواية والخطيئة والتعبير الدينى عنها يتبلور فى مبدأ التوبة فى الارض والغفران فى السماء وما يسبقهما من تطهر من الذنوب يثبت التوبة ويؤهل للغفران

وحكاية « صك التوبة » الذى يحمله ابن القارح ثم يضيع منه فى الدار الاخرى فيسبب له المتاعب ، وهو صك ممهور بخاتم قاضى حلب وعليه توقيعات شهود عدول من حلب ، يتخذ منه المعرى موضوعا للتفكهة والسخريةويجعل أمير المؤمنين على بن أبى طالب يرفضه قائلا : « انك لتروم حددا ممتنعا ، ولك أسوة بولد أبيك آدم » ولكن له دلالة تاريخية يمكن أن نرجحها وهى أن العالم الاسلامى فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى قد عرف ما عرفه العالم المسيحى فى تلك الفترة وما قبلها عن تلك الظاهرة التى تعرف فىتاريخ العصور الوسطى بصكوك الغفران فالارجح ان المعرى ما كان ليتحدث عن صكوك التوبة ويتفكه بها الا اذا كانت شائعة فى عصره أو على الاقل معروفة بدرجة كافية • والارجح أنه لم يبتكر فكرة دخول الجنة بصك يصدره قاض من قضاة الارض وينسب هذه البدعة لابن

القارح الا اذا كان يريد أن يقول أن ابن القارح يريد أن يدخل الجنة على طريقة مسيحيى أوروبا الذين كان البابا يعطيهم صكوكا يدخلون بها الجنة وهو أمر يدعو للتفكه حقا • وليس بمستبعد بل الاغلب أن المعرى كان عارفا بما كان يجرى فى العالم المسيحى سواء فى شطره البيزنطى أو فى شطره الرومانى وانى أستبعد أن يكون هذا مراد المعرى فى تهزىء ابن القارح • لانه يتضمن أيضا تهزىء قاضى حلب وأهالى حلب الذين تصورهم أنهم قبلوا الشهادة على مثل هذه الوثيقة • ولا أغالى ان قلت أن الحديث عن صكوك التوبة فى العالم الاسلامى ، ولو فى سبيل الفكاهة ، كان ليكون اجتراء عظيما من المعرى على العالم الاسلامى اذا لم يكن له بعض السند فى الحياة الواقعة وفى العرف الجارى • فاذا كانت بدعة صكوك التوبة قد دخلت العالم الاسلامى فى فترة من فتراته فالمؤرخون وحدهم هم القادرون على تحديد متى دخلت وأين دخلت وكيف دخلت • أما دراسة « رسالة الغفران » فلاتدل الاعلى انها كانت معروفة نحو ١٠٣٢ (٤٢٤ هـ) وهو عام انشائها . ولا تبعد ان تكون صكوك الغفران بدعة من البدع الكثيرة التى استحدثها الفاطميون فى العالم الاسلامى — نتيجة لاحتكاكهم بالعالم المسيحى قبل مجيئهم الى مصر. والمعرى يحدد اسم مصدر صك الغفران لابن القارح وهو القاضى عبد المنعم بن عبد الكريم قاضى حلب ابان حكم شبل الدولة ، وهذا محدد تاريخيا فشبل الدولة هو نصر بن صالح بن مرداس فهو ابن مؤسس الدولة المرداسية فى حلب ، وقد ولى ملك حلب عام ١٠٢٩ (٤٢٠ هـ) وحكمها ثمانى سنوات حتى ١٠٣٧ (٤٢٩ هـ) حين قتل فى معركة مع الجيش المصرى على نهر العاصى

اما صكوك الغفران (أو « البولاى ») ان منحها البابا و

« الاندولجانس » بصفة عامة) كما كانت تسمى فى اوروبا الكاثوليكية اثناء العصور الوسطى ، فتاريخهـا قديم نسبيا وهو مقترن بتطور فكرة التوبة فى العالم المسيحى ودور رجال الدين فى منح الغفران ولكن العالم المسيحى نفسه لم يعرف صكوك « الغفران الشامل » الا قبل « رسالة الغفران » بنحو مائة واربعين سنة حين أقرها مجلس رانس (٩٢٣ ــ ٩٢٤) ثم استخدمت على نطاق واسع فى عام ١٠٩٥ حين أصدر البابا أوربان الثانى بمناسبة خروج الحملة الصليبية الاولى ١٠٩٦ ــ ١٠٩٩ ما يسمى بالغفران الشامل لكل جندى مسيحى يخرج الى القتال فى الحروب الصليبية مدفوعا بالايمان وليس للكسب كما نص قرار البابا وبهذا ضمن الجنة لكل مجاهد فى سبيل المسيحية واما قبل هذا التاريخ فقد كانت صكوك الغفران جزئية المفعول وكان هناك جدل حول ماتملك الكنيسة غفرانه من الذنوب ومالا تملك . وفى الاصل كان البابا هو صاحب السلطة فى منح الغفران ثم فوض الكاردينالات والاساقفة فى ذلك

و « البولاى » فى لاتينية العصور الوسطى وفى العرف الكنسى كانت فى الاصل أختاما ذات شكل بيضاوى أو مستدير يسمى واحدها « بولا » نقش عليها اسم صاحبها واحيانا صورته ، وكانت تستخدم فى ختم الوثائق الرسمية ، ويظن العلماء انها موروثة فى ايطاليا الوسيطة من قديم الزمان من الحضارة الاترورية أو الاتروسكية ، وهى الحضارة التى كانت شائعة فى ايطاليا قبل مجىء الرومان انفسهم ، وفيها تعودت الصبايا وتعود الفتيان أن يلبسوا على صدورهم هذه « البولاى » مدلاة من سلاسل حول أعناقهم وكانت يومئذ فى شكل

القلب وتشتمل على رقية او حجاب او طلسم يقى حاملها شر العين الحاسدة ويدفع عنه الامراض وما الى ذلك ، وكانت ايضا امارة على شرف المحتد ، ثم تطورت مع مر العصور الى أختام يبصم بها على الوثائق الرسمية ، ثم انقرضت هذه العادة فى أوروبا حتى اقتصر استعمال هذه القلائد ذات الاختام على البابوات ابتداء من ٦٥٠ ميلادية على وجه التقريب ، ولا يعرف من اسماء الملوك الذين حملوا هذه « البولاى » الا بيان ملك فرنسا المتوفى عام ٧٦٨ وادوارد المعترف ملك انجلترا

وقد واجه العالم المسيحي مشكلة التوبة والغفران فى زمن باكر من تاريخ الكنيسة فكانت الذنوب يكفر عنها بالصوم والصلاة عادة لمدة تبلغ اربعين يوما وباعطاء الاموال لانفاقها فى الاغراض الدينية ، وكان هذا الاجراء حتى القرن الثانى يعود على صاحبه بالغفران الجزئى . فلما كان القرن الثالث نشأت معركة عنيفة بين آباء الكنيسة حول حدود الغفران كان محورها القديس ترتوليان الذى كتب نحو عام ٢٢٠ يهاجم قرارا أصدره البابا كاليست ووعد فيه بغفران خطيئة الزنا بعد التكفير ، وقال ترتوليان ان الكنيسة لا تستطيع منح الغفران حتى بعد التوبةوالتكفير فيما سماه الكبائر الثلاث وهى الردة والزنا والقتل ، لان فى منح الغفران عن هذه الكبائر اغتصابا لقدرة لا يملكها الا الله ، وانما يمكن للكنيسة أن تعطى الغفران عن الخطايا الصغيرة . ولكن الازمة التى واجهتها الكنيسة بسبب عنت الوثنية الرومانية أمام اضطهاد الامبراطور دومتيوس للمسيحيين اضطهادا مركزا حول ٢٥٠ كان لها تأثير كبير فى الموقف . فقد كثرت ردة المسيحيين الى الوثنية بسبب هذه الاضطهادات العنيفة افواجا افواجا حتى خشيت الكنيسة

من ائدثار الدين الجديد فأفتى القديس كبريانوس القرطاجى بأن الردة ليست من الكبائر وان المرتد يمكنه ان ينال الغفران اذا ماتاب « توبة علنية » بما سماه « اكسمولوجيسيس » اى « الاعتراف » (وهذا منشأ مبدأ « الاعتراف » فى المسيحية) وهو شبيه بما نسميه اليوم « النقد الذاتى » ، ولكن القديس كبريانوس اضاف ان هذه التوبة العلنية او هذا الاعتراف مقدمة لازمة للغفران ، اما الغفران نفسه فهو بيد البابا أو الرئيس الاعلى للكنيسة لانه وحده يحمل « قوة المفاتيح » اى مفاتيح الفردوس ثم حدث تطور اخير فى فكرة الغفران هذه . ففى ٤٥٩ أعلن البابا ليو الاول فساد التوبة العلنية او الاعتراف العلنى بسبب تردد الكثيرين من الخطاة فى ان يعلنوا عن ذنوبهم الشائنة امام الناس . بل ذهب الى ماهو أبعد من هذا فحرم افشاء سر المعترف وكان هذا هو اساس « سر الاعتراف » او « ختم الاعتراف »

اما فى الكنيسة الشرقية ، كنيسة بيزنطة فقد كانت التوبة فيها تمر فى اربع مراحل هى مراحل ـ ١ ـ الباكين ـ ٢ ـ السامعين ـ ٣ ـ الراكعين ـ ٤ ـ الواقفين . اما الباكون فهم يبكون لما ارتكبوا من خطايا واما السامعون فهم يسمعون حكم الدين فى الرذيلة والفضيلة واما الراكعون فهم يركعون للاستغفار واما الواقفون فهم يقفون انتظارا للغفران ـ وهم يستمعون لصلوات المؤمنين وهم يتشفعون لهم . ولما كان « الوقوف » هو اخر مرحلة قبل الحصول على الغفران ، فقد كان ينتهى دائما « بتناول السر المقدس » الذى يتلوه الغفران . وكانت اجراءات التوبة علنية فى بيزنطة كما كانت علنية فى روما حتى حرم

لكتاريوس بابا القسطنطينية هذه التوبة العلنية والغى وظيفة كاهن التوبة او القاضى الذى يتوب امامه الخطاة

وقد أدى الغاء التوبة العلنية واتباع نظام التوبة الخاصة أو الشخصية الى ظهور نظام صكوك الغفران او ادى الى انتشار العمل بهذا النظام على اقل تقدير لان التوبة العلنية بغير حاجة الى صك يثبتها ولها من علانيتها خير اثبات . اما هذه التوبة التى تدور فى الخفاء بين المذنب والكاهن ومحرم ان يعرف بأسرارها احد فهى بحاجة الى وثيقة تثبت قيامها . هكذا بلغت سذاجة الناس فى تلك العصور وهكذا بلغ سلطان الكنيسة على نفوسهم ولكن الغاء التوبة العلنية ذاته لم يأت اعتباطا فقد كان الناس يأخذون التوبة فعلا مأخذ الجد ولا يعدونها مجرد عملية يزاولها الانسان بعد كل خطيئة ليعود الى الخطيئة من جديد . كانت توبة نصوحا وكان من شعائرها فى بعض البلاد تحريم الزواج على التائبين مادامو فى مرحلة التكفير وتحريم المعاشرة الزوجية على التائبين حتى يغفر لهم او الانزواء فى دير لاجل طويل حيث يقضى التائب فترة فى النسك والعبادة . وقد بلغ من خوف الناس من التوبة العلنية ان الكثيرين كانوا يؤجلون توبتهم حتى ساعة الوفاة . وقد أثار القديس أوغسطين هذه المشكلة فى القرن الخامس وأبدى شكه فى أن من يموتون بغير توبة يمكن أن يدخلوا الجنة ، فشاع الاعتراف مرة كل سنة وكان الاعتراف اختياريا حتى جعلته الكنيسة اجباريا لمن يبلغ سن الرشد فى هذه الحدود السنوية منذ عام ١٢١٥ . كذلك ثار جدل حول قيمة التوبة بالنية وقيمة التوبة الرسمية امام الكنيسة ولكن الراى الذى استقرت عليه الكنيسة كان يلزم بدخول

الكنيسة كطرف فيه لانه جعل من « تناول السر المقدس » وهو لا يتم الا على يد الكاهن ، شرطا أساسيا للتطهر وقبول التوبة

ونعود فنقول انه بالغاء التوبة العلنية وحلول التوبة الفردية محلها شاع اثبات هذه التوبة بصكوك التوبة أو مايسمى عادة بصكوك الغفران . ثم اصبح انفاق المال في الوجوه الدينية يؤخذ مأخذ الزكاة عن النفس طلبا للغفران وقد شجعت الكنيسة الكاثوليكية هذا الاتجاه ليتم لها جمع المال اللازم لبناء الكنائس والكاتدرائيات والانفاق على وجوه البر ، ثم انحطت الكنيسة الكاثوليكية فشجع رجال الدين هذا الاتجاه لابتزاز اموال المؤمنين والاثراء على حساب البسطاء والفاسقين وهكذا تحولت صكوك الغفران الى تجارة فى الدين وبعد أن كان الاصل فى صكوك الغفران انها كانت مجرد اعفاءات من العقاب الدنيوى أو التكفير فى الدنيا عن الخطيئة بالصوم والصلاة والنسك وكافة ما فرضه الدين على أهل الذنوب من وسائل التطهر تحول الى جواز مرور تبيعه الكنيسة لدخول الجنة

فهل من حقنا أن نتساءل – فى الكلام عن المعرى و « رسالة الغفران » – ان كان المعرى لم يقصد أن يقول متهكما لابن القارح : انت يا سيدى واصحابك الفاطميون فى مصر تزعمون أننا اهل الشام زنادقة واننا خلطنا ديننا بالاسرائيليات ، هذه التى نسميها الفلسفة ، فمالنا بغير شك الى الجحيم . اما انتم يا أصحاب مصر الفاطمية فتريدون دخول الجنة على طريقة كنيسة روما الكاثوليكية، وهى بدعة الاسلام منها برىء ، وتحسبون انه يكفى لدخول الجنة ان يتوب المرء توبة صورية على يد القاضى

بعد حياة كلها فسق واجرام فيعطيه القاضى ورقة يدخل بها الجنة ، وتحسبون ان الايمان الشفوى يغنى عن صالح الاعمال ، وان الرسول وآله ، بل ورضوان نفسه شأنهم شأن ملوك الارض يكفى ان يتملقهم المرء بالمدائح حتى يتشفعوا فيه عند الله . كلا ليس ما زعمتم من الدين فى شيء . انكم يا اصحاب مصر الفاطمية تزعمون انكم اعداء الصليبيين الالداء ، وانتم لا تقلون عنهم شرا ، لانكم نقلتم عنهم معتقدات وخرافات وبدعا دسستموها على الاسلام، اخذتموها عنهم نتيجة لاحتكاككم بالعالم المسيحى فى موطنكم الاول فى شمال افريقية ، وادخلتموها فى العالم الاسلامى منذ أن آل اليكم السلطان عام ٩٠٩

الا يحق لنا أن نتساءل : اليست « رسالة الغفران » تشتمل على اتهام صريح للفاطميين بأنهم ادخلوا فى المشرق الاسلامى بدعة صكوك الغفران او صكوك التوبة كما يسميها المعرى ، وانهم نشروا هذا النظام حيثما استقر لهم الامر ، حتى لقد اصبح نظاما مألوفا فى عهد شبل الدولة المرداسى الذى تولى عام ١٠٢٩ قبيل انشاء « رسالة الغفران » بثلاث سنوات. فكان من اختصاصات قاضى حلب عبد المنعم بن عبد الكريم ان يصدر صكوك التوبة ؟ ان اكثر من مائة عام من استتباب الامر للفاطميين فى مصر وغيرها من بلاد المشرق قبل انشاء « رسالة الغفران » كانت كافية لانتشار هذه البدعة لو ان الفاطميين كانوا مؤسسيها . وايا كان الامر فليس هناك ادل على رسوخ هذا النظام من وصف المعرى الساخر لاصرار ابن القارح على دخول الجنة بصك مكتوب حتى بعد ضياع صك التوبة منه ، فهو يحاول اقناع رضوان ان يعطيه ورقة من شجر الجنة ليمضى بها الى شفعائه ويحصل

فيها على أذن كتابى بدخول الجنة ، وكما قال المعرى على لسان ابن القارح : « فلما صرت الى باب الجنة ، قال لى رضوان : هل معك جواز ؟ فقلت : لا . فقال لا سبيل لك الى الدخول الا به . فبلغت بالامر . وعلى باب الجنة من داخل شجرة صفصاف ، فقلت : اعطنى ورقة من هذه الصفصافة حتى أرجع الى الموقف فآخذ عليها جوازا . فقال : لا اخرج شيئا من الجنة الا باذن من العلى الاعلى ، تقدس وتبارك » . وحين اراد ابن القارح ان يوضح حقه فى دخول الجنة قال : « فقلت : انى كنت فى الدار الذاهبة اذا كتبت كتابا وفرغت منه ، قلت فى اخره : وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى عترته الاخيار الطيبين ، وهذه حرمة لى ووسيلة » . فابن القارح يحسب ان مجرد هذا الايمان النظرى الذى يترجم الى الصلاة على النبى وآله بالقول ولا يترجم الى صالح الاعمال ، كاف لان يعفيه من الحساب وان يكون «الوسيلة» لدخول النعيم . ولكن ابن القارح حين مثل امام سيدنا محمد ، تعلم ان الشفاعة وحدها لا تكفى وانه لابد من النظر فى اعمال الناس ليؤذن لهم بدخول النعيم « فوقفت عند محمد - صلى الله عليه - فقال من هذا الاتاوى - اى الغريب - فقالت له : هذا رجل سأل فيه فلان وفلان - وسمت جماعة من الائمة الطاهرين - فقال حتى ينظر فى عمله . فسأل عن عملى فوجده فى الديوان الاعظم وقد ختم بالتوبة فشفع لى ، فاذن لى فى الدخول »

وقد كانت « وساطة الاولياء والقديسين » فضلا عن وساطة مريم والمسيح من المبادىء المستقرة فى اوروبا الكاثوليكية ، وما زالت كذلك الى حد كبير الى اليوم . وكانت هذه الوساطة ترتكز على ما يسمى « بالكنوز

الروحية » التى تملكها الكنيسة بفضل اعمال القديسين والاولياء ، وهو رصيد روحى يمكنها من ان « تشترى » ذنوب المذنبين من الله او هى بمثابة الفدية التى تدفعها عن الخطأة ليفك أسارهم وتحصل لهم على الغفران

نعيم المعرى

فى الكلام عن مصادر ادب المعرى لا شك ان المصدر الأول لرسالة الغفران كان قصة الاسراء والمعراج فى ابن عباس رضى الله عنه وما شابهها من روايات للحديث الشريف الخاص بقصة الاسراء والمعراج . فالمعالم العامة للجنة وللجحيم كما صورهما المعرى تطابق بغير شك ما ورد فى التنزيل الحكيم اولا وفى ابن عباس ثانيا وفى المصادر الاسلامية بوجه عام ثالثا . وربما كانت نقطة البداية فى هذا البحث هو ما تواتر فى المصادر الاسلامية من ان ارتقاء الرسول المعراج الى السماء السابعة أثناء حياته وعودته منها الى الأرض بعد ان كلم رب العرش وتفقد الفردوس والجحيم هو المعجزة التى اختص بها الرسول اذ لم يؤذن لغيره ان يرتقى المعراج أثناء حياته . وفى رواية ابن اسحق « لما فرغت مما كان فى بيت المقدس اتيت بالمعراج فلم أر شيئا أحسن منه وهو الذى يمد اليه الميت عينه » وفى « السراج الوهاج » للامام جعفر بن زين العابدين وهو من المتأخرين : « ثم أتى بالمعراج الذى تعرج عليه الارواح عند حلول المنية . لم تر الخلائق احسن منه ، له مراق من العسجد واللجين ، مرقاة فوق مرقاة »

فالمعراج اذن هو السلم الذى تصعد عليه كل الارواح الى السماء بعد قبضها لتحاسب وهو « سلم السماء » أو « الاسكالا كايلوم » كما يسميه الاوروبيون . ومن هنا أمكن للمعرى وسواه أن يستخدمه موضوعا لأدب دنيوى غير دينى ، وأن يجتهد فيه بخياله وبخيال غيره لأن ارتقاء المعراج قدر محتوم على كل أهل الفناء بعد فنائهم

معالم الجنة التى يصفها المعرى اذن فى رحلة ابن القارح الى العالم الآخر هى فى صورتها العامة المعالم الموصوفة فى التراث الدينى وفى التراث الانسانى معا ، ومثلها أيضا معالم الجحيم فى صورتها العامة . ففى الفردوس هناك الرياض ذات الظلال الوارفة والفاكهة الشهية والطير الجميل ، تخترقها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل ، وتسكنها الحور والولدان ، وتكثر فيها العيون والينابيع ، وهى تزخر بالاحجار الكريمة وبالمعادن النفيسة . ولكن رغم تشابه وصف المعرى للجنة فى صورتها العامة مع ما جاء فى المصادر الاسلامية نجد المعرى فى الوقت نفسه يضيف تفاصيل فى وصف الجنة ومثلها فى وصف الجحيم لا نجد لها أثرا فى المصادر الاسلامية . وبعض هذه التفاصيل نستطيع أن نقول انه ثمر للابتكار الشخصى لانه مجرد نسج للخصوصيات على العموميات الواردة فى الأدب الدينى ولكن بعضه الآخر ، وهو هام وكثير ، لا سبيل الى تفسيره الا بافتراض اطلاع المعرى على الوان من التراث الأجنبى كان له اليها سبيل واطلاعه على الوان من التراث الشعبى الشائع فى عصره . فاذا نحن أردنا تحليل مكونات رسالة الغفران خارج ما أخذه المعرى عن المصادر الاسلامية ، وجب أن نحاول حصر هذه « الموتيفات » والمواقف والمشاهد والتفاصيل التى لم يرد ذكرها فى هذه المصادر والتى يصعب أو يستحيل

أن نتصور أنها ثمرة للاجتهاد في الابتكار الشخصي والتوليد الذاتي . وأهمية هذا الحصر ناشئة من انه يعيننا من جهة أخرى على تتبع هذه التفاصيل في « الكوميديا الالهية » لدانتي وما شاكلها من مؤلفات في أدب الآخرة ، ورد هذه التفاصيل الى مصادرها الحقيقية ، ولا سيما اذا كانت لها مقابلات مشهورة في الآداب الأخرى واهم هذه العناصر التي لا نستطيع أن نرجعها الى المصادر الاسلامية لقصة المعراج هي :

١ ـ فكرة تناول موضوع الحياة في العالم الآخر تناولا فكاهيا . فوصف الحياة في العالم الاخر جزء لا يتجزأ من جميع الاداب الدينية الراقية . أما فكرة وصف الحياة الثانية وصفا فكاهيا فقد أشتهر بها الأدب اليوناني من خلال اعمال أرسطوفانيس أولا ولوسيان ثانيا ..

٢ ـ فكرة عقد الموزانة بين الشعراء في العالم الآخر وحسابهم وعقابهم لا على أساس ما أتوا في الدنيا من خير وشر ، ولكن على أساس ما نظموا فيها من شعر جيد وشعر ردىء . هذه الفكرة تظهر لاول مرة في كوميديا « الضفادع » لأرسطوفانيس ، حيث يقوم ديونيزوس قاضيا في عالم الموتى بين أسخيلوس وأوربيديس ، ويكون حساب الشاعرين على أساس ما في فنهما من روعة واخطاء وما في تعاليمها من نفع أو ضرر للبشر ، وقد أخذ الكاتب اليوناني الساخر لوسيان هذه الفكرة وطورها فجعل الآخرة مسرحا لمحاكمة الفلاسفة والموازنة بين مذاهبهم وحسابهم وعقابهم على هذا الأساس . بل ان لوسيان قد تجاوز موضوع الفلاسفة ، واقام في الآخرة المحاكمات لالهة اليونان وابطالها . وقد كان من أهم ما كتب في هذا « محاورات الالهة » و « محاورات الموتى » التي نرى

فيها لوسيان يدير المناقشة ، أمام بلوتو رب الموتى ، بين الفلاسفة مثل ديوجين ومنيبوس وبين القواد مثل فيليب المقدونى والاسكندر وهانيبال وشبيو وبين أبطال الملاحم مثل أخيل وآجاكس وأجا ممنون . ثم هناك محاورة « السماك » ، حيث يجمع لوسيان أرواح أعلام الفلاسفة فى العالم الآخر من أفلاطون وارسطو وديوجين وأميادوقليس الى طوائف الفيثاغوريين والرواقيين والمشائين والابيقوريين الخ ويسخر منهم جميعا ويفضح جشعهم للمال والتستر تحت الفكر لقضاء مآربهم بعد ان تجرى محاكمتهم امام « الفلسفة » و « الحقيقة » و « الفضيلة » و « المنطق » ، ويعلن فى النهاية ادانتهم جميعا . ثم هناك محاورته الساخرة بعنوان « رحلة الى العالم السفلى » حيث يجرى ردامانثوس خازن الجنة مع خارون معداوى الارواح وكلوثو ربة القدر محاكمة لطالب من طلاب الفلسفة تعود استخدام المنطق لتبرير خطاياه فارسلوه الى جزائر السعداء ثم يحاكمون من بعده طاغية من الطغاة ويدعون سريره ومصباحه ليشهدا على الليالى الحمراء التى كان يقضيها أثناء حياته ، وبعد ادانته يرأفون بحاله فلا يلقونه فى نهر بريفليجيثون لغسل أوزاره عنه ولا يرمونه فى جهنم ، وانما يعطونه جرعة من نهر النسيان . ومثل هذا محاورة لوسيان « رحلة الى السماء » أو « ايكارومنيب » حيث نرى الفيلسوف الكلبى منيبوس يصعد مع صديق له الى السماء دون حاجة الى معراج على حد قوله ولكن باستخدام أجنحة من أجنحة الطير ويسخر لوسيان من هذا الفيلسوف وفلسفته فى هذه المحاورة

وقد عاد المعرى بهذا الموضوع الى النقطة التى تركه فيها ارسطوفانيس ، فجعل من وصف الجنة والجحيم

مناسبة للموازنة لمحاكمتهم على شعرهم شكلا وموضوعا . فنرى ابن القارح بين جماعة من الأدباء كانوا أعداء الداء فى الحياة الأولى فاذا بهم فى الجنة متحابين متصافين ، ومن أدباء الفردوس هؤلاء المبرد وأبو بكر الازدى ويونس ابن حبيب الضبى والاخفش الاوسط وثعلب والمبرد وسيبويه والكسائى والاصمعى وغيرهم من العلماء النحاة من مدرسة الكوفة ومدرسة البصرة فاذا عداوتهم فى الجنة أخاء ، واذا هم يتجادلون فى الادب وعلوم اللغة دون خصام . ويلتقى ابن القارح فى الجنة بالاعشى فيعلم منه ان النبى انقذه من أيدى الزبانية الذين اوشكوا ان يزجوا به فى النار وكانت نجاته بسبب قصيدة له فى مدح الرسول ، ولان الاعشى اثبت لعلى بن ابى طالب أنه رغم ولعه بالخمر فى الجاهلية « كنت أومن بالله وبالحساب واصدق بالبعث وأنا فى الجاهلية الجهلاء » فدخل الجنة على الا يمس ما فيها من خمر مكتفيا « بالعسل وماء الحيوان »

كذلك يرى ابن القارح فى الجنة قصرين احدهما لزهير ابن أبى سلمى والآخر لعبيد بن الابرص الاسدى فيعجب لوجود شعراء الجاهلية فى الجنة ، ثم يعلم أن زهيرا كان مؤمنا فى الجاهلية فغفر له وأن عبيد بن الابرص دخل جهنم ولكن بيتا واحدا له أنقذه من الجحيم وهو :

من يسأل الناس يحرموه
وسائل الله لا يخيب

ثم يلتقى ابن القارح بعدى بن زيد العبادى ، وهو ايضا من شعراء الجاهلية فيعلم منه انه دخل الجنة لانه كان على ملة المسيح قبل رسالة محمد وقد حقت جهنم على من عبدوا الأصنام فى الجاهلية وحدهم . ثم يبلغ ابن القارح قصرين من در أحدهما للنابغة الجعدى والآخر

للنابغة الذبيانى . ثم انضم اليهم الاعشى فصاروا خمسة واخذوا يشربون من خمر الجنة ويتجادلون فيما قالوا من شعر ومواطن القوة والضعف فيه وفيما نحله عليهم الرواة . ويطول النقاش بين النابغة الذبيانى والنابغة الجعدى كل منهما ينقد الآخر حتى لنتذكر « ضفادع » ارسطوفانيس ثم يمر عليهم لبيد بن ربيعة ويذكرونه بشعره فيتبرأ منه قائلا : « هيهات ! انى تركت الشعر فى الدار الخادعة ولن اعود اليه فى الدار الآخرة » .

وتتخذ الجماعة من شعرها فى الخمر موضوعا للنقد والفكاهة والتهكم ويوازنون بين خمر الأولى وخمر الآخرة وبين الخمر واللبن . ويتباهى الجعدى بشعره ويعير الاعشى بمدح الملوك فيغضب الاعشى ويضربه بكوز من ذهب . وهنا يذكرهما ابن القارح بأن لا عربدة فى الجنان ويحاول ان يصلح ما بينهما فلا يوفق . وهكذا ننتقل من شاعر الى شاعر ومن فكاهة الى فكاهة ، حسان بن ثابت ، الخليل بن أحمد الخ ، حتى الحطيئة نجده فى الجنة رغم أنه كان شتاما عظيما دخلها لا لقوله :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

ولكن لأنه صدق فى هجاء نفسه . كذلك نرى الخنساء فى أقصى الجنة قريبة من مطلع النار لترى أخاها صخرا . وفى النار يرى ابن القارح بشار بن برد وامرأ القيس وعنترة وعمرو بن كلثوم وعلقمة والحارث اليشكرى وطرفة ابن العبد وأوس بن حجر وابو كبير الهذلى والأخطل الذى سحر الزبانية بشعره فألهاهم عن تعذيبه . وبعد ان يجادل ابن القارح كل هؤلاء فى شعرهم يضيق بالنار ويخرج منها ليعود الى قصره فى الجنة ، وهناك يسأل عن الباقين فيعرف أن المهلهل والمرقش الأكبر والمرقش

الاصغر والشنقرى وتأبط شرا فى النار بين راض بمصيره وساخط عليه

فالموازنة بين الشعراء فى الاخرة ، وهى ركن هام من اركان « رسالة الغفران » تقليد بدأه أرسطوفانيس فى « الضفادع » ونسج عليه لوسيان بالموازنة بين الفلاسفة فى الاخرة ، ومن الطبيعى أن نفترض أن « رسالة الغفران » تنتمى الى هذه الفصيلة من الادب ، وأن هذا الموضوع من رواسب الادب اليونانى فى الادب العربى

٣ ـ يحدثنا المعرى عن « طعام الخلود » وهو ما كان يسمى فى الاداب القديمة « الامبروزيا » (العنبر ؟) ففى « رسالة الغفران » نرى ابن القارح يتنزه فى رياض الجنة على نجيب أى جمل صنع من « ياقوت ودر » فيسير على غير منهج ومعه شىء من طعام الخلود . ومثل طعام الخلود شراب الخلود أو ما كان القدماء يسمونه«النكتار»، وربما كان شيئا مثل قطر الندى ، وهو شراب الالهة بمثل ما كانت الامبروزيا طعام الآلهة . أو بلغة المعرى : « فيقول : الا تشربان ؟ فيجرعان من ذلك المحلب جرعا لو فرقت على أهل سقر (اى جهنم) لفازوا بالخلد شرعا » . ومثل هذا الطعام والشراب لا ذكر له فى المصادر الاسلامية . كذلك لم يرد فى المصادر الاسلامية تحديد لاسم الماء الذى يجرى فى الكوثر ، والمعرى يحدده بماء الحيوان فالمعرى يقول :

« وتجرى فى أصول ذلك الشجر انهار تختلج من ماء الحيوان ، والكوثر يمدها فى كل أوان . من شرب منها النغبة فلا موت ، قد أمن هنالك الفوت وسعد من اللبن متخرقات ، لا تغير بأن تطول الاوقات وجعافر من الرحيق المختوم ، عز المقتدر على كل محتوم . تلك هى الراح الدائمة ، لا الذميمة ولا الذائمة » فالكوثر يغذى أنهار

الجنة وأشجارها بأكسير الحياة او الاكوافيتا أى ماء الحياة الذى يسميه المعرى ماء الحيوان

٤ ــ الارتداد الى الشباب وارتداء حلة الشباب الدائم موضوعان يتكرران باستمرار فى « رسالة الغفران » كظاهرة هامة عامة من ظواهر الحياة فى الجنة ، دون أن يكون لهما ذكر صريح فى المصادر الاسلامية المعتمدة لقصة المعراج وان كان لهما سند فى الحديث الشريف « لا تدخل الجنة عجوز » وفى ابن عباس أن آدم فى الجنة « شيخ حسن الوجه حسن الثياب جالس على كرسي من نور » وهو النبى الوحيد الذى يرآه الرسول فى الجنة أو فى السماء السابعة ..

وفى رسالة الغفران نرى الاعشى وقد ارتد شابا وسيما ، أو بلغة المعرى : « فاذا هو بشاب غرانق ، غبر فى النعيم المفانق ، وقد صار عشاه حورا معروفا وانحناء ظهره قواما موصوفا » كذلك نرى زهير بن ابى سلمى وقد ارتد شابا بهى الطلعة وهو الذى نعرف من شعره انه استوفى الثمانين على الاقل ، فهو القائل :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا لا اباألك ــ يسأم !

او بلغة المعرى :

« فيبتدىء بزهير فيجده شابا كالزهرة الجنية ، قد وهب له قصر من ونيـة (أى من الدر اللؤلؤ) كأنه ما لبس جلباب هرم ، ولا تأفف من البرم » كذلك يلتقى ابن القارح فى الجنة بلبيد بن ربيعة الذى عاش الى عمر رذل ، وهو القائل :

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس : كيف لبيد ؟

فهوفى المعرى قد برؤ من شيخوخته : « لاهرم ولابرم »

كما يقول • ومثل هذا حدث للنساء فى الجنة ،فالقبيحات منهن قد غدون آيات فى الجمال ، ومثلهن حمدونة التى كانت من اقبح نساء حلب • فلما زهدت فى الدنياالغرور وتوفرت على العبادة • دخلت الجنة فصارت الى حورية يخطف جمالها الابصار • ومثلها ايضا الجارية السوداء ، التى كانت تشتغل « فتاة مكتبة » فى مكتبة بغـــــداد ، اصبحت بعد ان دخلت الجنة حورية زينة للناظرين • او كما يقول المعرى : « وتقول الاخرى : اتدرى من انا يا على بن منصور انا توفيق السوداء التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد على زمان ابى منصور محمد بن علىالخازن وكنت أخرج الكتب الى النسـاخ » (والخازن هنا هو أمين المكتبة) ، فيجيبها ابن القارح : « لا اله الا الله ، لقد كنت سوداء فصرت انصع من الكافور » وارتداد البشر فى الجنة الى حالة الشباب الدائم واكتساؤهم بالجمال المتلالىء رغم دمامتهم الاولى ليس له سند فى ابن عباس ولا فى المصادر الاسلامية المعتمدة لقصة المعراج ونظير هذا فى الاداب القديمة هو ما حدث لاوديسيوس ورجاله فى نعيم الحورية كيركا وحورها : حين ارتدوا جميعا الى الشباب الدائم والى الفتوة الفارعة بفضل شراب العشب السحرى « مولى » وهو ايضا مما ورد فى الاعمال والايام لهيسود حيث تتعرض هذه القصيدة لوصف العالم الاخر وهو أيضا مما وصفه أرسطوفانيس فى « الضفادع » حيث نجد كوراس الصوفية فى الاخرة يبتهلون لياكوس رب الخضرة والتجدد ان يردهم الى الشباب من جديد • وربما كان وصف المعرى لتجدد الشباب والجمال فى الجنـــة تصورا ادبيا للحديث الشريف متأثرا باوصاف القدماء

٥ ــ فى جنة المعرى مدن ليست كمدائن الجنة ، ولا عليها النور الشعشعانى وهى ذات « أدحال » أى مخازن

للمطر « وعماليل » اى اجم مظلم كثيف الشجر . ونعرف ان هذه جنة العفاريت الذين امنوا . ويلتقى ابن القارح باحدها وكنيته ابو هدرش فيقول : يا ابا هدرش. مالى اراك أشيب واهل الجنة شباب ؟ فيقول : ان الانس اكرموا بذلك واحرمناه ، لاننا اعطينا الحولة فى الدار الماضية ، فكان احدنا ان شاء صار عصفورا وان شاء صار حمامة فمنعنا التصور فى الدار الاخرة ، وتركنا على خلقنا لا يتغير ، وعوض بنو ادم كونهم فيما حسن من الصور . وكان قائل الانس يقول فى الدار الذاهبة : أعطينا الحيلة ، واعطى الجن الحولة

هذه التشكلات او التحولات او التصورات شيء مألوف فى الفولكلور العربى وفى الاداب الشعبية ، وهى عنصر هام فى اعمال مثل « الف ليلة وليلة » وما شاكلها ، وهو محور « التحولات » او « التشكلات » لاوفيد ، اما ما يسمى « الميتامورفوز » . والمعرى لم يكن بحاجة الى الذهاب الى أوفيد ليتعلم شيئا عن « الحولة » او التصور كما يسميه المعرى ولكن بعض التفاصيل فى « رسالة الغفران » تبعث حقا على الاشتباه فى أنه كان مطلعا على بعض المصادر الاجنبية الى جانب اطلاعه على قصص الحولة او التصور فى التراث العربى

٦ ــ خذ مثلا فكرة النساء البجع فى جنة المعرى : « ويمر رف من أوز الجنة ، فلا يلبث ان ينزل على تلك الروضة ويقف وقوف منتظر لامر ــ ومن شأن طير الجنة ان يتكلم ــ فيقول : ما شأنكن ؟ فيقلن : الهمنا ان نسقط فى هذه الروضة فنغنى فيها لمن شرب . فيقول : على بركة الله القدير . فينتفضن فيصرن جوارى كواعب يرفلن فى وشى الجنة » وبعد ان يغنى البجع لابن القارح ميمية المخبل السعدى التى كانت تغنيها القيان فى القاهرة

وفى بغداد فى زمانه يقول : « فتبارك الله القدوس . نقل هؤلاء المسمعات من زى ربات الاجنحة الى زى ربات الاكفان المترجحة ، ثم الهمهن بالحكمة حفظ اشعار لم تمرر قبل بمسامعهن ، فجئن بها متقنة ، محمولة على الطرائق ملحنة » وتحول الطير الى نساء والنساء الى طير ، وبالذات الى بجع او ما يسميه المعرى أوز الجنة يبعدنا عن التشكلات المألوفة فى حكايات الجن المعروفة فى الادب الشعبى العربى ويقترب بنا كثيرا من الميثولوجيا اليونانية حيث النساء البجع جزء لا يتجزأ من الاساطير الاساسية ، ليس فقط فى قصة الاختين الحوريتين سيرينا اللتين اشتهرتا بعذب الغناء فى « الاوديسا » وغيرها وكانتا دائما تصوران فى صورة الطير فى عالم الموتى حيث تغنيان أجمل الاغانى للارواح ، وليس فقط فى قصة ليدا التى تحولت الى بجعة حين عشقها زيوس كبير الالهة فأنجبت منه هيلانة طروادة الشهيرة بجمالها ، وليس فقط فى قصة سيجنوس أو سيكنوس وامه اللذين حولهما العشق الى بجع فى بحيرة البجع ، لكن أيضا فى قصة فيلوميلا البلبل وأختها بروكنا اللتين تحولتا الى طير وفرتا الى أكثف الغابات هربا من الامير تيريوس ، تلك القصة التى اشتهرت فى العالم القديم ولا سيما كما رواها الشاعر أوفيد

٧ ـ وخذ مثلا فكرة النساء الشجر وهى مثل النساء البجع المغنيات فى الجنة ففى جنة المعرى يقود ملاك ابن القارح فى رياض الجنة

« فيجىء به الى حدائق لايعرف كنهها الا الله فيقول الملك : خذ ثمرة من ذا الثمر فاكسرها فان هذا الشجر يعرف بشجر الحور

« فيأخذ سفرجلة أو رمانة او تفاحة او ماشاء الله من الثمار ، فيكسرها فتخرج منها جارية حوراء عيناء تبرق

لحسنها حوريات الجنان» واشجار الحور بالذات هى واشجار الصفصاف ، من دون سائر الاشجار كانت فى الادب اليونانى من «أوديسا» هوميروس الى الكاتب الساخر لوسيان (١٢٥ ـ ٢٠٠ ميلادية) هى الاشجار المميزة للعالم الاخر · ولوسيان بالذات لانه كان سوريا يكتب باليونانية كان واسع الشهرة عظيم الاثر فى الشرق لانه كان بمثابة نقطة التقاء الشرق بحضارة الاغريق ، وقد كان لوسيان متخصصا فى الكتابة عن زيارته للعالم الاخر بأسلوب كله سخرية ودعابة ، ومن أشهر ما كتبه « حوار الالهة » و « حوار الموتى » و « رحلة الى العالم السفلى » و « رحلة الى السماء » و « خارون معداوى الارواح » و « الصياد » · وهذا ما كتبه فى مقطوعته التى يسميها « البجع والعنبر » :

« لا شك أنك تؤمن بصدق أسطورة العنبر ، وكيف أن العنبر هو الدموع التى ذرفتها أشجار الحور على فيتون فى نهر الاردان فأشجار الحور هذه كن اخواته وقد تحولن الى أشجار وهن ينحن عليه وما فتئن يذرفن عليه دموع العنبر هذا ما تعملته من الشعراء وقد تاقت نفسى الى الوقوف تحت شجرة حور ، اذا ما ساقنى القدر الى الاردان فى يوم من الايام ، كما تاقت الى جمع بعض هذه الدموع العنبرية فى ثنايا ثيابى وبذا يتوفر لى مدخر من هذه السلعة

« ولكنى أؤكد انى وجدت نفسى هنالك منذ زمن غير بعيد فى مهمة أخرى ، وأتيح لى أن أزور الاردان ورغم يقظتى والتفاتى فى كل مكان لم أر أشجار حور ولا عنبر بل ان الاهلين لم يسمعوا حتى باسم فيتون وبدأت بحثى بالسؤال متى أصل الى حور العنبر · فلم أسمع الا ضحكات الملاحين الذين طالبونى بالتفسيرات · فرويت عليهم القصة : قلت : كان فيتون ابن هليوس أبولو رب الشمس ، فلما كبر جاء الى أبيه يسأله : متى أستطيع يا أبت أن اسوق عربتك ،

عربة الشمس ، فأصبح موجد النهار ولو مرة واحـدة •
فوافق أبوه على أن يعيره عربته ، ولكنه سقط وقتـل
فتحولت أخواته النائحات عليه (فى أرضــكم هذه حيث
سقط على نهر الاردان الى أشجار حور ، وهن لا زلن يذرفن
عليه دموع العنبر)

« قالوا : أى كذاب خدعك على هذا النحو ؟ نحن ما رأينا
قط سائق عربة يهوى • ثم أين تكون أشجار الحور ؟ أتظن
أننا ، لو صدق هذا ، كنا نجدف أو نشد زوارقنا ضد
التيار من أجل دريهمات، لو صدق هذا لكفانا ان نجمع دموع
أشجار الحور لنكون من الاثرياء • وكان لهذا القول الحق
أثر عميق فى نفسى فصحت وأدركت ادراكا موجعا مبلغ
غباوتى الصبيانية حين صدقت كلام الشعراء • فبضاعتهم
من هذه الخيالات المسرفة ، وهم يحتقرون الحقائق المعقولة
وهكذا طار منى أمل من امالى ، أمل كنت أعتز به كثيرا ،
فحزنت على ضياعه كأنما ضاع العنبر ذاته من يدى ، فقد
كنت أعددت كل مشروعاتى للاستفادة منه فى مختلف
الوجوه

«ورغم هذا فقد بقى شىء واحد كنت اظن انى واجده هناك
حقا • وذلك هو سرب البجع الذى يغنى على الشطئان •
فعدت أقول للملاحين : فى أية ساعة تقريبا تأخذ البجع
مكانها لتقدم أغانيها المشهورة هم أخوة الرب أبولو فى
صناعة الغناء كما تعلمون ، وقد تحولوا هنا من بشر الى
طيور ، ولا يزالون يغنون وفاء لذكرى فنهم القديم

« ولكن الملاحين سخروا منى ، لا أكثر ولا أقل : ألا تكف
عن الكذب عن أمور بلادنا ونهرنا ؟ نحن لا نبارح الماء قط ،
وقد اشتغلنا طول العمر على نهر الاريدان • والحق أننا
نرى بجعة من وقت لاخر فى المستنقعات ونسمع صوت
البجع فاذا هو نقيق جارح وهزيل وصوت الغربان التى

تعد سيرينات بانياس الى صوته • أما هذا الغناء العذب الذى تتحدث عنه فلا أثر له هنا • ونحن لا نفهم من أين تأتون يا قوم بكل هذه الحكايات عنا »

هذا بعض ما قاله لوسيان عن نهر الاردان أو الوردان أو الاردنواس وما شاع عنه فى العالم القديم انه كانت تسكنه نساء تحولن الى أشجار الحور التى تنزف دموع العنبر وفتيان تحولوا الى بجع يغنى أعذب الغناء • وهونهر أسطورى قيل أن فى مصبه جزرا من الاليكتريد أى العنبر أو الكهرمان وقد تحدث عنه هسيود فى «أنساب الالهة» أو « الثيوجونيا » البيت ٣٣٨ حديثه عن نهر له وجود حقيقى • وكانت اليونان تقول أولا أن مكانه غير معروف فى أقصى الشمال من أوروبا أو فى أقصى الغرب منها وأنه يصبفى المحيط الشمالى • وقد شك فى وجوده المؤرخ هيرودوت (٣ ــ ١١٥) والجغرافى استرابو (٥ ــ ٢١٥) ، وظنه اسخيلوس فى أسبانيا ولكن بلينى (٣٧ ــ ٣٢) زعم أنه هو نهر الرون ، ثم نقل محله أخيرا الى نهر البو فى الادب الرومانى • أما عن غناء البجع أو أوز الجنة ، وهو ما لم يرد فى المصادر الاسلامية ، فقد وصفه المعرى بقوله :

« فاذا تيقن لها حذاقة وعرف منها بالعود لباقة ، هلل وكبر وأطال حمد ربه واعتبر وقال ويحك الم تكونى الساعة أوزة طائرة والله خلقك مهدية لا حائرة ؟ فمن أين لك هذا العلم ، كأنك لجذب النفس خلم أى صديق لو نشأت بين معبد وابن سريج لما هجت السامع بهذا الهيج فكيف نفضت بله أوز وهززت الى الطرب هذا الهز ؟

٨ ــ النساء الحيات • ورد فى المصادر الاسلامية أن فى الجنة أنواعا من الحيوان يستخدم فى وصفها اسم الجنس وهو « الانعام » دون تخصيص كما جاء فى التنزيل وفى ابن عباس رضى الله عنه • وقد ذكر المعرى الوانا عديدة

من الحيوان والطير فى الفردوس خصصها كلها بالاسم : منها خيل الجنة ومنها الاسد ومنها الذئب ومن الطيـــور بالذات الطواويس والدجاج والبط وكل هذه تفاصيل يمكن أن ينسج منها الخصوصيات على العموميات لانها من مألوف الحيوان . ولكن وصف المعرى للحيات فى الجنة يدفعنا دفعا الى افتراض اطلاعه على مصادر أجنبية . والحية ليست غريبة على الفردوس ، فقد كانت فى الجنة الاولى وقد لعبت دورا فى غواية ادم وحواء فى التوراة ولكن الحية فى المعرى من طراز اخر . قال المعرى : « ثم يضرب سائرا فى الفردوس فاذا هو بروضة مونقة ، واذا بحيـــــات يلعبن ويتماقلن يتخافقن ويتثاقلن ، فيقول لا اله الا الله . وما تصنع حية فى الجنة فينطقها الله ـ جلت عظمته ـ بعد ما الهمها المعرفة بها جس الخلد فتقول : أما سمعت فى عمرك بذات الصفا الوافية لصاحب ما وفى ؟» والى هنا نستطيع أن نفترض أن المعرى كان يجتهد داخل اطار التراث الشرقي المألوف الذى يقرن الحية بالحكمة . ولكن حين نسمع حية المعرى تنشد الشعر فى الفردوس ونقرأ فى رسالة الغفـــران عن ابن القارح :

« ويهكر (أى يعجب) ـ أزلفه الله مع الابرار المتقين ـ لما سمع من تلك الحية ، فتقول هى : الا تقيم عندنا برهة من الدهر ؟ فانى ان شئت انتفضت من أهابى فصرت مثل أحسن غوانى الجنة ، لو ترشفت رضا بى لعلمت أنه أفضل من الدرياقة التى ذكرها ابن مقبل فى قوله :

سقتنى بصهباء درياقـــــة
متى ما تلين عظـــامى تلن

ولو تنفست فى وجهك لاعلمتك أن صاحبة عنترة تفلة صدوف (أى نتنة كريهة الرائحة) .. ولو أدنيت وسادك الى وسادى لفضلتنى على التى يقول فيها الاول .. (أبيات

لمجنون ليلى) • فينذعر منها - جعل الله أمنه متصـلا ، والطالب شأوه من تقصير منتصلا - ويذهب مهرولا فى الجنة ، ويقول فى نفسه : كيف يركن الى حية شرفها السم ولها فالفتكة هم ؟ فتناديه : هلم الى اللذة ، فانى لافضل من حية ابنة مالك التى ذكرها العبسى فى قوله :

ما ولدتنى حية ابنة مالك

سفاحا ولا قولى أحاديث كاذب

وأحمد عشارا أى معاشرة من حية ابنة أزهر التى يقول فيها القائل :

اذا ما شربنا ماء مزن بقهوة ••

ذكرنا عليها حية ابنة ازهرا

ولو أقمت عندنا الى أن تخبر ودنا وانصافنا ، لندمت ان كنت فى الدار العاجلة قتلت حيـة أو عثمانا (أى ثعبانا) •• »

فحية المعرى اذن ليست بالحية المألوفة وانما هى غانية تصورت فى صورة حية أو حية تتصور فى صورة غانية • هى كالغادة لاميا التى روت أساطير اليونان انها كانت ملكة على ليبيا ، وأن زيوس كبير الالهة عشقها واختصها وحدها بالقدرة على أن تخلع عينيها وتردهما الى مكانهما كلما أرادت وقد أنجبت منه أطفالا عديدين ، ولكن هيرا الغيور ، زوجة زيوس ، فتكت بجميع أطفالها لتنتقم منها فلم ينج منهم الا سكيلا • فجن جنون لاميا وتحولت الى حية ضارية تفتك بكل من تلقاه من أطفال • وأصبحت لاميا واحـدة من الامبوزات ، وهن جنيات كن يتشكلن فى كل صورة واشتهر عنها أنها كانت تتشكل فى صورة الغادة الفاتنة التى تسحر الفتيان بجمالها وتستدرجهم الى فراشها ثم تمص دماءهم وهم نيام • ومما اشتهر عن لاميا أنها كانت تستطيع أن تهب عينيها للابطال والحكماء والشعراء ليكتسبوا ببصرها

الرؤية الخارقة ثم تفتك بهم بعد أن تستـــــدرجهم الى فراشها ••

فالنساء الحيات اذن لا وجود لهن فى التراث الاسلامى كالنساء الاشجار أو النساء البجع • ولم تكن الحية هى الحورية الوحيدة فى جنة المعرى القادرة على التشكل أو التحول أو الحولة كما يسميها المعرى أو الميتامورفوز كما تسمى فى التراث اليونانى والرومانى • فكل من فى جنته من حور وجنيات قادرات على هذه الحولة • فابن القارح يلتقى بحورية فاتنة فى الفردوس ، ولكنه يراها نحيلةأكثر مما ينبغى فاذا هى تستوى أمامه ثقيلة الارداف وفق ما يشتهى : « ويخطر فى نفسه وهو ساجد ، أن تلك الجارية ــ على حسنها ــ ضاوية ، فيرفع رأسه من السجود وقد صار من ورائها ردف يضاهى كثبان عالج فيهال من قدرة الله اللطيف الخبير •• فيقال له : أنت مخير فى تكوين هذه الجارية كما تشاء ، فيقتصر من ذلكعلى الارادة » بمعنى اخر أن الفكر أو الارادة والامانى وحدها كافية فى الفردوس لتحقيق ما لا سبيل الى تحقيقـــــه • ومن يقرأ رحلة أرسطوفانيسللعالم الاخر فى « الضفادع » لا يستطيع أن ينسى ذلك المشهد الذى سخر فيه سيد الكوميديا من تشكل الحورية أمبوزا أمام عينى ديونيزوس على عكس ما كانت نفسه تشتهى ، فهو يريدها بنتا جميلة ليقبلها فاذا هى تارة حية وتارة عنزة الخ ••

٩ ــ يحدثنا المعرى عن أن من أشجار الجنـــــة شجر الصفصاف بالذات وهو ما لم يرد فى المصادر الاسلامية على هذا التحديد • فقد جاء فى رسالة الغفران على لسان ابن القارح : « فلما صرت الى باب الجنة ، قال لى رضوان : هل معك من جواز ؟ فقلت : لا • فقـــال لا ســــبيل لك الى الدخول الا به • فبعلت بالامر (أى تحيرت) • وعلى

باب الجنة من داخل شجرة صفصاف ، فقلت : اعطني ورقة من هذه الصفصافة حتى أرجع الى الموقف فآخذ عليها جوازا فقال لا أخرج شيئا من الجنة الا باذن من العلى الاعلى ، تقدس وتبارك ٠ » واذا كان ذكر الصفصاف لم يرد فى المصادر الاسلامية فتعيين المعرى لهذا النوع دون سواه من الاشجار لابد وأن يكون اما من رواسب ثقافته اليونانية ، واما من رواسب المعتقدات الفولكلورية الشائعة فى زمانه وقد رأينا كيف أن « أوديسا » هوميروس وغيرها من عيون الادب اليونانى كانت تصف العالم الاخر بأنه مطوق بسياج من شجر الصفصاف آنا وبأشجار الحور آنا اخر

١٠ ــ فى حديث المعرى عن الحور المغنيات فى الجنة يحدثنا عن المغنيتين اللتين اشتهرتا فى الجاهلية الاولى أيام سكن العماليق مكة قبل العرب حسب ما كانت تقول العرب وهو يحدثنا عنهما بطريقة تذكرنا بحوريتى سيرينا فى الاوديسا وما تواتر عنهما فى الادب اليونانى من أن جمال غنائهما يشغل البطل ورفاقه عن واجبهم المقدس ٠ ثم ان المعرى يحدثنا حديثا عن قصة الجرادتين حديثه عن أسطورة من أساطير الاولين ليست لها حقيقة تاريخية ، يقول المعرى :

« فيقول الشيخ ــ بلغه الله الامانى ــ مما يدل على أن المراد قيل بن عتر ، قولك : وجرادتان تغنيانهم لان الجرادتين فيما قيل ــ مغنيتان غنتا لوفد عاد عند الجرهمى بمكة ، فشغلوا عن الطواف بالبيت ٠٠

« ولقد وجدت فى بعض كتب الاغانى صوتا يقال غنته الجرادتان فتفكنت لذلك أى تعجبت له ، والصوت :

أقفر من أهله المصيف

٠٠ فبطن عروة فالغريف

هل تبلغنى ديار قومى

٠٠ مهرية سيرها تلقيف

يا أم عثمان نوليني
هل ينفع النائل الطفيف
« وهذا شعر على قرى
أقفر من أهله ملحوب

« ومن الذى نقل الى المغنين فى عصر هارون وبعده أن هذا الشعر غنته الجرادتان أن ذلك لبعيد فى المعقول ، وما أجدره أن يكون مكذوبا ! »

والمهم فى قصة الجرادتين ، اذا نحن تأملنا باطن الشعر، أن بها اثارا من قصة السعى للعودة الى الوطن : فقول الشاعر العربى :

هل تبلغنى ديار قومى مهرية سيرها تلقيف

(أى سيرها بالقرع) أشبه شىء بقول أوديسيوس : هل تبلغنى شواطىء ايثاكا سـفينة سوداء تتخبط بين الجزر والصخور ، ويبدو ان صح هذا أن العـرب كانت تعرف صيغة صحراوية لا بحرية من قصة أوديسيوس ورفاقه حيث يشغل البطل عن بلاده بما يصادفه فى طريقه من غوايات ومعوقات . والجرهمى فى روايات العرب أحد العماليق ، وكان سيد مكة نزلت عليه جماعة من قوم عاد تطلب السقيا والنجدة من القحط الذى ألم بقومها ولكنها أقامت فى قصره فى نعيم ألهاها عن نفسها وقومها فنسيت وطنها وما جاءت تبحث عنه . ولكن بدلا من السفر على ظهر السفينة نجد السفر هنا على ظهور الافراس والمهارى . وأيا كان الامر فاشارات المعرى الى المومس الشهيرة شيرين صاحبة كسرى التى تشبه الكأس النجسة تغسل وتملأ بأفخر النبيذ فيقبل عليها كل الندماء بشراهة ، اشارات تحتاج الى مزيد من التحقيق بسبب تواتر اسم سيرينا اوكيرينا فى الادب اليونانى على أنها النموذج الاشهر للبغى المتمرسة فى ارضاء الرجال كما جاء فى « الضفادع » لارسطوفانيس

وليس ما ذكرت كل شيء : فهناك فى جنة المعرى مشاهد وأشياء أخرى كثيرة لم يرد لها ذكر فى المصادر الاسلامية كوصفه للصيد والقنص فى الفردوس الذى اشترك فيه ابن القارح مع عدى بن زيد العبادى ومع أبى ذؤيب الهذلى، أو وصفه للمآدب فى الجنة « فتوضع الخون من الذهب والفواثير من اللجين » ، وعلى الجملة فهى تذكرنا بالمآدب التى أقيمت لاوديسيوس ورفاقه فى عصر الحورية كيركا ذات الغدائر المجدولة . ثم هناك صورة الحـــور يعملن بالرحى « فرحى من در ورحى من عسجد وأرحاء لم ير أهل العاجلة شيئا من شكل جواهرهن »

أليس من حقنا بعد كل هذا أن نتساءل من أين جاء المعرى بكل هذه المواقف والمشاهد والصور ما دام لم يرد لها ذكر فى المصادر الاسلامية ؟ ثم أليس من حقنا بعد كل هذا أن نفترض أن المعرى كان مثقفا فى تراث اليونان القديمة شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من أدباء عصره ، وانه قرأ هوميروس وأرسطوفانيس ولوسيان على أقل تقدير سواء فى ترجمات عربية ضاعت أو فى نصوصها الاصلية ؟ بل أليس من حقنا أن نشتبه فى أن المعرى كان عارفا بلغـة اليونان يقرأ فيها أدب اليونان ، بعد كل ما رأيناه من وصف البيئة المحيطة به ومن وصف نشأته وتعليمه الرسمى ؟ لقد كانت أنطاكية واللاذقية بصفة خاصة وحلب الى حد ما مراكز من مراكز الثقافة الهلينية فى عصر المعرى ســـواء بعلة مجاورتها لتخوم بيزنطة أو بعلة احتلال الروم اياها أكثر من قرن كامل وهذه هى البلدان الثلاثة التى تقول لنا سير المعرى انه تلقى فيها تعليمه الرسمى حتى تجاوز العشرين وتنقل بينها حتى رحلته البغدادية وهو فى الخامسة والثلاثين . وحين نقرأ عن المعرى أنه درس بدير فى اللاذقية على راهب من الرهبان علوم القدماء ، أليس من حقنا أن

نستخلص أن علوم القدماء هذه التى كان يحفظها ويعلمها رهبان الروم فى أديرتهم لم تكن سوى الادب اليونانى والفلسفة اليونانية بصفة خاصة ؟ ان الصورة التقليدية التى ترسم لادباء العرب لا تحفل كثيرا بالبحث فى مدى ثقافتهم الاجنبية يونانية كانت أو فارسية وفى لونها وفى مدى تأثرهم بها ، بل ولعلها توحى بأنهم لم يكونوا على علم بشىء الا بالتراث العربى وحده ، وهذا عكس ما نعرفه عن التواصل الثقافى منذ عصر المأمون بين حضارة العرب وما جاوزها من حضارات

ان الصورة التى رسمها القفطى فى أخبار الحكماء لحنين ابن اسحاق وقد أطلق شعره على طريقة الخنافس ومشى يتغنى فى شوارع بغداد بأشعار هوميروس فى لغتهـــا اليونانية تدل على أن مؤرخى الادب العربى ، ولا سيما المحدثين منهم ، لم يتمثلوا بعد الجو الثقافى والادبى والفنى الجاد المعقد المترف الذى كانت تعيش فيه حواضر العالم الاسلامى منذ عصر المأمون حتى عصر المعرى . وهذا بحث ينبغى أن يفتح فيه باب الاجتهاد من جديد لالقاء مزيد من الضوء على الادب العربى وتاريخه . فكما أن أوروبا لم تكن فى عزلة عن تراث العالم العربى ، كذلك لم يكن العالم العربى فى عزلة عن تراث الاوربيين

هذا ما يمكن أن نرجح أن المعرى قد تمثله من تراث اليونان أو من التراث الفولكلورى الشائع فى عصره وبيئته، فلنر بعد هذا ماذا أخذ دانتى صاحب الكوميديا الالهيـــة من التراث الاسلامى فى تصوير الجحيم والمطهر والفردوس

الكوميديا الإلهيّة: الجحيم

منذ أن اصدر المستشرق الاسبانى اسين بلاسيوس كتابه الخطير « الغائية الاسلامية والكوميديا الالهية » المعروف « بالاسكاتالوجيا الاسلامية » واثبت فيه ظنه بوجود صلة نسب حميم بين « الكوميديا الالهية » وقصة المعراج من جهة ، وبين « الكوميديا الالهية » و « رسالة الغفران » من جهة اخرى ، انفتح باب الاجتهاد على مصراعيه حول هذا الموضوع الخطير فى باب الادب المقارن. وقد كان لب الحديث حول هذا الموضوع قائما على حصر وجوه الشبه بين ملحمة دانتى العظيم ومصادرها الاسلامية ، ولكن السؤال الذى لامفر من طرحه : الا وهو: من أين لدانتى بهذه المصادر الاسلامية يطلع عليها ويتأثر بها اذا كان لم يعرف عنه انه كان يعرف العربية ؟ هذا السؤال الذى لامفر منه ظل حائرا الى سنوات قليلة ، او على وجه التحديد حتى نشر المحقق الاسبانى خوزيه مونيوز سندينو عام ١٩٤٩ نص مخطوطات ثلاثة لقصة المعراج مترجمة الى الاسبانية واللاتينية والفرنسية فى عهد الفونسو العاشر الشهير بالفونسو العالم ملك كاستيل (قشتالة) باسبانيا (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤) . اما المخطوط

اللاتينى فقد عثر عليه فى المكتبة الاهلية بباريس ضمن أوراق ترد على الاسلام من وجهة نظر مسيحية وضمن ترجمة لاتينية للقرآن الكريم · واما المخطوط الفرنسى فقد عثر عليه فى مكتبة البودليانا بجامعة اكسفورد ، والمخطوطان من اواخر القرن الثالث عشر واوائل القرن الرابع عشر ، أى انهما دونا فى حياة دانتى صاحب « الكوميديا الآلهية » (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) · وهناك نص على أن هاتين الترجمتين اللاتينية والفرنسية قد ترجمتا عام ١٢٦٤ أى قبل مولد دانتى بعام ، وانهما نقلتا عن الترجمة الاسبانية بقلم سكرتير ايطالى فى بلاط الفونسو العاشر يدعى بونافنتورا دى سينا · واما الترجمة الاسبانية الاصيلة فقد نقلها عن العربية يهودى اسبانى اسمه دون ابراهام الطليطلى المعروف بالحكيم وهو ايضا مترجم ابن الهيثم وقد ضاعت وانما وجدت بدلا منها ترجمة اسبانية نقلها رجل يدعى بيدور باسكوال عن النص اللاتينى · ومعروف ان كل هذه الترجمات كانت بأمر الفونسو العاشر ، وهى تحمل عنوان « معراج محمد » · وهناك مخطوطان اخران باللاتينية لقصة المعراج من العصور الوسطى احدهما موجود فى مكتبة الفاتيكان والاخر فى ايرلندا · اما القرآن الكريم فقد ترجم فى اسبانيا اكثر من مرة قبل الفونسو العاشر ، ومنها الترجمة التى ظهرت حوالى ١١٥٠ اى قبل مولد دانتى بأكثر من مائة عام

وغزارة هذه المخطوطات اللاتينية والفرنسية والاسبانية لقصة المعراج فى عصر دانتى لاتدل فقط على انها كانت فى متناول يده ، بل تدل ايضا على انها كانت كغيرها من المترجمات عن العربية من مألوف الكتب التى كان يتداولها المثقفون فى عصر دانتى ، بل كانت جزءا لايتجزأ من ثقافتهم الانسانية والدينية يومئذ

وقد أتيح لى أن أقارن الترجمتين اللاتينيةوالفرنسية القديمة على اشهر النصوص العربية المعتمدة فوجدت انهما لم تنقلا عن « قصة المعراج » فى ابن عباس رضى الله عنه ، ولا عما ورد فى « صحيح » البخارى و « صحيح » مسلم والتفاسير الكبرى عن قصة المعراج ، لانهما تشتملان على تفاصيل عديدة لم يرد لها ذكر فى هذه التفاسير . ومن هنا فلابد من افتراض انها مترجمة عن رواية عربية ضائعة لقصة المعراج ربما كانت شائعة فى الاندلس فى القرن الثالث عشر او قبله رواية لانعرف من راويها . اما انها مترجمة عن نص عربى وليست مؤلفة باللاتينية رأسا بقلم أوروبى استوحاها من قصة المعراج المعتمدة فهذا مالا شبهة فيه لانها تشتمل على فقرات عديدة مسهبة مطابقة حرفيا للروايات المعتمدة لقصة المعراج ، وكل مافى الامر انها تشتمل على اضافات لم يرد لها ذكر فيما لدينا من روايات مؤصلة من الحديث الشريف وبعد ظهور هذه المخطوطات اللاتينية والفرنسية والاسبانية لترجمة قصة المعراج يصبح السؤال الاول فى هذا الموضوع هو : هل اعتمد دانتى فى « الكوميديا الالهية » على ماتعلمه من قصة المعراج وحدها ام انه كان على علم ايضا « برسالة الغفران » . وقد اشتبه بعض المستشرقين فى تأثره بكتابات ابن عربى وغيره من فلاسفة الاسلام ومتصوفته وهو أمر مرجح ، ولكن فى اعتقادى ان اكبر مؤثرين فى بناء « الكوميديا الالهية » كانا بحسب الترتيب فى الاهمية هما : « قصة المعراج » اولا و « رسالة الغفران » ثانيا وقد رأينا ان « قصة المعراج » كانت فى متناول دانتى فى ترجماتها الاوروبية ، وليس يستبعد ان « رسالةالغفران» كانت ايضا فى متناول يده فى ترجمة لاتينية ضائعة لان

أوجه الشبه بينها وبين « الكوميديا الالهية » أوضح مما يمكن ان ينسب الى محض المصادفة او توارد الخواطر بين الشعراء

والهيكل العام « للكوميديا الالهية » يقوم على ان دانتى يروى قصة رؤيا أو حلم زار فيه الاخرة . وهو يبدأ بقوله انه فى الليلة السابقة للجمعة الحزينة من عام ١٣٠٠ (وكان يومئذ فى الخامسة والثلاثين او مايسميه منتصف العمر) ضل الطريق القويم (أى سار فى طريق الغواية) واستولى عليه نعاس ثقيل فألقى نفسه وسط غابة ظلماء وحشية محفوفة بالمهالك ، وما لبث أن وجد نفسه عند سفح تل مشرق بضوء الشمس بلفه بعد أن اخترق الغابة الظلماء ، فهدأت مخاوفه وبعد ان اراح جسده قليلا اخذ فى صعود التل ولكن سرعان مااعترضت طريقه فهدة مرقشة (رمز غوايات الجسد) ثم اعترض طريقه أسد ضار (رمز الكبرياء والعنف) ثم اعترضت طريقه ذئبة جائعة (رمز الجشع) ، فعجز عن صعود التل وارتد على عقبيه . وهنا تجلى له شبح الشاعر فرجيل فاستنجد به دانتى فأخذ فرجيل يحثه على ارتقاء ذلك التل المشرق لان فى ارتقائه بلوغ السعادة والصفاء . فأدرك دانتى انه ليس فى الدنيا ولكن فى العالم الاخر حيث اشباح الموتى ووعد فرجيل دانتى ان يكون قائده ودليله فى الاخرة قائلا أنه سيطوف به فى عرصات الجحيم حيث الخطاة يصرخون من عذاب جهنم ، ثم يطوف به فى ارجاء المطهر يرى الخطاة راضين بنار المطهر أملا فى ان تطهرهم ناره من ذنوبهم فيخرجوا منها انقياء مؤهلين لخلود الفردوس . وحين يخرجان من المطهر سوف يسلمه فرجيل الى طيف اخر يقوده الى الفردوس ويجوس به خلاله ، طيف بهى اكرم من طيف فرجيل واصلح منه لدخول النعيم وهو طيف

بياتريس ، ففرجيل كان فى حياته من العصاة والله لا يسمح بدخوله الجنة · وهكذا تبدأ هذه الرحلة الشهيرة

وينتاب دانتى خوف شديد فيشجعه فرجيل على الصعود قائلا انه ينبغى عليه أن يتأسى به ، فهو أى فرجيل كان « معلقا » مع نفر غفير فى « ليمبو » فلا هو فى الجنة ولا هو فى الجحيم ، ثم جاءته سيدة بهية الطلعة عيناها الوضاءتان تتلألئان كأنجم السماء وطلبت الى فرجيل أن يخف لنجدة دانتى فى طريق الاخرة . قالت السيدة : انا بياتريس التى تأمرك أن تمضى اليه . أتيت من مكان احب ان أعود اليه . والحب هو الذى هز قلبى والحب هو الذى أطلق لسانى وعندما اكون امام الله مولاى ، لسوف امتدحك عنده كثيرا · هذه هى بياتريس التى كانت عند دانتى رمز المعرفة اللدنية او الوحى الالهى الذى به وحده يستطيع الانسان ان يتلقى الكلمة ، وبها وحدها تفوق الانسان على سائر احياء الخليقة خلا الملائكة عند دانتى . وهى لا تخاف النزول من ضياء النعيم الى حيث الخطاة « لان الله وله الحمد خلقنى بحيث لاتشقينى بأساؤكم ولا تحرقنى هذه النيران » . فالذى يحس فى الملكوت بالام الخطاة عند دانتى هى « السيدة الرحيمة » أى مريم العذراء ، وهى التى أرسلت الى بياتريس لوتشيا رمز اللطف الالهى وهى جالسة الى جوار راشيل او راحيل رمز التأمل فى الالهيات لتستنهض بياتريس لانقاذ حبيبها دانتى الذى ترك العالم الصاخب شوقا اليها وهو الان يتعذب من أجل لقياها

وحين اطمأن دانتى الى أن السماء ترعاه بعنايتها ممثلة فى هؤلاء النسوة الثلاث تشجع فؤاده الخائف واقبل على رحلته المخوفة بجنان ثابت يهديه دليله فرجيل فى طبقات الجحيم ··

وبلغ دانتى باب جهنم مدينة الاحزان ، فقرأ النقش على الباب يقول : اتركوا كل أمل ايها الداخلون . وقاده فرجيل الى مدخل الجحيم فسمع الانين والاهات والتنهدات والعويل الفظيع الذى مزق الهواء المظلم . قال لفرجيل : ومن هؤلاء يامعلمى ؟ فأجابه فرجيل : هذه الارواح الشقية هى ارواح من عاشوا بلا رذيلة ولا فضيلة، وهى تشقى على هذا النحو . وقد اختلط بها الملائكة الذين فى ثورة ابليس والعصيان الاول لم يتمردوا على الرحمن ولم يؤازروا ابليس بل وقفوا على الحياد لا يفكرون الا فى أنفسهم . ثم يبلغ دانتى شط نهر عظيم ، هو نهر اخيرون وفيه ملاح هو خارون ينادى فى الارواح التى ينقلها من الجحيم الى المطهر بزورقه .. ويرفض الملاح ان يفسح لدانتى مكانا فى زورقه فقد كان يعلم انه ليس ممن كتبت عليهم لعنة الجحيم . ثم زلزل هذا الوادى زلزاله فارتعب دانتى وتصبب عرقا وثارت فى هذا الوادى الكئيب الزوابع فانبثق منها نور قرمزى ملك عليه كل حواسه فسقط مغشيا عليه . ثم قعقع رعد عظيم فأفاق من اغمائه فوجد نفسه وقد عبر الى الشاطىء الاخر ، وهكذا دخل منطقة الجحيم

واذا الجحيم مقسم الى تسع دوائر وطبقات كل منها داخل الاخرى أبعدها عن المركز اقلها عذابا وكلما اقتربت من المركز ازدادت فيها الويلات . وفى الطبقة الاولى واسمها لمبو راى دانتى ارواح الصالحين الذين لم يعرفوا نعمة الايمان وجدهم فى الدائرة الاولى التى تحف بالهاوية كالزنار . ولمبو كلمة مشتقة من لمبوس اللاتينية ومعناها الحافة أو التخوم ، فنحن اذن فى حافة الجحيم . وهنا لم يسمع دانتى عويلا بل سمع تنهدات مزقت الهواء .

هنا كانت الارواح حزانى ولكن بغير تعـذيب . وعـلم فرجيل دانتى ان مارآه هو ارواح الصـالحين من غير المؤمنين بالله ، لهم اخف طبقات الجحيم الى أجل ، لان صالح الاعمال وحده لايغنى عن الايمان بالله . هؤلاء هم الاخيار من اهل الوثنيات الاولى عقابهم ان يعيشوا « فى رغبة ولكن دون أمل » فى تحقيق هذه الرغبة . كذلك علم فرجيل دانتى ان اول من خلصهم الله بالكلمة من هامش الجحيم الذى يعيش فليه أخيار الوثنيات الاولى وادخلهم جنة الايمان والرضوان كانوا أبانا ادم والاخيـار من سبط هابيل ونوح وموسى وابراهيم الخليـل وداود . كذلك رأى دانتى من هامش الجحيم أعاظم الشعراء من أخيـار الوثنية لان حكمتهم وفلسفتهم قربتهم جدا من الايمان. رأى هوميروس وهوراس واوفيد ولوكان . ثم بلغنـا مشـارف قصر كريم طوقته الاسوار العالية سبع مرات ومن حوله جرى جدول بهى يحميه من العابرين . وعبرنا الجدول وكأنه من التربة اليابسة ودخلته مع هؤلاء الحكماء سبعة أبواب حتى بلغنا مرجا خضرته ناضرة . وهنـاك رأينا قوما عيونهم هادئة ونظراتهم وقورة تفيض بجـلال الامرة . » وفى هذا الروض رأى دانتى أبطال القدماء رجالا ونساء : رأى اليكترا وهكتور وانياس وقيصر وكاميـلا وبنثيسيليا والملك لاتينوس وبنته لافينيـا . كذلك رأى بروتوس قاهر تاركوين ورأى لوكريسيا وجوليا ومارسيا وكورنيليا ولا يلفت نظرنا فى كل هذا الا انه رأى ايضـا صلاح الدين الايوبى مع هذا الحشد من ابطال اليـونان والرومان .كذلك رأى دانتى فى هـذا الروض اعـلام الفلاسفة : المعلم الاول أرسطو ، ومعه سقراط وأفلاطون وديموقريط وديوجـين وأناكساجـوراس وطاليس

وامبادوقليس ، وهرقليط وزينون ومعهم أورفيوس وشيشرون ولينوس وسنيكا وأقليدس وبطليموس الجغرافى وابوقراط وابن سينا وجالينوس وابن رشد وآخرون من الحكماء والابطال كلهم كانوا يقيمون فى وادى النور القرمزى الخافت ، نور الحكمة والفلسفة ، وهو واد النور فيه خافت لانه نور العقل وليس نور الايمان الباهر . هؤلاء مع الاخيار غير المؤمنين هم أقرب الناس الى الجنة ولكنهم ينتظرون لطف الله على هامش الجحيم

ثم يدخل دانتى الدائرة الثانية او الطبقة الثانية من الجحيم ، فاذا هو فى واد ليس فيه شىء يضىء ، وانما فيه عذاب يدفع الخطاة الى العويل . ورأى دانتى مالكا خازن النار الذى يسميه مينوس يكشر عن انيابه ويفحص الخطاة وهم يدخلون : فهم يعترفون امامهم بخطاياهم وهو يقضى بينهم فيوزعهم على طبقات الجحيم كل بحسب جرائره ويعرف دانتى ان الطبقة الثانية من الجحيم هى جحيم العشاق الاثمين الذين كانوا يتمرغون فى ملذات الجسد . ويرى بينهم الملكة سميراميس التى خلفت زوجها نينوس على عرش نينوى ببابل ، ويرى ديدو صاحبة انياس التى قتلت نفسها فى سبيل الحب ثم يرى كليوبترا ذات الشهوات العظيمة ويرى هيلانة التى شقى القدماء لغرامها كذلك يرى من العشاق آخيل عاشق بوليكسينا وباريس عاشق هيلانه وتيرستان عاشق أيزولدا ، والف عاشق وعاشقة غير هؤلاء ويخاطب دانتى من اطياف العشاق طيف فرانشيسكادى ريمنى الشهيرة صاحبة باولو والغرام الدامى . فقد كانت فرانشيسكا بنت مولى رافينا متزوجة من أبن مالاتيستا مولى ريمنى ، ثم عشقت أخا زوجها باولو عشقا تحدثت به الاساطير ، وانتهى العاشقان نهاية فاجعة حين فتك بهما الزوج نحو عام ١٢٨٥ .

وقالت فرانشيسكا لدانتى عن موعد غرامها الآثم لباولو : « كنا يوما نستمتع بقراءة قصة لانسيلوت وكيف قهره الحب وكنا فى خلوة وليس للشكوك الينا سبيل . وكم من مرة قرأنا فالتقت عينانا وامتقع وجهانا ، ولكن موقفا واحدا هو الذى قهرنا . فما ان قرأنا عن هذا العاشق وهو يطبع قبلة على صدر جوينيفير حين اضاءته البسمة التى كان يتمناها من قلبه ، قبل ثغرى المرتعش باولو حبيبى الذى لن يفرقه عنى شىء . وكان الفارس جالاهاد هو الذى كتب كتاب حبنا . وفى ذلك اليوم لن نقرأ فى الكتاب مزيدا »

وفيما كانت فرانشيسكا تروى قصتها على دانتى كان صاحبها باولو ينتحب انتحابا مريرا ، غاص له قلب دانتى فسقط مغشيا عليه

ثم انتقل دانتى يقوده فرجيل الى الطبقة الثالثة من الجحيم حيث يتعذب النهمون والشرهون ، فوجدها مكانا لعينا باردا قارس الزمهرير غزير الامطار لا يعرف الصفاء، مياهها مظلمة والبرد والثلج يتساقطان فيها مدرارا وأرضها عفنة وينبح فيها كلب جهنم كربيروس أو سربيروس ذو الحلوق الثلاثة والعيون الحمراء والمخالب والانياب الشداد الذى يبقر بطون الخطاة . ومن هذه الطبقة من الجحيم يلتقى دانتى بمن اشتهروا فى التاريخ بشراهتهم الفظيعة

وفى الطبقة الرابعة من الجحيم يجد دانتى نفسه بين البخلاء والمبذرين . وفى الهاوية الرابعة حيث العذاب اشد منه فى الهاوية الثالثة يلتقى دانتى بمن كان همهم فى الدنيا جمع المال او تبديده . وفى هذه الطبقة الثالثة يلتقى دانتى بالبابوات والكاردينالات وبكهنة الكنيسة الذين شغلوا بجمع المال فى الدنيا . ثم التقى ايضا

بالخطاة الذين اعماهم الغضب فى الدنيا الى ارتكاب الاثام مثل فيليبو ارجنتى . وهنا بلغ دانتى نهر الاعـــراف (الاستيكس) ووجد الناس فى أوحاله ومستنقعاته يتعذبون وفى الجحيم الخامس يصل دانتى بعد عبور الاعراف الى مدينة هاديس أو ديس كما كان الرومان يسمونها وكانت كلها سعيرا من نيران تحيط بها خنادق عميقة واسوار خيل لدانتى انها مصنوعة من الحديد . وكان عند ابوابها آلاف مؤلفة من الجن الذين هووا من السماء فقد كانوا من قبل ملائكة . وأوصدت الجن باب جحيمها فى وجه دانتى . ولكنه استطاع ان يتسلل الى مدينتها من باب ليس له مزلاج ليشهد مافيها من الوان الآثام والوان العـــذاب وفى مدينة أريس رأى الفوريات الثلاث : ربات الانتقـام وقد لطختن دماء الضحايا وكانت لهن أجســاد النساء وسلوكهن ولكن كن يتسربلن بلباس الحيـــات الخضراء وكانت لهن مكان الشعر ثعابين ذات قـــرون ، وكانت أسماؤهن ميجارا واليكتو وتيسيفون ، وقد كن وصيفات برسيفونا ربة عالم الظلمات وكن يمزقن اثداءهن باظافرهن . وكانت تسكن هذا الجحيم الخامس مدوزا التى تستطيع ان تحيل دانتى الى عمود من حجر . ولكن ملكا من النساء جاء وانقذه من هذا الجحيم

وهكذا دخل دانتى الطبقة السادسة من الجحيم فوجدها خاصة بالزنادقة ، أو المهرطقين ووجد فيهـــا ابيقور وشيعته ووجد فيها النبيل كافالكانتى والكاردينـــال أوبالدينى وفردريك الثانى وأمثالهم ممن أنكروا وجـــود الروح كذلك رأى دانتى قبر البابا استاس الذى ضـــل بعد ايمان ..

ثم انتقل دانتى الى الجحيم السابع فوجد ثلاث دوائر: فى الدائرة الاولى رأى القتلة والطغـــاة وسفاكى الدماء

وقطاع الطرق ورأى نهرا مياهه دماء نغلى وفيـــه كان يسلق الاسكندر وديونيزيوس طاغيـــة سيراكيـــوز وأتيلاوبيروس وغيرهم من طغاة ايطاليا وســواها . وفى الدائرة الثانية رأى جحيم المنتحرين ، وكان هذا الجحيم عبارة عن غابة أشجارها من الرجال الذين قتلوا انفسهم وكانت هذه الاشجار تنتحب ويسمع لها عويل :

« وسمعت عويلا منبعثا من كل جانب ولم أر احــدا ينتحب فذهلت وتوقفت عن المسير . واعتقد ان معلمى اعتقد انى اعتقدت ان كل هذه الاصوات انبعثت من قلب تلك الجذوع من أناس اختبأوا فيها منا . فقال معلمى : لو كسرت غصنا من أية شجرة من هذه الاشجار انقطعت أفكارك ثم مددت يدى قليلا ونزعت فرعا صغيرا من غصن شجرة شوكية هائلة فصرخ جذعها قائلا : لماذا تكسرنى ؟ واظلم لونه حتى صار بلون الدم وصاح ثانية يقول : لماذا تكسرنى ؟ أليس فى قلبك ذرة من الرحمة ؟ انما كنـــا رجالا والآن قد اصبحنا جذوعا . ولو ان أرواحنا كانت أفاعى لكانت يدك أرحم بنا حقا »

وكان الفرع المكسور يشتعل من طرف ويقطر دما من الطرف الاخر وكان يســـمع له آزيز فاختلطت بالدماء كلماته .. هكذا كان عقاب المنتحرين ، أن يتحولوا الى أشجار اجتمعت منها غابة عظيمة فى الهاوية السابعة من جحيم دانتى وكانت تخرج الهاربيات او ربات الانتقـــام وتأكل اوراقها

اما الدائرة الثالثة من هذه الهاوية السابعة من جحيم دانتى فقد كانت دائرة من الرمال المحترقة وكان يعذب فيها أعداء الله وأعداء الطبيعة وأعداء الفن فى الحياة وكانت تسقط عليهم جمار من نار من غـــزارة الثلوج على قمم الالب . وفى هذه الدائرة من الجحيم السابع تجرى انهار

الجحيم الثلاثة وهى اخيرون واستكس وفليجيثون نهر الدم الذى يغلى وتلتقى هذه الانهار الثلاثة فتكون بحيرة كوكيتوس . وهذه الانهار الثلاثة تنبع من مكان ما فى الدنيا هو جبل ايدا الشهير بجزيرة كريت حيث ولدت الربة ريا ولدها زيوس كبير الالهة وأخفته من غضب أبيه حتى لا يفتك به وهو بعد رضيع • وداخل هذا الجبل يقف شيخ عظيم منتصب القامة وقد ادار ظهره شطر دمياط ووجهه نحو روما ، اما رأسه فمن ذهب خالص وأما صدره وذراعاه فمن فضة نقية ، واما جذعه حتى مفترق الساقين فهو من نحاس ، واما جزؤه الاسفل فهو من حديد فيما خلا قدمه اليمنى فهى من طين محروق ، وهو يقف على هذه القدم الفخارية اكثر الوقت ، وقد تشقق جسده فى كل مكان ماعدا رأسه الذهبى ، ومن كل هذه الشقوق تنهمر دموعه وتتدفق فتجرى منها انهار الجحيم ، الانهار الثلاثة ونهر رابع اسمه ليثا وهو نهر النسيان وصورة هذا الشيخ المعدنى القابع فى الجبل مقتبسة من حلم نبو خد نصر فى التوراة (دانيال ، ٢ – ٣١ – ٣٣) • وهى ترمز لتاريخ الانسانية التى مرت أولا فى العصر الذهبى ثم فى العصر الفضى ثم فى العصر البرونزى ثم فى العصر الحديدى كما كان القدماء يقولون • وهذه الدموع التى تجرى من التمثال المتشقق فتملأ أنهار الجحيم هى دموع الاجيال المتعاقبة من البشر خطاة كانوا أو معذبين

وهكذ انتقل دانتى يقوده فرجيل الى الجحيم الثامن او الى الطبقة الثامنة من الجحيم . وكانت الهاوية عميقة وكان بلوغها صعبا فلن يجد بدا من امتطاء حيوان متوحش لعين اسمه جيريون لبلوغها حيوان يجتاز الجبال ويخترق الجدران وتنكسر عليه السهام والسنان والنصال ، وجهه

وجه رجل عادل فبشرته الخارجية تتجلى فيها كل معانى الخير ، ولكن ـ جسده جسد الثعبان وكانت له كفان يكسوهما الشعر حتى الباط ، وكانت على ظهره وصدره وجنبيه دوائر وحلقات ملونة » . ويركب دانتي ودليلة على ظهر جريون الذى يهبط بهما الى الهاوية الثامنه فى دوران حلزونى حتى بلغ بهما قاع الهاوية التامنة فتركهما عند صخرة خشنة وانطلق كالسهم واختفى . وكانت الهاوية الثامنة هى جحيم الفشاشين والمدلسين والمتملقين ، وكانت تنقسم الىسرر او بُوَج (بولجيا) كل بؤجة منها تجمع طائفة من الخطاة · ورأى فيها من ألوان التعذيب خنادق تطفح بالبراز والبول وقد اكتظت الخطاة فى اوساخها · وفى بؤجة من هذه البؤج رآى دانتى سمعان المجوسى الذى اشتهر بأن المسيح الدجال من أتباعه ومعهم البابا نيكولاس الثالث معلق من رجليه فراسه من أسفل يخاطب البابا بونيفاس الثامن الذى اغتصب الكرسى البابوى بالخديعة · ولصعوبة الانتقال بين هذه العرصات كان فرجيل يحمل دانتى على ظهره ينتقل به فى هذه المنحدرات ويرى البابوات الفاسدين (مثل كلمنت الذى نقل البابوية من روما الى افنيون) الذين أقبلوا على الدنيا وأحبوا الذهب والسلطان · وفى العرصة الرابعة رأى دانتى المنجمين والعرافين والسحرة وامامهم تيرسياس الذى كان يتحول باستمرار من ذكر الى انثى وبالعكس وكانت لهذه العرصات او البُوَج أبواب وكانت بينها كبارى تعبر. وفى العرصة الخامسة من هذه الهاوية الثامنة راى دانتى القضاة الظالمين المرتشين وشهود الزور والذين « من أجل المال يجعلون « اللا » « نعم » ويفر دانتى من العرصة الخامسة ويبلغ العرصة السادسة · فيرى فيها المنافقين يعذبون وقد لبسوا معاطف من الرصاص كساها طلاء من

ذهب وفى العرصة السابعة يرى اللصوص وقد القوا فى جحيم امتلأ بالثعابين • وفى العرصة الثامنة يرى المشيرين بالسوء مثل اوديسيوس وديوميد . وفى العرصة التاسعة يرى مثيرى الفتنة والشحان ودعاة الانتقام بين البشر • وفى العرصة العاشرة يرى المزيفين والغشاشين والكذابين . وفى آخر عرصة من عرصات الهاوية الثامنة، وهى العرصة العاشرة يرى دانتى العمالقة الذين اشتهروا بتحديهم لله وبتطاولهم عليه فيرى برج بابل فتبلبلت بسببه السنة البشر ويرى أوتوس وافيالت اللذين كدسا الجبال على الجبال ليبلغا السماء فصرعهم الله

وأخيرا يبلغ دانتى ودليله الهاوية التاسعة من الجحيم فاذا هى بحيرة من الجليد حيث البكاء وصرير الاسنان أعدت لتعذيب الخونة ويجدها من أربع دوائر : الدائرة الاولى لمن يخونون أقرباءهم واسمها كاينا ، والدائرة الثانية لمن يخونون اصدقاءهم والدائرة الثالثة لمن يخونون من يحسنون اليهم ، واسمها يهوذية ، وهم افظع انواع الخطاة وعذابهم أفظع عذاب وفى مركز الدائرة الرابعة من الهاوية التاسعة وهى مركز الجحيم الذى ليس بعده جحيم يرى دانتى ودليله ابليس وسط البحيرة عملاقا جسيما . وكان الشيطان دميم الهيئة بقدر ملاحته قبل سقوطه . وكان فى رأسه ثلاثة وجوه ، وجه فى مقدمة رأسه كان لونه قرمزيا من غضب العاجزين ووجهان يغطيان من منتصف الكتف الى الصدر : الايمن ابيض واصفر ممتقعا بالحقد والغيرة والحسد والآخر اسود بظلام الجهل وكأنه بلون الزنوج . وكان له جناحان جسيمان بلا رياش كأنهما جناحا خفاش هائل • وكان جناحاه يصطفقان ثلاث مرات فتهب رياح ثلاثة تجمد مياه كوكيتوس . وكانت له ست عيون تبكى دما ودمعا .

وكانت أفواهه الثلاثة تمزق بأسنانها ثلاثة خطاة هم يهوذا الاسخريوطى فى فمه الاوسط وبروتوس وكاسيوس (قاتلى قيصر) وعرف دانتى من رؤية الشيطان انه بلغ مركز الكون ، وان زيارته للجحيم قد انتهت فقد كان الشيطان مغروسا فى مركز الكون رأسه الى اسفل وقدماه الى اعلى.

ولم يبق الا أن يخرج من قاع الهاوية فتعلق برقبة دليله فرجيل الذى حمله زقفونة . قال فرجيل : « تعلق بى بقوة فعلى هذه السلالم لابد ان يكون انصرافنا من هذا الشر العظيم . » واخترق به فرجيل مركز الارض حتى بلغ به نصف الكرة الجنوبى وظل يسير به حتى اخترق به قشرة الارض فتلألأت امامهما نجوم السماء

هذه هى الصورة العامة التى رسمها دانتى للجحيم فى « الكوميديا الالهية » . وواضح من وصف دانتى لطبقات الجحيم التسع التى تنتهى عند مركز الارض انه لم يأخذ هذا الوصف من التراث المسيحى المألوف فى تصوير الجحيم ولكن من قصة المعراج فى التراث الاسلامى مع بعض الاختلاف فى التفاصيل عن المصادر الاسلامية الاصلية كرواية ابن عباس وما جاء فى « صحيح » البخارى و (صحيح) مسلم عن قصة المعراج اعتمادا على النص الاندلسى المترجم لقصة المعراج

١ ـ فتقسيم الارضين الى سبع أرضين مثل تقسيم السموات الى سموات سبع ثابت فى التنزيل الحكيم وفى ابن عباس الذى ذكر فى حديث المعراج ان مكان الجحيم فى الارض السابعة ، فقد جاء فى ابن عباس :

« وانفتح الباب فنظرت فيه الى مشرق من السماء الخامسة الى نحو الارض السابعة السفلى واذا بجهنم مظلمة ممزوجة بغضب الله ودخانها قائم واذا بملك عظيم

الخلقة مرهب النظر ظاهر الغضب شديد البأس صعب المراس بين عينيه عقدة لو أشرف بهـا على الارض لماتوا عن آخرهم وغارت منه البحار وتفطرت منه الجبال .. قال النبى صلى الله عليه وسلم : قلت يا أخى يا جبريل من هذا الذى اقشعر منه جلدى ورجف منه فؤادى فقال : يا حبيب الله هذا مالك خازن النار خلقه الله من غضبه وسخطه ولم يزل منذ خلقه الله وولاه جهنم لا يزداد الا غضبا على أعدائه . هذا وملك الموت عزرائيل لا يضحك أبدا » ..

هذا التقسم اخذه دانتى عن التراث الاسلامى ، ولكنه جعل السموات تسعا من فوقها « الامبيريوم » حيث عرش الله وجعل طبقات الجحيم تسعا تنتهى فى مركز الارض حيث ابليس مقيم . وحتى التقسيم التساعى بدلا من التقسيم السباعى نجده فى قصة المعراج المترجمة الى اللاتينية والفرنسية والاسبانية فى تاريخ كان يمكن دانتى من الاطلاع عليها وربما كان التقسيم التساعى قد جاء تحت تأثير افلوطين وفرفريوس ومدرسة الافلاطونية الحديثة بعامة لانها كانت مبنية على التواسيع أو التاسوعات وهى الدوائر التسع التى يتالف منهـا الوجود ومركزها النور الامثل الذى تخف نورانيته وتمتزج بالظلال كلما ابتعدنا فى تسلسل الدوائر عن مركز الاشعاع النورانى . ودانتى يسمى خازن النار مينوس بدلا من مالك

٢ ـ كذلك اخذ دانتى من التراث الاسلامى فكرة تصنيف المذنبين فى مختلف طبقات الجحيم بنسبة فظاعة شرورهم . وعن ابن عباس :

« فقلت له : ارنى جهنم فقال مالك ليس الامر لى . واذا النداء من العلى الاعلى لا تخالف حبيبى محمدا . فعند ذلك كشف عنها الغطاء ، فاذا هى سوداء ممتزجة

بغضب الله . وقيل ان نار الدنيا لها ضياء لانها غمست في بحر القدرة سبعين مرة حتى صار شعاع ونور ينتفع به فرأيت فيها سبعين ألف بحر من غسلين وسبعين ألف بحر من غساق وسبعين الف بحر من قطران وسبعين ألف بحر من رصاص مذوب ، على ساحل كل بحر سبعون الف مدينة من نار ، فى كل مدينة سبعون ألف قصر من نار ، فى كل قصر سبعون ألف تابوت من نار ، فى كل تابوت سبعون ألف صندوق من نار ، فى كل صندوق سبعون ألف صنف من العذاب ورأيت فيها حيات كأمثال النخل الطويل وعقارب كأمثال البغال ورأيت فيها سبعين ألف بئر من الزمهرير »

هذا عن تصنيف العذاب فى طبقـــات الجحيم اما عن تصنيف الخطاة فى الجحيم بحسب ذنوبهم فقد جاء فى ابن عباس :

« ورأيت نساء باكيات حزينات ينــادين فلا يجبـــن ويتضرعن فلا يرحمن : فقلت : من هؤلاء يا أخى ياجبريل؟ قال هؤلاء اللواتى يتزين لغير أزواجهن . ورأيت نســـاء عليهن سراويل من قطران وفى أعناقهن السلاسل والاغلال . فقلت من هؤلاء ياأخى ياجبريل ؟ قال : هؤلاء المستخفات بأزواجهن اللاتى تقول احداهن لزوجها ما أشنع وجهك وما أقبح شكلك وما أنتن ريحك .. ألم تعــلم بأن الذى خلقها خلقه وهو اله واحد . ورأيت نساء قد احترقت وجوههن والسنتهن مندلعات على صــدورهن فقلت : من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللواتى يقلن لازواجهن طلقنا من غير سبب . ورأيت نساء معلقات من شعورهن ويغلى دماغهن كغلى القدر .. فقلت من هـــؤلاء ياأخى يا جبريل ؟ قال : هؤلاء النساء اللاتى لا يغطين شــعورهن من الاجانب . ورأيت نساء معلقات بشعورهن ومكبــلات

بثديهن بطلابيب من نار فقلت : من هؤلاء ياأخى ياجبريل؟ قال : هؤلاء اللاتى كن يرضعن أولاد الناس بغير اذن أزواجهن . ورأيت نساء ارجلهن الى السنتهن وايديهن الى نواصيهن : فقلت من هؤلاء يا اخى يا جبريل ؟ قال: هؤلاء اللواتى لا يحسن العشرة ولا يحسن الوضوء قذرات الثياب والجسد لا يغتسلن من الحيض والجنابة ويتهاون فى صلاتهن حتى تفوت . ورأيت نساء صما بكما عميا فى تابوت من نار يخرج من دماغهن مثل الدهن من مناخيرهن وابدانهن منتنة تتقطع من الجذام والبرص فقلت من هؤلاء يا اخى يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتى اولادهن من غير أزواجهن ورأيت نساء معلقات من ارجلهن فى تنور من نار فقلت من هؤلاء يا اخى يا جبريل ؟ قال : هؤلاء يشتمن أزواجهن ورأيت نساء سود الوجوه يأكلن امعاءهن فقلت : من هؤلاء يا اخى يا جبريل ؟ قال :هؤلاء القوادات اللاتى يجمعن بين اثنين على الحرام. ورايت امرأة رأسها كراس الخنزير وبدنها كبدن الحمار وعليها الف نوع من العذاب فقلت من هذه المراة يا اخى يا جبريل ؟ قال : هذه النمامة التى توقع العداوة بين زوجها والجيران وتسعى بين الناس بالنميمة والكذب ، ورأيت امرأة على صورة الكلب والنار تدخل من فوقها وتخرج من تحتها والملائكة يضربون راسها بمقامع من حديد فقلت : من هذه يا اخى يا جبريل ؟ قال : هذه المحرشة بين الناس بالبغضاء

« ورأيت رجالا منقلبين على وجوههم وعلى ظهورهم صخرة من نار والملائكة يضربونهم بمقامع من حديد . فقلت من هؤلاء يا اخى يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللوطية الذين يأتون الذكران من العالمين . ورأيت رجالا ونساء مصفدات بأصفاد من نار وجباههم قد أسودت والحيات مطوقات

بأعناقهن تلدغهم فتهرى لحومهم ثم يعودون خلقا جديدا. فقلت : من هؤلاء يا اخى يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله . ورايت أقواما بين أيديهم لحم طيب ولحم خبيث وهم يأكلون الخبيث ويتركون الطيب فقلت من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين تكون لاحدهم امرأة فيتركها ويميل الى الحرام ، والتى تكون مع زوجها بالحلال وتميل الى الحرام . ورأيت رجالا ونساء ردت اقبالهم الى ادبارهم وادبارهم الى اقبالهم والمقامع ترشقهم والملائكة تسحبهم على وجوههم كلما ضربوا تلهب فى أجسادهم النار . فقلت من هؤلاء يا اخى يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يستكبرون على الناس بغير الحق الا ترى ان ابليس لما استكبر على آدم فقال أنا خير منه تقطعت أجنحته وخرج من الجنة ملعونا ؟ ورأيت رجالا ونساء سفافيد النار تدخل فى أدبارهم وتخرج من أفواههم . فقلت من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال هؤلاء الهمازون اللمازون الغمازون . ورأيت رجالا يرمون بشهب من نار فتقع فى أفواههم وأبصارهم وتخرج من اقفيتهم . فقلت من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يبتهون الناس ويرمون بينهم بالفتنة . ورأيت نساء معلقات بشعورهن فى شجرة الزقوم والحميم يصب عليهن فتهرى لحومهن . فقلت : من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال : هؤلاء النساء اللاتى كن يشربن الأدوية حتى يقتلن أولادهن خوفا من مطعمهم ومشربهم وتربيتهم الم يعلمن ان الله يطعمهم ويسقيهم ؟ وقد قال تعالى وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها — ورأيت نساء مقيدات بقيود من نار وقد فتحت أفواههن ولهيب النار يخرج من بطونهن فقلت من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء

المغنيات اللاتي يمتن من غير توبة . ورايت نساء على رءوسهن قطران والحيات تنهشهن فقلت من هؤلاء يا أخي يا جبريل ؟ قال : هؤلاء النواحات بالكراء اللاتي يفعلن ما نهى الله عنه وقد متن من غير توبة . ورايت رجالا ونساء في السعير والنار لها دوى في بطونهم تدخل من ادبارهم وتخرج من أفواههم . فقلت من هؤلاء يا أخي يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا . ورأيت رجالا ونساء يسقون من القيح والصديد كلما حصل في بطونهم شيء تمزقت جلودهم ثم يعودون خلقا جديدا فقلت من هؤلاء يا أخي يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون بالربا . ورأيت رجالا ونساء رءوسهم مغمورة في نار جهنم ويصب عليهم الحميم والزمهرير يلفحهم فيهرى لحومهم فقلت : من هؤلاء يا أخي يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء الذين يلقون العداوة بين الناس . ورأيت نساء قد مسخن واجسادهن سود كالقطران . فقلت : من هؤلاء يا أخي يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء اللواتي يصبغن شعورهن ويغيرن خلق الله . ورأيت النار وأهوالها وعقابها شديد لا تقوى لها الحجارة ولا الحديد ورأيت فيها أهوالا فداخلني منها رعب على ضعاف أمتي واذا بأكثر أهلها من النساء . ثم انطبق الباب وعاد كما كان »

فاعتماد دانتي على قصة المعراج واضح وصريح سواء في تصوره لطبقات الجحيم أو في تصنيفه لدرجات الذنوب والمذنبين . حتى النقش الذى جاء في الحديث الشريف عن ابن عباس وغيره ان الرسول قراه على باب السماء الخامسة قبل أن ينكشف له غطاء الجحيم مباشرة نقله دانتي فجعله نقشا على باب الجحيم وغير مدلوله بما يناسب ملحمته ومعتقداته . وبعض الاختلافات راجع

الى النص الاندلسى لقصة المعراج الذى أطلع دانتىعلى ترجمته وقد أفاض أسين بلاسيوس ومونيزسندينو فى وصف تأثر دانتى بابن عربى وبنصوص قصة المعراج وبرسالة الغفران بما لم يقنع الدكتورة بنت الشاطىء ولكنه اقنعنى

٣ ـ ليس فى قصة المعراج فى اى نص من نصوصها ذكر لاشخاص محددين بالذات فى الجنة فيما خلا بعض الأنبياء والملائكة المعروفين باسمائهم فهؤلاء نجدهم فى النعيم معينين باشخاصهم كذلك الحال فى الجحيم لا ذكر فيه الا لعزرائيل ملك الموت ومالك خازن النار . وانما فى قصة المعراج وصف لأهل النعيم وأهل الجحيم . وفكرة التقاء زائر العالم الآخر باشخاص محددين بالذات ممن عرفهم صاحب الرؤيا فى الدنيا أو سمع باخبارهم واعمالهم فكرة نجدها قوام « رسالة الغفران » وقوام « الكوميديا الالهية » معا وهذا ما يوحى بأن دانتى قد أطلع على صيغة ما من كتاب المعرى مترجمة او ملخصة فى احدى اللغات الأوروبية . ولا شك ان زيارات العالم الآخر فى الأدب اليونانى واللاتينى تتميز بلقاء الأبطال فى النعيم أو الجحيم . ولكن التفات دانتى الى مصير اخيار الناس فى العالم القديم قبل ظهور ديانات التوحيد والى مصير فلاسفة الوثنيات الأولى وحكمائها ، ووضعهم فى مدخل الجحيم وعلى هامشه حيث العذاب هين وحيث الامل فى النجاة اقوى ما يكون أو على الأصح فى « لمبو » أو المحبس القائم بين الجنة والنار يذكرنا باهتمام المعرى بمصير شعراء الجاهلية الاخيار ونجاتهم من جهنم بفضل اهتدائهم بالفطرة الى شىء قريب من الايمان الصحيح وهو ما لم يرد فى قصة المعراج كذلك يذكرنا جحيم الزنادقة فى دانتى بما جاء فى « رسالة الغفران » من وصف لعذاب

الزنادقة فى الجحيم وهو ما لم يرد فى قصة المعراج كذلك وصف دانتى لجحيم الجن يذكرنا بوصف المعرى لجنة العفاريت المؤمنين التى تقع فى مكان معزول من الجنة وهو ما لم يرد فى قصة المعراج . فاذا ما ذكرنا كيف ان فرجيل فى تنقله بين طبقات الجحيم حمل دانتى على ظهره آنا أو امتطى معه ظهر الجنية جريون لم يسعنا الا أن نذكر أيضا دعابات المعرى حين جعل ابن القارح يقترح على الجارية ان تحمله على ظهرها « زقفونة » حتى تكتب له « السلامة فى عبور الصراط وهى وسيلة للانتقال لم يرد ذكرها فى قصة المعراج »

وربما اخذ دانتى من المعرى ايضا تصويره لابليس وهو يرسف فى السلاسل والاصفاد فى الجحيم ، حيث يقول : فيطلع فيرى ابليس لعنه الله وهو يضطرب فى الاغلال والسلاسل ومقامع الحديد تأخذ من أيدى الزبانية . أو من قوله تعالى فى القرآن الكريم عن مآل الكافرين : « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه » وقوله : « أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم » (٥ الرعد ١٣) وقوله : « وجعلنا الاغلال فى أعناق الذين كفروا » (٢٣ سبأ ٣٤) وقوله : « اذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون » (٧١ غافر ٤٠) أو قوله : « انا اعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا » (٤ الانسان ٧٦ الخ) . وفى قصة المعراج لم يرد ذكر لابليس بين عرصات الجحيم . فهذه المقابلات وأمثالها تجعلنا نرجح أن دانتى كان على معرفة « برسالة الغفران » فى صورة من صورها الى جانب معرفته المحققة بقصة المعراج ومعرفته المرجحة بالقرآن الكريم

الكوميديا الإلهية : الفردوس

بعد « الجحيم » « المطهر » ، وبعد « المطهر » « الفردوس » : هذا هو الهيكل العام لزيارة دانتى للعالم الاخر . وقد كان دليل دانتى فى الجحيم هو الشاعر فرجيل اما دليل دانتى فى الفردوس فهو بياتريس حبيبة دانتى التى أتخـذ منها رمزا للتامل فى الالهيـات أو للمعرفة اللدنية . وفى رؤيا الفردوس رأى دانتى قبـة السماء وهى بيضاء ، ورأى فيها « سراج العالم » أى الشمس تسطع على العالمين ، ورأى بياتريس دليلته ، تلتفت الى الجـانب الايسر وتحدق فى الشمس . وكأنها نسر لا يخاف الضياء . وحدق هو فى بياتريس مثلما حدقت هى فى الشمس . ولطول التحديق فى ضياء بياتريس سقطت من دانتى طبيعته للبشرية وتحول الى جوهر بغير ناسوت . وكما نزل دانتى تسع طبقات من هاوية الجحيم حتى بلغ قاع جهنـم فى مركز الارض حيث رأى ابليس مغروسا كالتنين الهائل ، كذلك صعد على المعراج تسع سـموات حتى بلغ «الامبريوم» أوسماء العنبر التىتقع فيها « السماء الدرية » (الكريستال) حيث « المحرك الاول » كما يقول دانتى

وصعد الى السماء الاولى ، وهى سماء القمر ، وكانت تتقدمـه بياتريس فقالت له : « هيا اسم بعقلك واحمد الله الذى جعلنـا نتحد بالنجم الاول » ، وكان هذا النجم الاول ، او الكوكب الأول ، هو القمر فحمدا لله على أنه انتشاله من دنيا البشر ثم سـألها عن بقع القمر وما يقال على الارض من انها تصور قابيل وقد حمل غصن الشوك ليوقد به نارا وهو يقدم قربانه . وكان دانتى فى كل مرحلة من مراحل صعوده يزداد معرفة بالاسرار الالهية ، يسـأل فتجيبه معلمته بياتريس أو تجيبه الاطياف المباركة التى يلتقى بها من كل سماء يرقاها ، فكانت كل سماء تمثل درجة من درجات المعرفة ، وكان القمر أقربها الى الارض . وابتسمت بياتريس ونهته الى سذاجة حواس

البشر الذين لا يبلغون المعرفة الا من طريق الحواس ، وشرحت له نظام الكون الذى يقوم على انبثاق حركات الافلاك وخصائصها من مصدر اعلى هو المحرك الاول الموجود فى السماء الدرية الدائرة فى الامبريوم الساكن او سماء العنبر الساكنة ، وهذا المحرك الاول فى السماء التاسعة هو الذى يغذى كل ماتحته من سموات تسع بالحركة والخصائص من خلال محركات مباركة هى الملائكة ، فهى الادوات التى ينتقل بها كل شىء من عقل الله الى الخليقة . وفى السماء الاولى ، سماء القمر ، يلتقى دانتى بأطياف نساء صالحات ولكن صلاحهن غير تام . ويعرف من بياتريس ان هذه السماء الاولى خصصت لمن اعطوا العهد لله ثم لم يستطيعوا الوفاء بالعهد . ويلتقى دانتى بروح بيكاردا ، ويعلم منها انها كانت أختا عذراء من راهبات سانت كلير . وكانت بيكاردا رغم سكناها فى السماء السفلى أو السماء الاولى تضىء كحورية وضاءة وقد زالت عنها طبيعتها البشرية وتحولت الى حورية من حور الجنان ، وكانت هى وأترابها يعشن فى سعادة غامرة . وسألها دانتى قائلا : «أنتن يامن تعيش هنا فى سعادة ، الا تتمنين ان ترفعن الى مكان أعلى حتى تزداد رؤياكن ، وتنعمن بمزيد من الاحباء ؟ » فأجابته بيكاردا ــ باسمة : « أى أخى ان فضيلة الخير تهذب ارادتنا ، وتجعلنا لا نرغب الا فيما نملكه ، وهى لا تلهب ظمأنا الى شىء اخر . فلو اننا رغبنا فى مرتبة ارفع من مرتبتنا فان رغبتنا ستتعارض مع ارادة الله الذى خصص لنا هذا المكان .. وملك الملوك هو الذى ينفذ فينا ارادته ، وارادته هى سلامنا .. » ان بيكاردا كما تقول قد تبعت سيدة أعلى منها مرتبة فى الطهر وأعلى منا مرتبة فى النعيم هى سانت كلارا التى كانت مثلا نادرا فى الزهد ، وحين تبعتها أعطت العهد الا تتزوج طيلة حياتها وفرت من الدنيا وهى لا تزال بنتا صغيرة لتعيش فى زهد كامل مع القديسة كلارا . ولكن أهلها اخرجوها من الدير عنوة وأرغموها على الزواج فشقيت شقاء عظيما . ومثلها ايضا الاخت كونستانس بنت ملك صقلية . قصتها هى نفس قصة بيكاردا وضياؤها مثل ضيائها فى السماء السفلى ، سماء القمر . أعطين العهد أن يتبتلن فى الدير ثم حنثن بالعهد . وتساور دانتى الوساوس حول العدالة الالهية لانه لايفهم لهؤلاء النسوة ذنبا ما وقد أكرهن اكراها على قبول الدنيا ، ويظهر فى كلامه نوع من الاحتجاج على الحكمة الالهية ، فيأتيه الجواب : عذر لارادةناقصة لاتقاوم الشر او العنف ،وفى تاريخ الصالحين والصديقين أمثلة رائعة على مقاومة الشر او العنف والاساس فى الحكم الالهى أن الانسان مخير لا مسير ، وقد وهبه الله ارادة وهو يحاسبه على ممارسة هذه الارادة . ونحن لا نستطيع ان نفهم دانتى حق الفهم الا اذا ذكرنا انه كان يعبر عن الفلسفة المسيحية فى العصور الوسطى ، تلك الفلسفة التى كانت تفرض على الناس

الرهبانية والنسك فى الاديرة ، وتعد الحياة الدنيا مجرد معبر الى الاخرة كل مافيه مما يتصل بحياة الجسد شر ونجاسة ونقص . وبهذا المنطق كان ينبغى على بيكاردا وكونستانس مقاومة القسر الواقع عليهما لردهما من الدير الى الحياة وهما عند دانتى قادرتان على مقاومة هذا القسر ، لان نظامه الدينى الفلسفى يقوم على الاختيار لا على الجبر أو كما قالت بياتريس لدانتى فى النشيد الخامس من « الفردوس » : « ان أعظم هبة وهبها الله الكريم للخليقة وهو يخلقها ، وأعظمها تمشيا مع طبيعته الخيرة ، وأعظمها منزلة عنده ، كانت حرية الارادة ، التى اختص بها مخلوقاته العاقلة ، كل مخلوقاته العاقلة وليس غير مخلوقاته العاقلة . اختصهم بها فى الماضى ويختصهم بها فى الحاضر »

وبعد أن تعلم دانتى هذا الدرس فى السماء الاولى ، صعد الى السماء الثانية وهى سماء عطارد تقوده بياتريس ، وكانت هذه السماء مستقر الارواح المباركة التى قضت حياتها على الارض فى التماس المجد والشرف . وكان ظل الارض لا يزال بعضه ساقطا على سماء عطارد ، وهى فى درجة خفيضة من السموات ، فضياؤها ناقص فى الصفاء . لان أهلها تعلقوا بمجد الدنيا اكثر مما تعلقوا بمجد الاخرة وفى السماء الثانية التقى دانتى بالامبراطور المشرع جوستنيان « العادل » الذى حكم روما عام ٥٢٧ واشتهر بمدونة القوانين المعروفة باسمه واشتهر أيضا بأنه رد « النسر » الرومانى ، الذى كان رمز الامبراطوريةالرومانية من الشرق الى الغرب ، بعد ان كان قسطنطين قد نقله الى بيزنطة عام ٣٢٤ . وفى سماء عطارد لقنت بياتريس دانتى شيئا من الالهيات : علمته ان الانسان خير بالطبع او على الاصح ان الله خلق الانسان بفطرة خيرة ، وان سقوطه الذى ترتب عليه نفيه من الفردوس كان عقابا عادلا مستحقا لا ظلم فيه عن زلله وضلاله لانه أعطى القدرة ان يسير فى طريق الخير ولكنه تنكب عنه او كما قالت بياتريس فى النشيد السابع من « الفردوس » ، « هذه الفطرة حين كانت متحدة مع خالقها كانت صافية وخيرة ولكنها نفيت من الفردوس بفعلها هى لانها حادت من طريق الحق وحادت عن حياتها » وهذا يدل على عدالة الحساب فى الاخرة

صعد دانتى الى السماء الثالثة ، سماء فينوس أى سماء الزهرة ، تقوده بياتريس فى جنباتها . وفى سماء الزهرة التقى دانتى بكوكبة من الاطياف الباهرة التى سمت اليه فى نورانيتها لترضيه . وكانت « فى ذلك الجزء من بلاد ايطاليا الشريرة بين الريالتو (فى البندقية) احدى هذه الاطياف هى كونيتزا دا رومانو . قالته كونيتزا لدانتى : بين ينابيع البرنيتا والبيافا « فى جبال الالب » هناك تل ارتفاعه غير عظيم، سقط منه مشعل انقض على ذلك الاقليم فأشاع فيه لهيبا عظيما .

كان عنصرى من عنصره فقد ولدنا من منبت واحد . ويسموننى كونيتزا ، وانى أتلألأ هنا بالضياء لان نور هذا النجم قهرنى . وانى لاســلم بنفس راضية بسبب قسمتى ونصيبى ، وهو ماقد يبدو أمرا يسيرا للدهماء فى أرضكم . وهذه الجوهرة الساطعة العالية التى تزين جبين مملكتنا ، هذه الجوهرة التى تراها بجوارى وأقرب مايكون الى ، قد بقى صيتها العظيم الذى لن يخمد قبل أن تدور دورة القرن خمس مرات » والذى تريد كونيتزا أن تقوله هو انها تعرف أن خطيئة غرامها هى التى أنزلتها هذه المنزلة الخفيضة فى الفردوس فهى فى السماء الثالثة فقط لا تتجاوزها الى سماء أعلى منها . وهى مثل بيكاردا قانعة بمصيرها لانها تدرك خطيئتها التى غفرت لها ، اما الارواح المتمردة فهى وحدها التى تشك فى عدالة الحكم الالهى ، اما الجوهرة اللامعة المجاورة لها فهى طيف حبيبها فولكو او فولكيت المنسوب الى مرسيليا الذى كانت تعشقه أثناء الحياة . وقد كان فولكو فى شبابه شاعرا جوالا شهيرا من شعراء التروبادور عرف بالفسق والمجون ، ثم تاب وأناب وانقطع للعبادة حتى أصبح أسقف تولوز وقد مات عام ١٢٣١ . وما تعلمه دانتى فى سماء الزهرة هو ان الحب صاف نقى عذرى كذلك الحب الذى يملا الارواح فى سماء الزهرة ، هذه الارواح الاثمة ، بعد أن تطهرت من اثمها فى المطهر غفر لها ونسيت زللها وهى الان تبتسم فى سعادة غامرة لان القدرة الالهية غسلت قلبها من الشهوات . وقد كانت سماء فينوس هى اخر سماء سقط عليها ظــل الارض . وهو ظــل مخروطى الشكل بحسب ماعلم بطليموس فى علم الفلك . وفى دانتى أن ظل الارض حيثما يسقط سواء على سماء القمر او على سماء عطارد او على سماء الزهرة ، كان يتجلى فى ضعف الارادة امام قوى الشر كما فى قصة بيكاردا او فى الاطماع البشرية كما فى قصــة الامبــراطور جوستنيان او فى العشق المسرف كما فى قصة كونيتزا . وهذا هــو السبب فى حشر ارواح هؤلاء الخطاة بعد خلوصهم من المطهر فى المراتب المظللة من الفردوس ، وهى أخفض مراتبه

وبعد أن يفرغ دانتى من زيارة السماء الثالثة يصعد لزيارة السماء الرابعة ، وهى سماء الشمس ، تقوده بياتريس ، وهى السماء التى تسكنها ارواح الحكماء وفقهاء الدين . وهى بداية السموات المطلقة النورانية . ومن السماء الرابعة او سماء الشمس يرى دانتى روح القديس توماس الاكوينى (١٢٢٥ — ١٢٧٤) ومعه ارواح عدد غفير من الحكماء والفقهاء مثل البرتوس ماجنوس (١١٩٣ — ١٢٨٠) وجراتيانوس (القرن ١٢) وبطرس اللومباردى (القرن ١٢) ويرى طيف أوروسيوس المؤرخ الدينى (ق ٤— ق ٥) وأيسيدور الاشبيلى (توفى ٦٣٦) وبيد (توفى ٧٣٥) وغيرهم ، وكلهم من علماء اللاهوت وفلاسفة الدين .وكان أجمل طيف يسطع بين هذه الاطياف طيف سليمان الحكيم . وكان بين

هذه الاطياف طيف بعض فقهاء الدين الذين أتهمتهم الكنيسة بالزندقة وأعدمتهم بسببه اجتهاداتهم الدينية التى كانت غير سائغة للبابوات الفاسدين ، ومثل هؤلاء المصلحين الدينيين فى فردوس دانتى سيجر البرابانتى (الهولندى) الذى كان فى أوائل حياة دانتى أستاذا لفقه الدين فى جامعة باريس ثم أعدمته كنيســـة روما فى أورفييتو بسبب دعوته للاصلاح الدينى واجتهاده فى تفسير الدين ، وفى السماء الرابعة قال دانتى ان ما رآه من بهاء « شمس الملائكة » وماتوحى به من التعبد والتهجد الهاه عن بياتريس وابتسامتها الوضاءة ومع ذلك فلم تغضب بياتريس لذلك وان سماء الشمس هذه ، وهى « ساحة السماء » كان بها من الجواهر والاحجار الكريمة أنفسها وأجملها . وقد دارت من حول دانتى وبياتريس الملائكة النورانية وهى تسبح وتتلألأ كالشمس التى يعشى سناها الابصار ، دارت حولهما ثلاث مرات وتجلت لعينى دانتى فى صورة نساء ثلاث ، وسمع احداهن تقول له : « مادام نور اللطف الالهى الذى به تشتعل نار الحب الحقيقى ثم تتكـاثر بالحب أشعته يسطع عليك فيقودك الى عليين على ذلك السلم الذى لا يهبط به صاعد عليه ، فان من يقبض عنك خمر قنينته وانت عطشان مثله مثل الماء الذى لايجرى الى البحر وهو كبت بالضرورة محال وحرية تلغيها نواميس الطبيعة » وفى حلقة اخرى من حلقات حكماء الدين فى هذه السماء الرابعة يلتقى دانتى بالقديس بونافنتورا الذى يشرح له سيرة القديس دومنيك . وكانت ارواح الحكماء فى هذه الحلقة الملائكية تدور حول دانتى وبياتريس كالحلقة الاولى وكأنها الرحى المقدسة أو كأنها أكليل دائر من الورود الابدية . وكانت هذه الرحى الملائكية او الورود الابدية تضم هيجوســان فكتــور (١٠٩٧ — ١١٤١) ويوحنا كريزوستوم اى فم الذهب والاب انسليم (١٠٣٣ — ١١٠٩) والقديس دوناتوس وغيرهم من كبار فقهــاء الدين كل ذلك والقديس توماس الاكوينى يشرح لدانتى فلسفة الدين ويعلمه ان العقل البشرى غير قادر على الحكم الصحيح فى أمور العقيـــدة وتنتهى زيارة دانتى للسماء الرابعة بصلاة بياتريس التى عادت الى عملها الاول وهو قيادة خطى دانتى ..

وهكذا ارتفعت بياتريس الىدرجةأرفع من درجات الخـــلاص هى السماء الخامسة ، سماء المريخ ، حيث وجد دانتى أرواح « جنـود المسيح » . وفى هذه السماء لقى دانتى أسـلافه ، فانتحت بياتريس مكانا قصيا لتفسح لهم المجال ليتحدثوا فى شئون الاسرة وفى حظ دانتى ومصيره . ولكن سعادة دانتى تزداد بمقدار ما يرتفع من سماء الى سماء وبمقدار مايقترب من الامبريوم او من سماء العنبر ، وهى أعلى سماء . ثم يرتقى دانتى الى السماء السادسة وهى سماء جوبيتر او سماء المشترى . ووجد دانتى نور المشترى أبيض هادئا على غير ما رأى

من نور المريخ الاحمر القانى . وقرأ على كوكب المشترى نقشا حروفه من نور ونوره من صفوف الملائكة وكان النقش حكمة من سليمان الحكيم تقول : « احبوا العدل يامن تحكمون فى الارض » وكانت الحروف من ذهب وفضة . وسمع صوت النسر الرومانى وهو يتكلم عن العدالة الالهية ، وقد كان النسر عند دانتى هو رمز الامبراطورية الرومانية التى كان يعتقد انها دولة مقدسة وظيفتها تحقيق العدالة على الارض .. ورأى فى سماء المشترى النسر النورانى مرصعا بالدر والياقوت ، وسمع فيها غناء العادلين وترتيلهم . وتكلم النسر فعرف منه دانتى انه قد تجسدت فيه أرواح بعض الاباطرة والابطال العادلين مثل تراجان وقسطنطين وربيوس الطروادى ، وكان بعضهم ممن عاشوا ايام الوثنية الاولى ولكنهم عدلوا عدل المؤمنين الصادقين ، فدانتى يقول ان من الوثنيين والمجوس من هم أحق بالجنة من المسيحيين

« وفى السماء السابعة ، وهى سماء زحل (ساتورن) ، رأيت داخل الدرة التى تحمل اسم هذا الزحل الشهير وهى تدور حول الارض ، هذا العاهل الذى ماتت كل الشرور فى زمنه ، رأيت معراجا بلون الذهب يضىء عليه شعاع من الشمس ، وكان هذا المعراج يصعد الى أعال قصر بصرى عن رؤية مداها » وزمن زحل كان فى أساطير القدماء يمثل العصر الذهبى للانسان . ورأى دانتى حشدا من الملائكة بلا عدد يهبط السلم من عليين ليرحب به ترحيبا . واخذت هذه الانوار الالهية تدور من حوله كالرحى السريعة وكانت هذه الملائكة هى ملائكة الساروفيم والشاروبيم (الكروبيون) ، وكان معها القديس بنديكت والانبا مكاريوس الاسكندرى والانبا أنطونيوس مؤسس الرهبانية فى مصر ويدعى دانتى الى الصعود الى السماء الثامنة ، سماء النجوم وما فوقها حتى الامبريوم : « قال : يا أخى ، ان رغبتك السامية ستتحقق لك هناك كل الامانى كاملة وناضجة وتامة .. فهى سماء لاتقع فى مكان وليس لها قطبان ومعراجنا يبلغها وهو لهذا يختفى عن بصرك . هو فى عليين رآه أبونا يعقوب يمتد فى الاعالى حيث بدا له محملا بالملائكة . وهو معراج لا يرتقيه أحد بأقدامه على الارض » وسماء العنبر ثابتة لا تتحرك اذ ليس لها محور تتحرك حوله ولا قطبان قالت بياتريس لدانتى : « انك قد اقتربت من خلاصك الاخير فيجب عليك أن تجلو بصرك ليصبح ثاقبا » ويتاهب دانتى لدخوله النعيم ، وهو أعلى درجة من درجات الفردوس . قالت بياتريس : « لم تدلهت فى عشق وجهى حتى الهاك العشق عن النظر الى الحديقة الفاتنة التى أينعت تحت ضياء المسيح ؟ هاهى ذى الوردة التى فيها اصبحت الكلمة الالهية جسدا : وهذا هو السوسن الذى هدى شذاه الى الطريق القويم » وكانت الوردة هى مريم العذراء « روزا ميستيكا » كما كانوا يسمونها. قالت بياتريس للدخول الفردوس : « افتح عينيك وانظر الى

ما أكون . انك قد رأيت من الاشياء ما جعلك تحفظ على ابتسامتى ».
قال دانتى : « كنت كمن أرتد الى نفسه من رؤيا منسية وحاول عبثا ان يستعيدها فى خلده ، عندما سمعت دعوتها ، هذه التى تستحق كل حمد فلا يجوز ان تزول من كتاب الذاكرة ، سجل الماضى . فاذا كانت بوليمنيا ، ربة الغناء وأخواتها قد أغدقن من علب لبنهن على كل هذه الالسنة المسبحة ليشجعننى ، فان التسبيح بهذه الابتسامة المقدسة وكيف أضاءت هذا الوجه المقدس ليتجاوز فى صدقه ألف مرة غناء ربة الغناء » وقال عن الوردة : « ان اسم الزهرة الجميلة الذى أناديه دائما ابدا فى صباحى ومسائى قد شغل عقلى فعاقنى عن النظر الى النار الكبرى . وحين امتلأت عينى بضياء ذلك النجم الحى القاهر الان فى فلكه كما كان قاهرا على الارض ، وامتلأت بجرمه العظيم ، رأيت مشعلا من وسط السماء يرسم دائرة فى صورة اكليل من الزهر هبط وأحاط بها كالزناد ودار من حولها دورانا ، وان اغانى الارض مهما كانت جميلة تسحر الروح تبدو كالغيمة التى تنشق فترعد وتقعقع اذا هى قيست بصوت تلك القيثارة التى توجت بها الزمردة البهية التى لونت ألمع السموات بخضرة الزمرد » .. وقال النشيد الجميل : « انا الحب الملائكى وأنا أطوف حول الفرحة العظمى التى تنطلق من الرحم الذى كان مستقر شوقنا . ويا سيدة السماء ، لسوف أطوف وأطوف حتى تتبعى ولدك وتجعلى السماء العليا أكثر الوهية بولوجها » . « وهكذا بلغ النشيد الدوار ختامه فنادت كل الانوار الاخرى باسم مريم نداء جلجل صداه »

وكانت السماء التاسعة هى « المعطف الملكى » الذى التفت به أعطاف الكون . كانت السماء التاسعة حيث « المحـــرك الاول » تلف كل السموات الاخرى وتدور حولها فتدفعها الى الحركة . وحين اراد دانتى دخول السماء التاسعة ، وجد نفسه امام القديس بطرس ، حامل مفاتيح الفردوس فى المعتقدات المسيحية ، الذى لم يأذن له فى الدخول قبل امتحان ايمانه . ثم تجلى لدانتى ايضا القديس يوحنا فى ضياء يعشى الابصار ففقد دانتى بصره بعض الوقت وكان يوحنـا يسائل دانتى عن الحب الالهى فيجيبه . وحسنت اجابة دانتى فاسترد بصره فتجلى له أبونا آدم أيضا فى السماء التاسعة وكالم دانتى ادم فعرف منه سبب سقوطه ونفيه من الفردوس الاول . قال ادم لدانتى : « والان يابنى لاتحسب ان الاكل من الشجرة فى حد ذاته هو الذى جر على هذا النفى المديد ، ولكنى نفيت من الفردوس لانى تجاوزت الحدود » وهكذا دخل دانتى وبياتريس « السماء الدرية » او سمـاء الكريستال ، وما هذه الا السماء التاسعة حيث يسكن المحرك الاول ، وفيها تعلم دانتى ان الملائكة انفسهم مقسمون الى تسع طبقات تسكن كل منها سماء من السموات التسع بحسب رتبهم

وكان دانتي يرى نور الله معكوسا فى عينى بياتريس . وصعد الى سماء الامبريوم أو سماء العنبر وهى النعيم ، خاتمة المطاف التى هى فوق كل سماء فوجد النورانية كاملة فقد كانت السموات التسع رغم ما فيها من ضياء عظيم سموات مادية أو درجات من الوجود فى الكون ، اما هذه فقد كانت سماء خالية من أية شبهة للوجود المادى . ورأى فيها نهر النور قال دانتي : « ورأيت النور فى هيئة نهر يتلألأ بالضياء يجرى بين ضفتين نقشتا بينبوع عجيب . ومن هذا المجرى خرجت شرارات حية وفى الجانبين كانت هذه الشرارات تستقر فى الازهار وكأنها عقيق يساوره الذهب ، ثم كانت تتطاير من جديد وكأنما أسكرها العبير وتندمج فى التيار العجيب . وكلما عادت الى نهر النور شرارة خرجت من شرارة » . ويسترسل دانتي فى وصف الجنة فيقول عن بياتريس : « وهكذا قالت لى شمس عينى : هذا المجرى وهذا الزبرجد الداخل الخارج وهذا السندس البسام انما هى ظلال لحقائقها المثلى » كذلك يقول دانتي : « وجذبتنى بياتريس فى صمت من يريد الكلام فأدخلتنى بين اوراق الوردة الابدية الصفراء التى تنتشر على مدى واسع وترتفع فى طيات وتتنفس عبير الشكر للشمس التى تنفجر منها عين دائمة . قالت : « انظر ! ما ارحب ديرنا ذى الاردية البيضاء ! وانظر ما أوسع رحاب مدائننا ! وانظر الى أرائكنا تجدها ملأى بالاخيار فلم يبق من البشر من ننتظرهم الا الاقلون » ولكن دانتي لم ير « الوردة البيضاء » الصافية البياض الا حول العرش ، وكانت أوراقها من الملائكة الناصعة البياض . ورأى راية السلام منشورة فى وردة الفردوس حيث جلست مريم العذراء . وتنتهى « الكوميديا الالهية » بصلاة موجهة للعذراء وبرؤيا الخلاص الابدى فى النعيم ..

هذه خلاصة « الفردوس » عند دانتي ومنها يتضح أن فكرته الاساسية عن النعيم ، كفكرته الاساسية عن الجحيم ليست مأخوذة عن التراث اليونانى والرومانى الذى تثقف به ولا عن التراث المسيحى الذى نشأ فيه ، ولكن مأخوذة عن التراث الاسلامى الذى درسه وتمثله وانتفع بأهم رموزه مهما كان قد حوره هنا وهنالك ليناسب معتقداته المسيحية . وهو لم يأخذ عن التراث الاسلامى المعالم العامة للفردوس فحسب بل أخذ عنه كثيرا من التفاصيل المحددة التى نجدها مبثوثة فى كل مكان فى « الكوميديا الالهية » . ولا شك ان مصدر دانتي الاول كان قصة المعراج ، والراجح أيضا أنه كان دارسا للقرآن الكريم ، وليس بمستبعد أنه كان عارفا برسالة الغفران على نحو ما وربما بغيرها من عيون أدب الدنيا والدين فى العالم العربى .

والصورة العامة للجنة فى حديث المعراج عن ابن عباس وغيره هى الصورة العامة لفردوس دانتي واستلهام دانتي لقصة المعراج واضح وصريح . فحديث المعراج عن ابن عباس يبدأ بأن الرسول كان فى بيت

أم هانى بنت أبى طالب رضى الله عنها وأسمها فاختة ليلة الاثنين ليلة السابع والعشرين من رجب سنة ثمان من البعثة وكان عندها فاطمة الزهراء رضي الله عنها وعمرها تسع سنين . ولم تكن تزوجته بعلى رضي الله عنه لانه تزوجها بالمدينة المنورة . واذا بالباب قد طرقه طارق فخرجت فاطمة لترى من بالباب فرأت شخصا عليه الحلى والحلل وله جناحان أخضران قد سد بهما المشرق والمغرب وعلى رأسه تاج مرصع بالدر والجوهر مكتوب على جبهته لا اله الا الله محمد رسول الله ، وكان الطارق جبريل الذى أوفد ليبلغ الرسول « فانك فى هذه الليلة تناجى ربك » وخرج النبى الى الصحراء « فاذا بالبراق قائما وجبريل يقوده واذا هو دابة لا تشبه الدواب فوق الحمار ودون البغل له وجه كوجه ابن ادم وجسده كجسد الفرس وهو دابة خير من الدنيا وما فيها من اللؤلؤ الرطب منسوج بقضبان الياقوت يلمع بالنور وأذناها من الزمرد الاخضر وعيناها مثل كوكب درى يوقد لها شعاع كشعاع الشمس شهباء بلقاء مجملة الثلاث مطلقة اليمين عليها جل مرصع بالدر والجوهر لا يقدر على وصفها الا الله » وركبه النبى البراق يقوده جبريل « فسار جاريا بين السماء والارض » حتى بلغ « وادى العقيق » فنزل وصلى ثم استأنف رحلته واستوقفته فى رحلته ثلاثة اصوات : صائح عن يمينه هو داعى النصارى وصائح عن شماله هو داعى اليهود ثم امرأة هى فتنة الدنيا ناشرة شعرها ، عليها من كل زينة خلقها الله تعالى من الحلل والجواهر والدر والياقوت قد أشرق حسنها وجمالها وهى تنادى وتقول : يامحمد قف حتى أكلمك فانى أنصح لك ولأمتك » ولكن النبى تجاهل كل هذه الاصوات لانه استشعر انها أصوات الغواية والضلال وانها معوقة له فى رحلته الالهية . حتى بلغ بيت المقدس وفيها رأى « شابا حسن الثياب طيب الرائحة » هو روح دين الاسلام تمثل أمامه بشرا وعانقه ثم اختفى وفى بيت المقدس عرض جبريل على النبى ثلاثة أقداح من لبن « الفطرة » وخمر الغواية» مسطورا ان لو شرب القدح كله الا دخل احد النار من أمته : « ثم وماء « الهلاك غرقا » ، فاختار النبى اللبن وشرب أكثره ، وكان مسطورا أن لو شرب القدح كله لما دخل أحد النار من أمته : « ثم ان جبريل عليه السلام أتى بى الى الصخرة من عنان السماء فلم أر شيئا أحسن من المعراج وهو مرقاة من الذهب ومرقاة من الفضة ومرقاة من الزبرجد ومرقاة من الياقوت الاحمر » وهنا ضمه جبريل الى صدره ولفه بجناحيه وصعد به الى السموات السبع ، ووجد فى كل سماء طبقة من الملائكة تسبح

وبلغا السماء الاولى « ففتحوا لنا الباب ودخلنا فاذا هى سماء من دخان » « يقال لها الرفيعة » ، ورأى فيها اسماعيل « خازن سماء الدنيا » « ونظرت فاذا فيها نهران عظيمان مطردان فقلت ماهذان

النهران يا جبريل ؟ قال : هذا النيل وهذا الفرات ، عنصرهما أى أصلهما من الجنة . واذا بنهر اخر وعليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضربت يدى فيه فاذا هو مسك أذفر . فقلت : ما هذا النهر ؟ فقال : هذا الكوثر » . ورأى فى السماء الاولى سبعين الف فارس فى الحلى والحلل يحملون حرابا من نور يقودهم اسماعيل خازن سماء الدنيا الذى يركب فرسا من نور وعلم النبى أن هذا الجيش من الملائكة هم « جند الله » . وكذلك رأى فى السماء الاولى « الملك الموكل بأكناف السموات وهو أنصح الملائكة لبنى ادم » . وقال فى وصفه : « واذا أنا بملك نصفه من ثلج ونصفه من نار فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفىء النار ، له ألف رأس ، فى كل رأس الف وجه فى كل وجه الف فم فى كل فم الف لسان يسبح الله تعالى بالف لغة لا يشبه بعضها بعضا » ..

ثم صعدا الى السماء الثانية : « فاذا هى سماء من حديد لا وصل فيها ولا فصل يقال لها : « الماعون » ورأى فيها « جند من الملائكة خلقهم الله تعالى لنصرة الاسلام الى يوم القيامة . وفى السماء الثانية رأى يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم « يوحنا والمسيح » ثم صعدا الى السماء الثالثة « فاذا هى سماء من نحاس يقال لها المزينة » ورأى فيها « ملائكة ليلة القدر وشهر رمضان » يحملون الوية خضراء . وفى السماء الثالثة رأى شيخا وشابا هما داود وسليمان وبينهما غلام صبيح هو يوسف بن يعقوب . ثم صعدا الى السماء الرابعة : « فاذا هى من فضة بيضاء يقال لها الزاهرة » . وفى السماء الرابعة رأى ادريس الذى رفعه الله مكانا عليا « ثم رأيته ملكا بين يديه وعن يمينه وعن شماله ينتظرون أمر الله تعالى عز وجل ، وعن يمينه لوح وعن شماله شجرة عظيمة الا انه لم يضحك أبدا » . وكان هذا عزرائيل ملك الموت . وفى حديث المعراج « فهو ومالك خازن النار لا يضحكان أبدا » . وبيد عزرائيل حربتان حربة من نور يقبض بها الارواح الطيبة ويرسلها الى عليين وحربة سخط يقبض بها الارواح الخبيثة ويرسلها الى صخرة سوداء مدلهمة تحت الارض السابعة السفلى ، واسم هذه الصخرة « سجين » وهو يرسل الى المحتضر أربعين ملكا لينتزعوا روحه من جسده ، وفى القبر يكون سؤال الملكين منكر ونكير للاموات . وفى السماء الرابعة رأى النبى أيضا ابراهيم الخليل وحادثة . ثم صعدا الى السماء الخامسة فاذا هى سماء من الذهب الاحمر واسمها السماء الخامسة المنيرة وقرأ النقش على بابها متلألئا يقول « لا اله الا الله محمد رسول الله » « فلما قرأتها سقط القفل وانفتح الباب فنظرت فيه مشرفا من السماء الخامسة الى تخوم الارض الرابعة السفلى

واذا بجهنم مظلمة ممزوجة بغضب الله ودخانها قائم » ورأى مالكا خازن النار فأطلعه مالك على ما فى الجحيم من عذاب للمذنبين . ثم انطبق الباب وعاد كما كان وصعدا الى السماء السادسة فاذا هى سماء من ياقوتة خضراء اسمها « الخالصة » « ورأيت فيها من خلقه ربى عز وجل ملكا عظيما جالسا على كرسى من نور نصفه من ثلج ونصفه من نار فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفىء النار .. فقلت ياجبريل من هذا ؟ قال : هـذا ملك خلقه الله ووكله بأكناف السموات وهو أنصح الملائكة الى أمتك وفى السماء السادسة رأى موسى . ثم صعدا الى السماء السابعة فاذا هى سماء من درة بيضاء يقال لها العجيبة وهى العالية لم أسمع فيها صرير الاقلام » ورأى أبانا ادم فى السماء السابعة ، وهى اخر السموات فى حديث المعراج ، راه جالسا على كرسى من نور وقد أسند ظهره الى البيت المعمور وهو تلقاء الكعبة : « قال ورأيت البيت المعمور وفيه قناديل من جواهر وأنوار مصطفة حوله بعضها من ياقوت أصفر وبعضها من زبرجد أخضر وبعضها من لؤلؤ رطب واذا بالملائكة يطوفون حوله » وعلم جبريل أنه لا يؤذن له أن يقترب من العرش أكثر من ذلك فتخلف : « واذا بالنداء من قبل الله تعالى : زجوا حبيبى محمدا فى النور ، فأتتنى الملائكة برفرف أخضر كمثل المقعد يحمله أربعة من الملائكة » وانطلق به الملائكة حتى انتهى الى بحر من نور أبيض ثم الى بحر من النور الاخضر ثم الى بحر اسود وفيه رأى الملاك ميكاليل الذى شرح له وظائف الملائكة « ولم ازل أخترق صفوف الملائكة حتى انتهيت الى افرق أصفر وأخضر وهو ساجد يقول فى سجوده سبحان الله العظيم ، فاذا سبح ذلك الديك سبحت ديوك الارض جميعا » وفى السماء السابعة رأى النبى الملائكة الروحانيين والكروبيين « الساروفيم والشاروبيم » وهم حملة العرش ثم اخترق سبعين الف حجاب من النور الابيض ومثلها من الزمرد الاخضر ومثلها من المسك ومثلها من العنبر ومثلها من الجبروت ، حتى انتهى الى حجاب الدخان ثم حجاب الظلمة ثم حجاب النور ثم حجاب الملك .. حتى انتهى الى حجاب الفردانية .. وهناك كالم الله وتشفع له فى امته فخفف عنها ثم اذن له أن يرجع فعاد الى حيث ترك جبريل وجلس معه فى جنة النعيم حيث رأى رضوان خازن الجنة يجلس على كرسى من نور

« فقال جبريل : يا رضوان خذ بيد حبيب الله واره الجنة وما أعد الله له ولامته فأخذنى وأدخلنى الجنة فنظرت فاذا ارضها بيضاء مثل الفضة وحصباؤها من اللؤلؤ والمرجان وترابها المسك ونباتها الزعفران وأشجارها ورقة من فضة وورقة من ذهب والثمار عليها مثل النجوم المضيئة والعرش سقفها والرحمة حشوها والملائكة سكانها والرحمن

جارها فأخذ رضوان بيدى وسرنا بين أشجارها وما فيها من سرر وعيون وحور عين وأبكار وقصور عاليات وولدان كأنهن الاقمار وخدم وحشم وكرم وأنعام ونعيم ومقام وخلود وسعود ودوام فرح فى جوار الملك العلام ، ورأيت قبة من لؤلؤة بيضاء معلقة بلا علاقة تحملها أو تمسكها لها ألف باب من الذهب الاحمر ، على كل باب ألف وصيفة ورأيت داخل القبة ألف مقصورة فى كل مقصورة ألف غرفة فى كل غرفة ألف سرير على كل سرير ألف فراش من الاستبرق بين كل فراش وفراش نهر من ماء يجرى وفوق كل فراش حورية تحير الناظر وتدهش الخاطر فرفعت بصرى متعجبا واذا بالنداء من العلى الاعلى: أتتعجب من ذلك يا محمد ؟ انظر الى صدر القبة تر العجب . فتأملت صدر القبة فاذا هى مد البصر واذا فيها قبة من الزمرد الاخضر وفيها سرير من العنبر الابيض مرصع بالدر والجوهر عليه جارية كحلاء نجلاء شكلاء دعجاء أحسن من الشمس والقمر ، وأين للشمس والقمر حسن ملاحة مثل مالها ، خلقها الله من قدميها الى ركبتيها من الكافور الابيض ومن ركبتيها الى صدرها من المسك الاذفر لها ألف وستمائة ذؤابة من الشعر لو أشرفت على أهل الارض لاضاء من خنصرها المشرق والمغرب ولو بصقت فى البحر المالح لاصبح عذبا : فقلت : يا أخى يا جبريل . لمن هذا النعيم العظيم والعطاء الجسيم ؟ فقال : يا حبيب الله هذا لمن يموت وهو يشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله حقا . قال : ورأيت نعيما وملكا كبيرا ، ورأيت فيها سبعة أنهر : نهر من ماء ونهر من لبن ونهر من خمر ونهر من عسل ونهر من السلسبيل ونهر من الرحيق ونهر من النسيم ونهر الكوثر . ولم أزل أنزل من سماء الى سماء فما مررت على شيء فى السموات الا وهو يقول لا اله الا الله محمد رسول الله . فلما انتهينا الى السماء الدنيا اذا الليل على حاله لم يتقدم ولم يتأخر . فركبت وأتيت مكة شرفها الله تعالى وعظمها »

فما أخذه دانتى فى « الفردوس » عن التراث الاسلامى ومن قصة المعراج بالذات واضح وصريح . وهو أن السموات لها عدد فهى سبع سموات جعلها دانتى تسعا وهى مرتبة فى حديث ابن عباس على النحو التالى : الاولى سماء الدخان . الثانية سماء الحديد . الثالثة سماء النحاس . الرابعة سماء الفضة . الخامسة سماء الذهب . السادسة سماء الياقوت الاخضر وأخيرا السابعة وهى الدرة البيضاء . وفى دانتى نجد السموات مرتبة بحسب الفكرة التقليدية عن الكواكب السيارة : فالاولى سماء القمر . والثانية سماء عطارد . والثالثة سماء الزهرة . والرابعة سماء الشمس . والخامسة سماء المريخ ، والسادسة سماء زحل . والسابعة سماء المشترى ، والثامنة هى السماء الدرية أو سماء الكريستال . والتاسعة هى سماء العنبر ويلاحظ ان السماء السابعة فى ابن عباس جمعت بين الدرية والعنبرية وهى على هذا تقابل السماء الثامنة والسماء التاسعة عند دانتى . ويلاحظ ان كوزمولوجيا دانتى تتبع كوزمولوجيا قصة المعراج من حيث التدرج

مع الصعود فى رموز الغنى والصفاء والسعادة بمقدار ما يبتعد عن الارض وظلها فالحديد أرقى من الدخان والنحاس أرقى من الحديد والفضة أرقى من النحاس والذهب أرقى من الفضة والدر أرقى من الذهب وبالمثل يتنبأ دانتي أن ظل الارض ، أو ظل المادة الحاجب للحقيقة والمثل يخف درجة درجة كما ارتفع من القمر الى عطارد ومن عطارد الى الزهرة ومن الزهرة الى الشمس ومن الشمس الى المريخ ومن المريخ الى زحل ومن زحل الى المشترى وأننا بالتدريج نبلغ من الصعود النورانية الكاملة كذلك فان دانتى لم يزعم أنه صعد هذه السموات بجناحين وانما يحدثنا صراحة أنه صعدها على معراج ذهبى حيث يقول مثلا : « ورأيت سلما يرتفع ارتفاعا عظيما حتى عجزت عينى عن تتبع منتهاه ، وكان السلم بلون الذهب الذى أضاءه شعاع من الشمس » « النشيد ٢١ من الفردوس » كذلك نرى دانتى يتوسع فى وصف الفردوس برموز الاحجار الكريمة كالزبرجد والعقيق والياقوت والدر ويتوسع فى وصف الرياض الخضراء والازهار من الجنة ولا سيما فى السماء التاسعة ، كذلك يقتبس دانتى من قصة المعراج تصنيف الملائكة فى السموات المختلفة وهو لا يكتفى بوضع ملائكة الصاروفيم والشاروبيم بالقرب من العرش على غرار الملائكة الروحانبين والكروبيين .. الذين يحملون العرش فى قصة المعراج ، بل ينقل عن حديث المعراج صورة الملائكة الفرسان من جنود الاسلام ، ومكانهم فى ابن عباس فى السماء الثانية . هؤلاء نجدهم فى دانتى جنود المسيح . كذلك اصرار دانتى فى الانتقال من سماء الى سماء حين يذكرنا بسرعة الصعود كلمح الخاطر أو كانطلاق السهم ليس الا صدى لما رآه من وصف الصعود فى قصة المعراج بأنه كان فى كل مرة يتم « فى أسرع من طرفة عين » وبالرفرف الاخضر الذى سار بالرسول « كالسهم الذى يخرج من القوس » ، ومثله اهتمام دانتى ببيان المسافات الفاصلة بين كل سماء وسماء ليس الا صدى لما قرأه فى قصة المعراج ومثله اصرار دانتي على وصف ترحيب الملائكة به فى مراحل رحلته المختلفة . ومثله وصف نهر النور المقابل للكوثر فى الجنة فى حديث المعراج ومن يقرأ المطهر يجد أن دانتى قد ذكر فى ختام هذا القسم من « الكوميديا الالهية » فى (النشيد ٣٣) أن الدجلة والفرات يخرجان من عين من عيون المطهر ، وقد وقفت بجوار هذه العين سبع نساء أو سبع من حور العين وليس هذا الا صدى لما جاء فى حديث المعراج من أن النيل والفرات يجريان فى السماء الاولى وأن منبعهما فى الجنة أو فى السماء السابعة مثل الكوثر . فاذا ما بلغنا السماء السابعة فى حديث المعراج عن ابن عباس عرفنا أن هناك « سبعة أنهار » وفى « المطهر » قادت ماتيلدا دانتى ليشرب من ايونوى فما أن شرب منهما حتى عاد الى بياتريس « نقيا مشوقا الى الصعود نحو النجوم » . وما « أيونوى » هذه فى دانتى الا كلمة « العين » نقلها الشاعر الايطالى عن التراث الاسلامي . وقد سبق لاسين بلاسيوس أن ذكر أن « النسر » فى

« فردوس » دانتي ليس الا الديك الوارد ذكره في قصة المعراج وكذلك لقاء الانبياء في السموات المختلفة كذلك لقاء آدم في السماء العليا يتواتر في قصة المعراج وفي « الكوميديا الالهية »

غير أن بعض التفاصيل الواردة في « فردوس » دانتي توحي بأنه اقتبس أيضا من القرآن الكريم ومن « رسالة الغفران » وربما من غير ذلك من المصادر الاسلامية • فتصويره للوردة السماوية يوحي بأن له صلة ما بما جاء في سورة الرحمن : « فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » • وقد اتخذ دانتي من وردة الفردوس البيضاء رمزا لمريم العذراء ، فينوس السماوية أم الحب الالهي ، ووصف الوردة بأن أوراقها هي الملائكة • وكان نقيضها في العصور الوسطى هو الوردة الحمراء ، رمز فينوس الجسدية أم الحب الشهواني • وقد كان للوردة أدب غزير في العصور الوسطى الاوروبية مثل « رواية الوردة » الشهيرة وهو كله قصص ظاهره دنيوي وباطنه بحث بالخيال في الالهيات على طريقة دانتي • ومنه ماهو سابق لدانتي وليس له في التراث الكلاسيكي الاوروبي أصول معروفة • فليس يبعد أن تكون أوروبا المسيحية في العصور الوسطى قد أخذته من العالم الاسلامي عن طريق أسبانيا وصقلية وترجمت رموزه الحمراء رمزا للجحيم • والمعري نفسه ينسج على صورة « الوردة » في « سقط الزند » ويجعل جحيم الوردة الحمراء في الارض لا في السماء

« فاذا الارض وهي غبراء صارت
من دم الطعن وردة كالدهان »

ولكن الوردة الواردة في القران وتفاسيرها هي المقابل الاصلي الذي خرجت منه كل هذه الاجتهادات في أدب الوردة على أرجح الاحتمالات

كذلك توحي بعض معالم « الكوميديا الالهية » بمعرفة دانتي « برسالة الغفران » فاذا نحن تأملنا الهيكل العام لرسالة الغفران وجدناه يقوم على محاورات المعري مع الشعراء في الجنة ، واذا نحن تأملنا الهيكل العام « للكوميديا الالهية » وجدناه يقوم على محاورات دانتي مع القديسين وفلاسفة الدين ، فالهيكل واحد والمنهج متشابه رغم اختلاف مقصد الشاعرين • بل أن وقوف دانتي حين بلوغه لسماء العنبر أمام بطرس حامل مفاتيح الفردوس في المسيحية ثم أمام يعقوب ويوحنا وامتحانهم اياه في مبادىء العقيدة لمعرفة مدى ايمانه واجازة دخوله الفردوس يذكرنا بوقوف ابن القارح أمام رضوان خازن الجنة ومثوله أمام حمزة وعلي بن أبي طالب ليناقش في دينه قبل دخوله الجنة • وهو موقف لا وجود لشبيه له في قصة المعراج فلا يستبعد ان يكون دانتي قد التبسه من « رسالة الغفران » كذلك لم يرد في ابن عباس ذكر لارجاء المسجد والاحجار الكريمة التي تدور في الفردوس دوران الافلاك وهذه الارجاء الموصوفة وصفا جميلا في « رسالة

الغفران » نجدها فى دانتى « موتيفا » متكررا ، حيث نرى ملائكة النور لتكون منها دائرة « وتدور حول نفسها دوران الرحى السريعة » « الفردوس » (النشيد ٢١) أو تتخذ شكل أكليل من الزهر وتدور حول زائر الفردوس دوران الرحى فيسمع منها موسيقى الافلاك . كذلك يذكرنا لقاء دانتى لاخيار الوثنيين فى الجنة بلقاء ابن القارح لاخيار الجاهلية فى الجنة . يذكرنا احتجاج دانتى على توزيع اللطف الالهى على الخطأة فى قصة بيكاردا وكونستانس ووضعهم فى الدرجات الواطئة من الفردوس « النشيد ٤ » باحتجاج بعض شخصيات المعرى على دخول بعض الشعراء الفاسدين « بالخطأ » جنات النعيم رغم أن مكانهم الطبيعى هو الجحيم . وكذلك يذكرنا قول آدم فى النشيد ٢٦ من « الفردوس » : « ان اللغة التى كنت أتكلم بها قبل أن يحاول شعب نمرود بناء صرحهم الذى لا سبيل الى اتمامه كانت قد انقرضت تماما قبل أن يشرعوا فى ذلك » (يقصد بناء برج بابل الذى تبلبلت به السنة البشر) ، يذكرنا هذا بقول آدم فى « رسالة الغفران » انه ينكر كل ما نسبته اليه العرب من شعر لانه لم يكن يتكلم العربية فى الجنة بل كان يتكلم السريانية وغير هذا كثير من المواقف والصور والعبارات التى نجدها فى « الكوميديا الالهية » ولا نجد لها نظيرا فى قصة المعراج ولا يسهل تفسيرها الا بافتراض اطلاع دانتى على « رسالة الغفران » فى صورة من صورها مترجمة أو ملخصة أو معروضة باللاتينية

فهرس

كتب هلال صدرت فى سنة ١٩٦٥ ، ١٩٦٦

رقم الكتاب		
١٦٦	محمد رسول الحرية	: عبد الرحمن الشرقاوى
١٦٧	البحث عن شكسبير	: د . لويس عوض
١٦٨	اسرائيليات	: أحمد بهاء الدين
١٦٩	حقائق الاسلام وأباطيل خصومه	: عباس محمود العقاد
١٧٠	مختارات من برناردشو فى النقد والسياسة	: د . عمر مكاوى
١٧١	اساطير الحب والجمال عند الاغريق	: درينى خشبة
١٧٢	عشرة أدباء يتحدثون	: فؤاد دوارة
١٧٣ ، ١٧٤	مذكرات شارلىشابلن ج ١ ، ج ٢	: صلاح حافظ
١٧٥	كتابات لم تنشر	: د . محمد مندور
١٧٦	ثورة الزنوج فى امريكا	: د . عبد الملك عودة
١٧٧	معارك فكرية	: محمود أمين العالم
١٧٨	أبو ذر الغفارى	: عبد الحميد جودة السحار
١٧٩	دليل المتفرج الذكى الى المسرح	: الفريد فرج
١٨٠	رسائل نهرو الى انديرا	: أحمد بهاء الدين



هـذا الكتاب

هذا الكتاب طائفة من الابحاث عن أدب الاخرة نشرها الاستاذ الدكتور لويس عوض فى ملحق الاهرام بين ١٦ أكتوبر و ١١ ديسمبر ١٩٦٤ ، وموضوعها تصور الشعراء والادباء للنعيم والجحيم من هوميروس الى ارسطوفانيس الى لوسيان فى الادب اليونانى الى المعرى فى الادب العربى الى دانتى فى الادب الايطالى ، مارا بفرجيل وأوفيد فى الادب اللاتينى . فهو اذن بحث فى الادب المقارن محوره كتاب المعرى العظيم « رسالة الغفران » وبيان مدى تاثرها باليونانيات ومدى تأثيرها فى « الكوميديا الالهية » لدانتى العظيم

وقد أثارت هذه السلسلة عند نشرها فى ملحق الاهرام معركة عاصفة وكانت القضية التى أثارت هذه العاصفة اشتباه الدكتور لويس عوض بأن المعرى كان متأثرا فى « رسالة الغفران » ببعض المصادر اليونانية بمثل ماكان مؤثرا فى « الكوميديا الالهية » . والحق أن جوهر المشكلة التى أثارها الدكتور لويس عوض هو جوهر المشكلة التى أثارها من قبل عميد الادب العربى الدكتور طه حسين فى العشرينات ومعه كافة أنصار الجديد ، الا وهى ضرورة اعادة فتح باب الاجتهاد فى دراسة تراثنا كمقدمة لازمة لتجديد هذا التراث . أما أنصار القديم فموقفهم كان دائما « تقديس » التراث القومى واعتباره مساويا لذاته منقطع الوشائج بكل ماحوله من تراث انسانى عظيم